

وحدة تاريخ مصر



الثورة .. والحرية (١٠)

وحدة تاريخ مصر

تأليف

محمد العزب موسى

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

أ. د. محمد صابر عرب

موسى ، محمد العزب.

وحدة تاريخ مصر/ تأليف محمد العزب موسى. ـ

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية ، 2011-

٢١٩ ص؛ 20 سم. ـ (الثورة والحرية)

تدمك 5 - 0814 - 18 - 977 - 978

١ - مصر. تاريخ - العصر الحديث.

أ - العنوان.

٩٦٢

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١/٩٠٠١

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0814 - 5



الثورة .. والحرية
سلسلة غير دورية

المقـدمة

المشكلة والمنهج

مصر دائماً هي الفصل الأول في كتب التاريخ ، افتح أي كتاب في التاريخ العام للبشرية تجده يفرد صدارته لتاريخ مصر القديمة ، فبعد المامة عاجلة بفترة ما قبل التاريخ ينتقل الكتاب فـوراً إلى المسرح الأول للحضارة ، إلى وادي النيل حيث تعلم الإنسان الزراعة والكتابة والتفكير ، ووصل في أمد قصير إلى قمة حضارية لا تدانيها قمة أخرى في التاريخ القديم .

ومصر كذلك هي القاسم المشترك الأعظم في كل كتب التاريخ . لن تجـد كتاباً يتعرض لأية مرحلة تاريخية دون أن يذكر مصر مراراً بين ثناياه، فهي دائماً مؤثرة أو متأثرة ، وهي دائماً موجودة في الصدارة أو الخلفية ، لن تجدها أبداً معزولة في زوايا الإهمال حتى في أظلم حقبات تاريخها ، بل هي دائمـاً في مهب كل التيارات .

وإذا افترضنا جدلاً ـ حالياً على الأقل ـ أن الشعب الذي يسكن مدن مصر وقراها في القرن العشرين هو امتداد على نحو ما للشعب الذي سكن هـذه الديار دون انقطاع منذ فجر التاريخ لكان لنا أن نعتبر هـذا الشعب معجزة

حقيقية لم يجد الزمن بمثلها ، ولا نظير لها في سجل البشرية ، فهو أقدم صاحب تاريخ حافل يضرب في أعماق الزمن عدة آلاف من السنين قبل التاريخ المكتوب، ثم واكب سير الحضارة البشرية منذ فجرها الأول حتى العصر الحديث .

ولكن – وهذه احدى التناقضات الكبرى في مصر – ليس هناك شعب في العالم يجهل تاريخه كالشعب المصري أو يقف حياله هذا الموقف المتخبط .

ان كل الشعوب الراقية ، بما فيها شعوب الدول الاشتراكية التي تتغلب لديها المشاعر الدولية على المشاعر القومية ، حريصة أشد الحرص على دراسة تاريخها والإحساس به ومعايشته كل يوم ، في الصحف والمناقشات والمتاحف والفنون .

لقد شاهدت في المجر كيف يقطعون مئات الأميال لزيارة أطلال قلعة قديمة أو قصر دارس لا يتعدى تاريخها مطلع العصور الوسطى ، ويرتسم الفخر في أعينهم وهم يذكرون لك أن أحد أبطالهم سكن هذه القلعة منذ ألف عام ، أو أن ملكهم الأول بنى هذا القصر حين استقرت قبائل أجدادهم الرحل في تلك المنطقة ، ورأيت كيف تنتشر تماثيل ملوكهم وأبطالهم وشعرائهم القدامى في كافة الميادين .

وشاهدت نفس الظاهرة في بولندا ، وكيف يحيطون معالمهم الأثرية – وتاريخها لا يتجاوز بضع مئات من السنين – باهتمام وعناية لا حد لهما ، وهم حريصون على الاحتفاظ بمعالم القرون الوسطى في كراكوف مثلاً وغيرها من المناطق الأثرية ، وتجد متاحفهم تتفنن في عرض قطعة من الشقافة أو الآنية أو القماش ، كانت تستخدمها قبائل أجدادهم الأولين .

وحتى في ألمانيا الشرقية توجد نزعة واضحة لدراسة التاريخ القومي من

زاوية تقدمية ، وهم يهتمون هناك غاية الاهتمام بالمتاحف والقصور والقلاع القديمة ، ويحتفظون في منازلهم بقطع من الأثاث القديم التي تزيد قيمتها في أعينهم كلما ازدادت قدماً .

أما نحن – أصحاب أقدم وأغرب تاريخ في العالم ، فننظر إلى تاريخنا بخفة وعدم أكتراث . لكأن عراقته تغنينا عن مشقة دراسته ، وغرابته تكفينا مؤونة فهمه !

ومن المؤلم أن عدم المبالاة هذه ليست قاصرة على رجل الشارع أو ساكن القرية ، بل تجدها أيضاً بين المتعلمين وأحياناً بين صفوف المثقفين ، وأخطر من ذلك بين المتخصصين في شؤون التاريخ أنفسهم ، كالمسؤولين عن طريقة العرض في المتاحف والمعالم الأثرية !

فهل يمكن أن يكون الشعب المصري رغم أنه صاحب أقدم تاريخ ليست له ذاكرة تاريخية ؟

أم أن هناك إحساساً غامضاً لدى الشعب بأنه ليس صاحب هذا التاريخ الذي يتحدثون عنه ، وإنما أصحابه هم أولئك الملوك والولاة والأسياد الذين جاؤوا وزالوا وبقي الشعب ، ولكن خارج التاريخ ؟

أم لعل هذه الظاهرة احدى تركات عصور الجهل والظلام والاستعباد التي ما تخلصنا منها إلا بالأمس القريب ؟

أغلب الظن أن السبب الثالث هو الأقرب إلى الصواب ، فذاكرة الشعب المصري ليست أضعف من ذاكرة غيره من الشعوب ، وبالرغم من أنه شعب زراعي أساساً – والمجتمعات الزراعية تعنى بالطبيعة لا التاريخ – إلا أنه لا ينسى بسهولة ، ولا تزال تعيش في وجدانه رواسب وذكريات قديمة لا حصر

لها ، يتناقلها شفاهة جيلاً بعد جيل ، ولن تجد قرية مصرية ليست لها ذكريات تحتفل بمناسباتها عاماً بعد عام ، وأن مجرد بقـــاء الملاحم والسير والقصص الشعبية حية بين المصريين مئات السنين يرفع في حـــد ذاته أي مطعن عليهم بضعف الذاكرة .

وحقاً لقد كتب التاريخ المصري ، ونحت في الصخور ، ولون في القصور من زاوية الحكام لا المحكومين ، ولا يكاد يكون هنـــاك تاريخ مكتوب للشعب نفسه ، ولكن هذه ليست ظاهرة قاصرة على مصر . فإن التاريخ بشكل عام سجـــل في مختلف العصور في زاوية الذين يملكون إمكانيات تسجيله وتحويره وتطويعه لأغراضهم ، وهم أبناء الطبقة العليا المسيطرة ، ابتداء من تاريخ روما الذي هو أساساً تاريخ أباطرتها وقوادها إلى تاريخ القرن العشرين ، وهو تاريخ الحروب والأزمات التي أثارها الحكام والسياسيون وأصحاب المصالح الاقتصادية .

ولكن ، ليس صحيحاً كذلك أن الشعب المصري – أو أي شعب آخر – عاش خارج التاريخ ، فالشعب دائماً هـــو صانع التاريخ ، والحكام والقواد والحكماء والنبلاء لا يعملون في فراغ ، بل هم يتصدرون حقـاً أو باطلاً ، عدلاً أو ظلمـــاً ، حركة الجماهير . والشعب المصري بأبنائه من ملايين الفلاحين والحرفيين والمثقفين من مختلف العصور ، هو الذي شيد الأهرامات العظيمة التي استقرت فيها أجساد الفراعنة ، وهو الذي أخرج بدائع الفن القديم التي نسبهـا الحكام لأنفسهم ، وهو الذي خاض الحروب ، وتحمـل المحن ، وقاوم الزمن .. انه لم يكن أبداً خارج التاريخ بل كان دائماً في قلب معمعته .

ويبقى أن يقال باطمئنان أن تلك الظاهرة المؤسفة – وهي عـــدم الوعي الكافي بتاريخنا – ترجع فحسب ، أو في المحـل الأول ، إلى عصور الاستبداد والسيطرة الأجنبية التي عانتها مصر في مختلف مراحـــل تاريخها ، والتي بذل

خلالها الطغاة والمحتلون أقصى ما يستطيعون من جهد لإذلال الشعب وتجهيله ، وطمس ذاكرته وهدم شخصيته حتى لا يعود يذكر شيئاً من أمجاده ، وبالتالي تسهل السيطرة عليه وقيادته .

وأبلغ دليل على ذلك انه ما ان اخذت تلك السحابة السوداء تنقشع حتى بدأ الشعب المصري يسترجع ذاكرته ويحس بتاريخه ، ويبحث عن شخصيته المفقودة، ونحن نشاهد منذ نصف قرن على الأقل أي منذ بداية النهضة الفكرية الحديثة بعد ثورة ١٩١٩ اهتماماً كبيراً بالدراسات التاريخية وبالمعالم الأثرية على السواء ، لقد ولدت لدى الشعب المصري حاسة الاحساس بالتاريخ .

* * *

ولكن نظرة المصريين إلى تاريخهم لا تزال يشوبها قدر كبير من التخبط ، فليست هناك نظرة موحدة واضحة المعالم إزاء التاريخ المصري ، بل يبدو أحياناً كأن ليس ثمة اتفاق على الخطوط الرئيسية فيه .

وهناك مدرستان رئيسيتان .. إحداهما تؤكد فكرة استمرارية مصر وتتطرف أحياناً إلى حد الزعم بأن مصر الحديثة لا تزال فرعونية جوهراً، وان كل ما طرأ عليها من تغييرات لم يمس سوى القشور .

والثانية تؤيد فكرة تنوع مصر ، وتتطرف أحياناً إلى حد الزعم بأن مصر العربية الإسلامية أو على الأقل مصر الحديثة منبتة الصلة بما قبلها ، وليس هناك بالتالي إطار واحد للتاريخ المصري، وليست هناك علاقة ما بين المصريين المحدثين والمصريين القدامى الذين هم مجرد أمة بائدة من الوثنين .

وهذا الخلاف يرجع — في رأيي — إلى ثلاثة أسباب محددة :

السبب الأول ، طول التاريخ المصري وتنوعه الشديد وتوزعه بين ثلاث أو أربع حضارات مستقلة هي الفرعونية والهلينية والبيزنطية والإسلامية بحيث أصبحت لا تربطه في الظاهر وحدة واحدة بحال من الأحوال ، بل يبدو آخره مختلفاً تماماً عن أوله ، في حين أن خيط الاتصـــال الحضاري أكثر وضوحاً بالنسبة لشعوب عريقة أخرى– وإن لم تكن أعرق من الشعب المصري كالصينيين والهنود والفرس .

والسبب الثاني أن التاريخ المصري بالرغم ممـــا كتب فيه من دراسات لا تحصى بمختلف اللغات لم يدرس بعد دراسة تحليلية تشريحية تنظر اليه ككل ، وتحاول أن تبحث في أغواره عن خيط عام يربط بين مراحله وأجزائه، بل ان الدراسات التاريخية عن مصر هي في جملتهـــا – وباستثناءات قليلة للغاية – دراسات جزئية تركيبية تهتم بعصر واحد أو حقبة معينة وتغفل ما قبل ومـــا بعد بدعوى التخصص الدراسي أو التباين الأساسي بين مراحل التاريخ . ومن الاستثناءات القليلة الحديثة التي تخلصت من هذا الأسلوب « تكوين مصر » لمحمد شفيق غربال ، و « سندباد مصري » للدكتور حسين فوزي ، و « شخصية مصر » للدكتور جمال حمدان ، و « مصر ورسالتها » للدكتور حسين مؤنس ، و « في أصول المسألة المصرية » لصبحي وحيدة .

والسبب الثالث هو تصور وجود تعارض بين القومية والتاريخ .. فقـــد تنازعت مصر في مطلع نهضتها الحديثة ثلاثة اتجاهات قومية لم تستطع للأسف أن تتعايش فيا بينها بل كان كل منها يرفض أحد زميليه أو كليهما بشدة .

وهذه الاتجاهات هي: الاتجاه الإسلامي الذي كان ينادي بالارتباط بجامعة الشعوب الإسلامية ،ويجعل العقيدة الدينية محور التوجيه السياسي والاتجاه الفرعوني الذي يرى ان مصر تختلف بحكم أصلها وظروفها عما يجاورها من الشعوب العربية والإسلامية ، وبالتالي يحصر نشاطها في مجالها الإقليمي الذي قد يمتد ليعني وحدة

وادي النيل. والاتجاه العربي الذي يركز على أن مصر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي بحكم الأصل واللغة والمصالح والمشاعر والتاريخ وينبغي بالتالي أن تكون القومية العربية محوراً للفكر والسياسة .

وكان لهذه الاتجاهات تأثير واضح في النظرة الى التاريخ المصري ، فالذين ينادون بالاتجاه الإسلامي يركزون على تاريخ مصر الاسلامية وثقافتها ويغفلون التاريخ الفرعوني باعتباره تاريخاً وثنيـــاً يستنكره الدين ، ويرفضون القومية العربية باعتبارها نزعة شعوبية .

والذين يتمسكون بالاتجـــاه الفرعوني يركزون على تاريخ مصر القديم وخصائصها الإقليمية ويقللون من أثر الإسلام والعروبة معاً ، والذين يتحمسون للاتجاه العربي يتجاوزون عن تاريخ مصر القديم وخصائصهـا الذاتية بدعوى انهما يذكيان النزعة الاقليمية الانفصالية ، ويقللون في نفس الوقت من أهميــة العامل الديني باعتباره لا يصلح اساساً للقومية .

وأعتقد أنه بالرغم من الاختلافات الظاهرة بين هذه الاتجاهات الثلاثة فإنها غير متناقضة اصلاً فيما بينها ، فهي ثلاثة اوجــه لحقيقة مصر الواحدة ، وما الحساسية المفرطة التي كانت ترتبط بالخلاف بين هذه الاتجاهات الثلاثة إلا عرض من أعراض المراهقة الفكرية في طريقه حتماً للزوال .

ليس هناك تعارض بين الذاتية المصرية ، والعقيدة الإسلامية ، والقوميـــة العربية ، إنما ينشأ التعارض عند محاولة وضع إحدى هـــذه المقولات في غير وضعها الصحيح .

ان القول بوجود شخصية مصرية متميزة نتيجة لتطور تاريخي خاص لا يعني التنكر للعروبة ، ولا يعني التركيز على ما يفرق دون ما يوحـد بل انه حقيقة موضوعية من الخطأ تجاهلها ، والايمان بإسلامية مصر لا يتطلب بتر تاريخهـا فيما قبل عام ٦٤٠ ميلادية . والإخلاص للقومية العربية لا يستدعي اعتبـار هجرة

القبائل العربية إلى مصر بعد الفتح الإسلامي أساس عروبتها، فهذه نظرة خاطئة من وجهة النظر القومية ذاتها ، لأن القومية العربية لا تقوم على أساس ديني بمعنى أن دخول مصر في الاسلام هو أساس قوميتها وبداية تاريخها ، كما انها لا تقوم على اساس عنصري بمعنى ان المصريين عرب بحكم ما ينساح في شرايينهم من دماء عربية خالصة ، وإنما تقوم على اساس ثقافي لغوي ، بمعنى ان نطـــق مصر بالعربية ومساهمتها في كنوزهـــا الفكرية والانسانية هو الأساس الوطيد لقوميتها العربية .

وعلى ذلك أرى أن هناك ثلاثة ألوان من التعصب ينبغي رفضها : التعصب للاقليمية المحلية على اساس التميز التاريخي والعرقي للمصريين ، والتعصب للمشاعر الدينية الذي يلغي التاريخ والقومية معاً ، والتعصب للفكرة العربية اذا انكر الشخصية المصرية وجردها من سماتها التاريخية والحضارية الخاصة .

ولقد حان الوقت للقضاء على تلك الهوة المصطنعة بين تاريخ مصر وعقيدتها وقوميتها ، وإزالة ما بين هذه الحقائق الثلاث من حساسية وهمية مرجعها الجهل أو التعصب ، فالتاريخ المصري دوحة هائلة متماسكة الحلقات تضرب بجذورها في اعماق الزمن ، وهي إذ تنتج الآن ثمرة القومية العربية فما هـذه الثمرة سوى النتاج الطبيعي لتلك الدوحة بعد عملية التعظيم العربي الاسلامي منذ اربعة عشر قرناً وهي فترة على اهميتها لا تعدو ربع تاريخ مصر المكتوب . ومن الخطـــأ الآن في عصر السماحة الفكرية والبحث العلمي التنكر للدوحة من اجل الثمرة او انكار الثمرة تعصباً للدوحة، وفي الواقع لن يستقيم احساس المصريين بتاريخهم وقوميتهم معاً ، ما لم يضعوا هذه الحقيقة دائماً نصب اعينهم .

ولقد اخذت تتبلور بالفصـــل النظرة السليمة للتاريخ المصري والشخصية

المصرية [1] .. إنهـــا نظرة لا تبتر الماضي ولا تعتبره في نفس الوقت عبئاً على الحاضر او قيداً جامداً عليه ، انها تركز على الحاضر ، ولكنها تتسع للماضي وتبحث فيه عن جذور الحاضر والمستقبل . انهـــا صيغة خلاصتها وحدة واستمرارية التاريخ المصري مع الاقرار بعدم جموده او ركوده ، فهي إذ تقول بأن جذور مصر الحديثة تمتد في اعماق مصر القديمة ، فإن مصر الحديثة ليست مومياء تخلفت عن مصر القديمة، وهي إذ تزعم ان الشعب المصري اكثر شعوب العالم عراقة ، إلا أنه في نفس الوقت من اكثرها تجدداً ومرونة ، فقـــد جدد دماءه وافكاره اكثر من مرة عبر التاريخ ، وكان يتمتع دائماً بقدرة مذهلة على تمصير الواردين ، وطبعهم بطابعه ، فـلا تناقض بين الأصالة والتجدد ، بل ان اصالة مصر وقدمها هما اساس وخلفية تجددها وتطورها .

---

(١) في الحديث الذي ادلى به الزعيم الخالد جمال عبد الناصر الى الصحفي الاميركي جيمس روستون، رئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز في١٣/٢/١٩٧٠ونشرته صحيفة الاهرام بعد ذلك بيومين ، قال الزعيم رداً على احد الاسئلة « ان شعبنا هنا له في الحقيقة خبراته، لدينا حضارتنا، الحضارة المصرية القديمة التي استطاعت ان تواجه العديد من الغزاة ... ان هـــذا الشعب شعب عريق ، وشعب عظيم ، ومهما كانت الصعاب التي يواجهها فانه يواجهها باصرار » .

وأجاب عن سؤال آخر حول سبب الهدوء الذي يواجه به الشعب المصري غارات الطائرات الاسرائيلية على حافة القاهرة قائلاً : « انه يعود الى تاريخ هذا الشعب .. ففي كل رجـــل من الرجال هنا شيء يترسب في اعماقه من التجربة الطويلة لاجداده عبر اجيال تاريخية ممتدة » .

واجاب الزعيم عن سؤال آخر حول ما اذا كان هناك ازدياد في الشعور بالوطنية المصرية قائلا « قبل سنة ١٩٦٧ كان الشعور الاكثر ظهورا هـــو الشعور بالقومية العربية ، وبعد سنة ١٩٦٧ ظهر ايضاً الشعور بالوطنية المصرية الى جانب الشعور بالقوميه العربية ، وأظنك تعرف انهم عرضوا علينا صيغا تنص على الانسحاب من سيناء وحدها ، ولم يوافق احد على ذلك ، وهذا هو الشعور بالقومية العربية ، والحقيقة انه ليس هنـــاك تناقض بين الشعور بالوطنية المصرية والقومية العربية » .

ان استمرارية الشعب المصري يمكن تشبيهها من الناحية الرمزية باستمرارية النيل ، فكما ان النيل قديم يشق نفس المجرى منذ آلاف السنين إلا ان مياهه جارية ومتجددة كذلك مصر عريقة قائمة بلا انقطاع ، والحياة فيها مستمرة متجددة .

استمرارية الشعب المصري ديناميكية وليست استاتيكية ، فليس صحيحاً ان الانسان المصري لم يغير سوى ثيابه أو جلده الخارجي مع تغير العصور ، بل انه في الحقيقة تطور في أعماقه وأصبح حاصل ضرب لا حاصل جمع مختلف الحضارات التي عاشها وتمرس بها ، ويعبر أحمد رشدي صالح عن هذه الحقيقة قائلاً :

« لقد يحلو للبعض أن يقولوا ان رجل الشارع المصري عبارة عن طبقات من مدنيات تركب بعضها فوق بعض ، فهو مصري في ظاهره فاذا رفعت تلك الطبقة ألفيته قبطياً أو اغريقياً ، ثم حين ترفع تلك الطبقة تجده فرعونياً ، وليت مثل هذا الرأي كان من قبيل الدعاية أو اللعب بالألفاظ ، ولكنه يبدو في كتابات كثيرة ، وفي كتب متخصصين ، وخلاصته ومؤداه انه يستطاع الرجوع والانتكاس الى حيث كان المصري عربياً او قبطياً او فرعونياً ، والحق ان الشخصية المصرية شأنها شأن اي شخصية قومية أخرى قد أصبحت اليوم مزاجاً مركباً تركيباً جدلياً وتاريخياً لا تستطيع قوة أن تسحق عناصر منها أو تسلخ بعضها ، والحق ايضاً انه بصرف النظر عن تلك المؤثرات المختلفة فنحن اليوم عندما ندرس الشخصية المصرية نخطىء الخطأ كله إذا اعتبرناها فرعونية جوهراً ، أو قبطية جوهراً ، او عربية جوهراً ، انما هي من بعد ومن قبل مصرية وقومية ولا شيء آخر[1].

* * *

---

(١) احمد رشدي صالح : الادب الشعبي ص ٥٠ .

وأود منذ البداية أن أسوق رأي المؤرخ العالمي أرنولد توينبي في التحذير من خطل دراسة التاريخ الوطني لأية أمة كوحدة مستقلة[1] ، إذ يضرب توينبي مثلاً بكتاب المؤرخ الفرنسي كامي جوليان : De la Gaule à la France Nos Origines Historiques الذي نشر عام ١٩٢٢ ويقول ان قارىء هذا الكتاب لا يسعه الا أن يذكر دائماً أن مؤلفه فرنسي ، بل فرنسي يعين في فترة الحرب العظمى لأنه مكتوب بفرض مسبق هو تأكيد شخصية فرنسا التاريخية منذ أقدم العصور ، وبالتحديد منذ ما قبل التاريخ عندما لم يكن هناك شيء اسمه فرنسا . والمؤلف يعتبر فرنسا وحدة قائمة بذاتها من مختلف العصور ، فلو ان العالم كله قد زال من حولها وبقيت فرنسا وحدها لما كان لذلك أثر في نظريته بل لاستمرت فرنسا بحدودها المادية الواضحة كما هي يغزوها الغزاة وتتغلب عليهم بوطنيتها . ويضيف توينبي ان المؤلف لا يخفي خجله وارتباكه عندما يتحدث عن فرنسا تحت ظل الأمبراطورية الرومانية ، ولكنه يبذل قصارى جهده لإثبات ان هذه القرون الخمسة التي انصرمت بين جيل يوليوس قيصر وجيل سيدونيوس أبوليناريس لم تكن ذات تأثير كبير على فرنسا بل ظلت الشخصية المحلية لبلاد الغال حقيقة أهم في حياة سكانها من حقيقة انتمائهم للامبراطورية الرومانية ، فالطابع الوطني متغلب على الكتاب لا سيما وقد وضع خلال أزمة الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨) ويكاد توينبي كما يقول يسمع المؤرخ كامي جوليان يصيح صيحة الوطني الفرنسي خلال هذه الحرب : Ils ne passeront pas !

وينتقد توينبي هذا الأسلوب في كتابة التاريخ ، ويراه قائماً على تصور خاطىء ، إذ لا يمكن كتابة تاريخ لفرنسا يكون مستقلاً عن تاريخ أوربا ، كما لا يمكن كتابة تاريخ خاص لسويسرا أو الصرب أو كرواتيا يكون منفصلا عن تاريخ المجتمع الغربي ، فالحدود التاريخية لفرنسا — أو أية دولة أخرى — لا

---

1) Toynbee, A. A Study of History vol. I P.P. 11-22 .

تقف عند حدودها الجغرافية ، ويأخذ توينبي بريطانيا كحالة للبحث رغم أنها تتمتع بعزلة نسبية أكثر من غيرها من الدول الأوروبية نتيجة لعامل الجغرافيا الذي جعل منها جزيرة منفصلة عن القارة ، وعامل السياسة الذي جعلها تبتعد بقدر الامكان عن مشاكل القارة الأوروبية ، ومع ذلك فان بريطانيا لا تمكن دراستها كوحدة تاريخية مستقلة ، بل ان كل التطورات والأحداث الهامة في تاريخها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأحداث وتطورات أعم في الخارج ، فمثلاًعندما ظهرت لأول مرة شخصية بريطانيا المستقلة بتحولها من الوثنية إلى المسيحية الكاثوليكية في أواخر القرن السادس الميلادي كان ذلك نتاجاً للتطورات التي حدثت في كل مجتمعات غرب أوربا حينذاك. وقيام النظام الاقطاعي فيبريطانيا في القرن الحادي عشر ساعد عليه الغزو الدانمركي لبريطانيا في ذلك الحين،وهذا الغزو بدوره كان نتيجة لتجوال القبائل الاسكندرنافية من شمال وغرب أوربا ولا يمكن فهمه ما لم تتسع الدراسة لتشمل على الأقل اسكنديناوا وفرنسا . وكذلك فان عصر النهضة في بريطانيا في الربع الأخير من القرن الخامس عشر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركات الثقافيـــة والسياسية في أوربا ولا سيما في شمال ايطاليا ، وحركة الاصلاح الديني في الربع الثاني من القرن السادس عشر لم تكن ظاهرة انجليزية بحتة وانما كانت مظهراً لحركة تحرر عامة في شمال غرب أوربا [تشمل البلطيق وبحر الشمال والاطلنطي] تسعى للخلاص من سيطرة الجنوب الأوروبي. ومرحلة التوسع البريطاني فيماوراء البحار التي بدأت في الربع الثالث من القرن السادس عشر كانت نتيجة للتنافس بين الأمم الأوروبية وصراع القوى في القارة ، وحتى نظام الحكم البريطاني منذ الربع الاخير من القرن السابع عشر والثورة الصناعية في الربع الاخير من القرن الثامن عشر رغم انهما يبدوان نظامين بريطانيين ذاتيين سبقت بهما بريطانيا غيرها من الدول ، إلا انهما كانا في الواقع نتاجاً لظروف خارجية عامة ، فالنظام البرلماني في بريطانيا تأثر بحركة مشابهة معاصرة في فرنسا ، والثورة الصناعية كانت نتيجة لتوسع بريطانيا فيما وراء

البحار ونظام التجارة الحرة وما ادى اليه هذان العاملان من تدفق المواد الخام على الجزيرة البريطانية .

ويخلص توينبي من ذلك الى أن التاريخ الوطني البريطاني لا يمكن فهمه أو دراسته بمعزل عن وحدة أكبر هي المجتمع الاوربي الغربي في مجموعه ، وكذلك الحال بالنسبة لأية دولة او امة اخرى .

في ضوء هذه النظرة المتكاملة للتاريخ اخشى ان يقع هذا الكتاب في كثير من الشطط ، فالكتاب محاولة للبحث عن خيط عام يربط بين مراحل التاريخ المصري ويبرهن على انه تاريخ شعب واحد لا شعوب متعددة مما قد يوحي الى الى بعض الاذهان بأن مصر كانت مجتمعاً مغلقاً منذ ابعد العصور وانها تطورت تطوراً ذاتياً ، وهذا خطأ واضح وابعد ما يكون عن هدف هـذا الكتاب ، فليس هناك حد للتأثيرات المتبادلة بين مصر والعالم الخارجي في مختلف العصور بالرغم من عزلة مصر النسبية نتيجة للعامل الجغرافي المعروف ، ولا يمكن نزع مصر من قلب التطور الحضاري العالمي طيلة خمسة آلاف عام على الأقل ، وليس الهدف من هذا الكتاب الفصل « الشوفيني » بين مصر والخارج ، وإنما محاولة فهم العلاقة بينهما ، والبحث عن رابطة بين العصور المصرية في نطاق المراحل المراحل المختلفة للتاريخ العالمي ، أو بكلمة أخرى اننا بدون التقليل من أهمية التطورات الكبرى التي حدثت في مصر نتيجة للعوامـــل الخارجية ، ومن أهمهـــا : اندماج مصر في الهللينية والمسيحية والإسلام والعروبة والانفتاح على الحضارة الغربيه الحديثة نحاول أن نعرف هـــل حدثت هذه التطورات في مصر واحدة أم « أمصار » متعددة ؟

* * *

ولقد رأيت تمهيداً للموضوع أن أصحب القارىء في جولة سريعة في أعماق

التاريخ المصري حتى تحضر إلى الذهن صورة ذلك التاريخ المفرط الطول ، البالغ العمق ، الذي يقارن في الواقع بطول التاريخ العالمي ، بل انه ظل لردح طويل طويل جداً من الزمن الفصل الوحيد او الأكثر أهمية في التاريخ العالمي ، ويكفي أن نذكر أن الفترة من ميلاد المسيح حتى الآن ليست أكثر من نصف الفترة من تاريخ مصر منذ نشأة الحضارة المصرية حتى ميلاد المسيح ، وبعد ذلك واصلت مصر — حاملة اسمها نفسه في كل اللغات القديمة والحديثة — تاريخها كجزء لا يتجزأ من تاريخ العالم من ميلاد المسيح إلى الآن .

أمام هذا الطول المفرط يمكن أن نلتمس لأنفسنا العذر في عدم الإحساس بوحدة تاريخنا الموزع بين مختلف الحضارات والدول الحاكمة ، بل أن موقفنا هذا يصبح شيئاً منطقياً جداً ، ومع ذلك فإن هناك أسباباً رئيسية أدت إلى هذا الانقطاع النفسي بين المصريين وتاريخهم ، هذه الأسباب يجب أن ندرسها ، وأعتقد أنها أربعة أسباب رئيسية هي : الصراع بين المسيحية والوثنية في العصر القبطي وما أدى إليه من انفصام وجدان المصريين الأقباط عن تاريخ أجدادهم المباشرين ، والسبب الثاني هو موجة العالمية التي شارك فيها المصريون خلال ثلاث حقب متوالية هي : الهللينية والمسيحية والاسلام ، وقد أدت هذه الموجة إلى القضاء تماماً على فكرة القومية ، إذ لم يكن المهم هو الانتماء إلى وطن وإنما المهم والمقياس في كل شيء هو الانتماء إلى العقيدة والدين ، والسبب الثالث هو تعريب مصر ودخولها نهائياً في حوزة العروبة والإسلام بما أعطاها مقومات جديدة من لغة وعقيدة وانتماء قومي وحضاري ، والسبب الرابع تلك المحن التي تعرض لها المصريون في مختلف مراحل تاريخهم والتي مرغتهم أحياناً في ظلام الجهل الدامس الذي لا يبين فيه شعاع واحد من المعرفة أو الوضوح .

كل هذه الأسباب مبررات قوية دون شك لذلك الانقطاع النفسي بين المصريين وتاريخهم ، ولكن هل معنى ذلك أن ثمة انقطاعاً فعلياً في تاريخ مصر ؟ ولست أقصد بالطبع التاريخ الرسمي للحكام ، فقد تعاقبت على مصر دول

حاكمة كثيرة منبتة الصلة تماماً فيما بينها ، ولكنني أقصد تاريخ الوجود الفعلي للشعب المصري في مجموعه، من هذه الزاوية سوف نجد أن تاريخ المصريين مستمر بلا انقطاع بل أن كل مرحلة في هذا التاريخ بما فيها المرحلة الإسلامية العربية لها جذورها في المراحل السابقة ولها تأثيراتها على المراحل التالية ، ولكن حتى نصل إلى هذه النتيجة لا بد من البحث عن خيط عام يربط التاريخ المصري ، فهل يمكن أن نعثر فعلاً على مثل هذا الخيط العام ؟

اننا نستطيع أن نعثر على هـــذا الخيط بوضوح كاف ابتداء من العصر الفرعونى إلى العصر الهلليني إلى العصر القبطي ، ثم نفاجأ بانقطاعه الظاهري في العصر العربي الإسلامي ، فهل انقطع الخيط فعلاً أم لا يزال قائمـاً بشكل أو آخر ؟.

هنا ينبغي أن نبحث مسألتين تتعلق الأولى بالرواسب الحضارية القديمةالتى لا تزال عالقة بنفوس المصريين من أساطير وفولكلور ومفردات لغوية وعادات اجتماعية وتقاليد نفسية ، وسوف نرى اننا لا نزال نحمل الكثير من هذه التركة التي تدل – رغم سقمها بوجه عام – على وجود علاقة تربطنـا بماضينا القديم . وتتعلق النقطة الثانية بدراسة مدى الأستمرارية الجنسية للمصريين من أقـدم العصور إلى العصر الحديث لا لإثبات أي مزاعم أو أوهام عنصرية وإنما لنقرر ما إذا كان هذا الشعب في مجموعه شعباً واحـــداً أم شعوباً متباينة من الناحية الانثربولوجية ، ولسوف نجد أيضاً ان نسبة الثبات والاستمرار لدى المصريين في هذه الناحية أكبر من نسبة التغير والانقطاع نتيجـة للتدفقات الجنسية التي طرأت عليهم من الخارج في مختلف العصور .

إذن لماذا يبدو كأن الخيط العام لوحدة التاريخ المصري قد انقطع فيالعصر العربي الإسلامي ؟

ان هذا يحتم علينـــا دراسة ظاهرة تعريب مصر وكيف كانت من العمق

والشمول ، بحيث اعطت المصريين ضميراً جديــــداً باعتناقهم الإسلام وتحدثهم بالعربية ، في حين ان هنـــاك شعوباً كثيرة أخرى دخلت الإسلام بل وتعلمت أحياناً اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ، ولكن ذلك لم يؤد إلى تعريبها .

وهذا يجرنا مرة أخرى إلى مجـــال الانثربولوجيا لنفهم سر هذه الظاهرة ، وسوف نجد ان المصريين كانوا دائمـــاً جزءاً من الجنس السامي او على الأقل تربطهم به اوثق روابط الدم والثقافة نتيجة لاختلاطهم المستمر بالاقوام السامية منذ عصور ما قبل التاريخ إلى العصور الفرعونية وما تلاها ، ولذلك ما أن بدأت الموجة الأخيرة من الهجرة العربية إلى مصر بعـــد الفتح الاسلامي حتى أحدثت اثرها سريعاً ، وعاد الفرع إلى الأصل .

على ان ما أعطى مصر شخصيتها الجديدة لم يكن مجرد اعتناقها الاسلام او تحدثها بالعربية او انصباب كميات جديدة من الدم العربي في شرايينها ، وإنمـا أعطاها هذه الشخصية ايضاً ذلك الدور الهائل الذي ساهمت به في الحضـــارة الاسلامية فكرياً وسياسياً وعسكرياً ، دفاعاً عن هـــذه الحضارة وارتباطاً بها في السراء والضراء ... وهي مساهمة شارك فيها مسلمو مصر وأقباطهـــا على السواء .

وعندما نتجاوز مرحلة الظلام العثماني إلى مطلع العصر الحديث في القرن التاسع عشر ، يبدأ المصريون في تلمس تاريخهم والشعور بقوميتهم ، وهـــذه من اكبر علامات الصحوة بغض النظر عن الصراع بين الاتجاهات الثلاثة التي تنازعتهم ولا تزال تتنازعهم حتى الآن - إلى حد ما — وهي الاتجاه الاسلامي والاتجاه الفرعوني والاتجاه العربي .

ومن الطبيعي أن تكون خاتمة الكتاب دراسة لهـــذه الاتجاهات الثلاثة ومحاولة لتحديد العلاقة بين القومية والتاريخ بما مؤداه ان قوميتنا عربية وتاريخنا

مصري وعقيدتنا إسلامية ، وليس هناك تناقض بين هذه العناصر الثلاثة .

ومن المهم ان نؤكد منذ البداية ان النظرة الى الماضي ليس معناها الرجعة ان الارتداد ، ولا تتعاض مع الاهتمام بالحاضر والمستقبل ، بل ان لم شمل تاريخنا والاحساس به يشعرنا بعمقنا التاريخي واصالتنا الحضارية وهو شعور بالغ الفائدة في حد ذاته علاوة على انه حقيقة علمية واقعة .

ليس تذكر تاريخ امجادنا حلماً بعصر ذهبي مضى ولن يعـــود او اغراقاً في احلام يقظة لن تتحقق ، او دعوة إلى التفاخر والتكاسل فحواهـا ان ماضينا يغفر لنا اخطاء حاضرنا ، وإنما هو تجديد للروح ، وأخذ بالعبرة ، وتسلح بالثقة لمواجهة الحاضر والمستقبل .

القسم الأول

استمرارية ام انقطاع؟

[١]

نظرة في اعماق التاريخ

ان نظرة في اعماق التاريـخ المصري تكفي لأن تصيب المرء بالدوار ، من ينظر في أغوار ذلك التاريخ كمن يحدق في أعماق هوة سحيقة لا يكاد يوجد لها قرار ، فمهما استكشفت عيناه من أعماق ثمة أعماق أخرى أبعد غوراً لا يـكاد ينفذ اليها البصر مهما كان حاداً .

لنأخذ مثلاً وحدة الألف عام — وهي وحدة بالغةالضخامة في تاريخالانسان المكتوب — ونحاول أن نتوغل بها في أعماق الماضي المصري السحيق .

في المحطة الأولى — أي منذ الف عام أو في اواخر القرن العاشرالميلادي— سوف نشهد البدايات المبكرة جداً لنشأة المجتمعات الغربية الحديثة حين كانت البيوت المالكة في غرب أوربا تجاهد لتثبيت أقدامها في عصر هيمنة الكنيسة والاقطاع وكانت القبائل السلافية والقوطية الشرقية تحط رحالهـا في الأراضي الشاسعة بشرق أوربا وهي لم تزل في مرحلة البداوة الأولى ، ولم تكن الحروب الصليبية التي فتحت أعين الغرب على الحضارة الاسلامية العظيمة قد بدأت بعد. من هذه المرحلة حيث كانت أوربا كلها تتخبط في ظلام العصور الوسطى المبكرة وتجتر تراث آباء الكنيسة الأولين كانت مصر واحدة من اكبر مراكز الاشعاع

في الحضارة الاسلامية الزاهية . ملأى بالمدن العامرة والثغور النشطة ، تزهو بصناعاتها وزراعتها وتجارتها وتزهو بمدنيتها وثقافتها ونفوذها ، وكانت حينئذ بالتحديد تضع اللبنات الأولى في عاصمتها الحديثة القاهرة التي شيدها المعز لدين الله الفاطمي في موقع قامت فيه عواصم أخرى قبل آلاف السنين .

وفي المحطة الثانية – أي منذ الفي عام – نشهد ذروة مجد الأمبراطورية الرومانية الوثنية حين كان السلام الروماني يفرض على أسنة الرماح ، وعما قليل سوف يحمل المسيح صليب آلامه في طريق الجلجثة ، وسيرفع أنصاره على أعواد الصلبان أو يلقون بين مخالب الوحوش ، وكانت مصر حينئذ تدخل لتوها في حكم روما بعد أن دالت كدولة كبرى في عهد البطالسة ولكن عاصمتها الإسكندرية كانت – كمنارتها الشهيرة – لا تزال تشع النور في حوض البحر المتوسط ، وكانت عقائدها الدينية رغم قدمها وتفسخها ذات مكانة راسخة في العالم اليوناني الروماني ، أما ثراؤها فلا يزال رغم المحن الأخيرة مضرب الأمثال ومحط الأطماع .

وفي المحطة الثالثة – أي في بداية الألف الأول قبل الميلاد – لم تكن حضارة الإغريق – وهي الإساس الرسمي للحضارة الغربية والعالمية المعاصرة – قد بدأت بعد ، فلا يزال أمامنا قرنان على ظهور هوميروس وخمسة قرون على ظهور هيرودوت ومفكري عصر بركليز ، كانت الحضارة حينئذ محصورة في الشرق ، في مصر وبابل واشور وفارس والهند ، وكانت مصر واحدة من أعظم دول العصر وأكثرها ثراء ، وقد بلغت منذ ثلاثة أو أربعة قرون أقصى توسعها الامبراطوري حين كانت لها الكلمة العليا من الفرات شرقاً إلى برقة غرباً ومن آسيا الصغرى شمالاً الى السودان جنوباً ، ثم بدأت بعد ذلك تهبط منحدر أفولها السياسي والحضاري .

وفي المحطة الرابعة – أي في الألف الثاني قبل الميلاد – نرى الحضارة السامية

العريقة في بداياتها الأولى .. ابراهيم أب الأنبياء يخرج من بلدته أور الكلدانيين في جولة بالمنطقة تنتهي بزيارة مصر لمحاجاة كهنتها في شئون العقيدة، وكانت مصر قد خرجت من قرون الظلام التي تلت انهيار الدولة القديمة واستعادت مجدها في عهد الدولة الوسطى التي واصلت سيرة الأجداد العظام ووصلت ما بين البحرين، وشيدت قصر التيه، وأقامت الخزانات والسدود على النيل .

وفي المحطة الخامسة – أي في الألف الثالث قبل الميلاد– لم تكن ثمة حضارة أخرى الى جانب حضارة الدولة القديمة في مصر سوى حضارة السومريين في بلاد الرافدين وبعض المراكز الفينيقية المتناثرة، ولم تكن الحضارة المصرية حينئذ حضارة فريدة فحسب بل كانت قمة في حد ذاتها حتى بالقياس للحضارة الفرعونية اللاحقة، وكانت مصر في ذلك الوقت قد انتهت منذ قرنين أو ثلاثة قرون من تحقيق وحدتها الجغرافية والسياسية على يد مينا [حوالي ٣٢٠٠ ق. م] واخترعت الكتابة والحساب لتدخل بالبشرية مرحلة التاريخ المكتوب، وسوف نراها عما قريب تشرع في إقامة تلك المعجزات الانشائية الهندسية الجبارة المسماة بالأهرام .

وفي المحطة السادسة – أي في الألف الرابع قبل الميلاد – حين كانت البشرية ترسف في قيود العصر الحجري كانت مراكز المدنية والحضارة منتشرة في كل انحاء الوادي، وكان كهنة رح وتباح يرسون أسس المعارف والعقائدالتي ستقوم عليها فيما بعد أعرق مدنية في التاريخ، وكان كهنة « أون » على وجه التحديد قد انتهوا منذ ثلاثة قرون من ملاحظة دورتي الشمس والشعرى اليمانية (سيروس) ووضعوا نظام التقويم الشمسي الذي لا تزال البشرية تسير عليه بتعديلات طفيفة الى الآن .

وفي المحطة السابعة بل والثامنة – أي منذ خمسة أو ستة آلاف عام قبل الميلاد – حين كان العصر الجليدي يقطن أوربا، وكانت أفضل حالات الانسان

حضارة الصيد والتنقل الجماعي كانت مصر بصحراواتها الحاليـــة جنة فيحاء تتخللها حقاً الوحوش والمستنقعات ولكن يجد فيها الانسان المصري رغم ذلك مجالاً للزراعة والاستقرار ، وفيها عرف لاول مرة كيف يقاوم الطبيعة ، ويوقد النار ، ويزرع الحبوب ويستأنس الحيوان ، ويصنع الأسلحة ، ويقرأ صفحـة السماء .

* * *

ليس هناك كيان بشري في العالم له عراقة الكيان البشري المصري ، مع التسليم بتطوره وعدم جموده ، فالشعوب العريقة الموجودة اليوم كالفرس والهنـــود والصينيين يبدأ تاريخها المعروف خلال الألف الاول او اواخر الألف الثاني قبل الميلاد على أقصى تقدير ، والأقوام القديمة التي عاصرت مصر الفرعونية كالسومريين والفينيقيين والايجيين قد بادت الآن او ذابت في غيرها من الأقوام منذ أمـــد طويل ، ولكن مصر بفضل ما تتمتع به من حماية جغرافية وبفضل قدرتها الخارقة على التمصير ، حافظت الى حد كبير على كيانها البشري . بحيث يمكن القول باطمئنان – وكما سنرى فيما بعد – ان المصريين المعاصرين هم في مجموعهـم أحفاد المصريين الاول الذين عاشوا على ضفاف النيل منذ آلاف السنين .

وسنحاول فيما يلي تقصي تاريخ بعض الشعوب القديمة بالمقارنة بتاريخ مصر مع الاكتفاء بذكر الدول والممالـك أو الوحدات السياسية الكبرى لا مراكز الحضارة الصغيرة التي كانت متناثرة في كل انحاء العالم القديم [1] .

فالجزيرة العربية التي هي من أقدم مهاد الحضارة وموطن الجنس السامي لا

---

(١) معظم المعلومات التالية مستخرجة :

An Encyclopedia of World History Compiled and edited by : William Langer.

نعرف شيئاً عنها من الناحية التاريخية قبل قيام المملكة المينوية ومملكة سبأ في الألف الأول قبل الميلاد .

ومملكة الحيثيين – ويقال ان احفادهم الحاليين هم الأرمن – قامت حوالي عام ١٩٠٠ ق.م أي أنها لاحقة لعصر مينا بحوالي ١٣٠٠ عام .

والفرس بكل عراقتهم التاريخية لا نجد لهم ذكراً أو اثراً قبل أواخر الالف الثاني قبل الميلاد .

واذا كانت بعض المراكز الحضارية قد بدأت تظهر في المناطق الشمالية الغربية من هضبة الدكن في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد ، إلا أن التاريخ يبدأ بالنسبة للهند باستقرار القبائل الهندية الآرية بشمال الهند في اواخر الالف الثاني قبل الميلاد ، واقدم الآثار التي اكتشفت هناك لا ترجع إلى اكثر من ٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، اما بقية أنحاء الهند فيما عدا المنطقة الشمالية الغربية فلا يعرف عنها شيء قبل القرنين الاول والثاني قبل الميلاد .

اما التركستان والتبت فلا وجود لها في التاريخ قبل القرون القليلة السابقة للعصر المسيحي .

واقدم آثار الصين – وهي تلك التي اكتشفت في اقليم هونان – ترجع الى الفي عام قبل الميلاد ، اما أسرة شانج التي يبدأ بها تاريخ الصين المكتوب فلم تقم قبل عام ١٤٠٠ ق. م.

ولا تتجاوز أعرق الحضارات اليابانية – وهي حضارة جومونشيكي في النصف الشمالي من جزيرة هونشو وحضارة يايوشيكي في النصف الجنوبي منها – القرن الثالث قبل الميلاد .

وقد ظهرت مراكز حضارية متناثرة مزدهرة في الهند الصينية في اواسط

الالف الثالث قبل الميلاد ، ولكن تاريخ بورمـــا وشبه جزيرة الملايو يبدأ في القرن الخامس قبل الميلاد .

والحضارة المينوية المبكرة التي ظهرت في منطقة بحر ايجا وبلاد اليونان وكانت اسبق الحضارات ظهوراً في اوربا بدأت في الالف الثالث قبل الميلاد، ولكن تاريخ اليونان المكتوب لا يتجاوز مطلع الألف الاول قبل الميلاد .

وحضارات الشرق الادنى القـــديم التي عاصرت او لحقت فوراً بالحضارة المصرية والتي استفادت منها وافادتها كانت ايضاً لاحقة لها ولم يكن من الممكن ان تقوم لولا اعتمادها على الحضارة المصرية .

فالحضارة الوحيدة التي تكاد تكون معاصرة لمصر هي حضارة سومر في جنوب بلاد الرافدين ، والاسرة السومرية الاولى التي حكمت في « أور » تمتد من ٢٨٥٠ ق. م. إلى ٢٤٥٠ ق. م. وهي بذلك تكون معاصرة لعهد الدولة القديمة في مصر ، ولكن سومر لم تلبث ان انهـــارت واصبحت جزءاً من الامبراطورية الاكادية مع اكاد وعيلام وآشور تحت حكم سرجون ونارام سين، وذاب تماماً السومريون ـ وهم يختلفون جنساً وثقافة عن الاسرة الساميـــة في المنطقة ـ مع الاقوام المحلية الاخرى في فترة مبكرة جداً تنحصر بـين ٢٠٣٠ و ١٩٠٠ ق. م.

وعلى انقاض سومر نشأت بابل حوالي عام ١٩٠٠ ق. م. واستمرت اسرتها الاولى حتى عام ١٦٠٠ ق. م. وفيها حكم حامورابي العظيم صاحب القوانـــين الشهيرة، ولكن لم يلبث ان اغار عليها الحيثيون ودمروها تدميراً ومهدوا بذلك لان يحتلها الكاسيون ثم الآراميون .

ومملكة آشور نشأت في اول الأمر كمدينة بين عامي ٢٦٠٠ و ٢٠٠٠ ق.م. ولم تلبث ان دخلت تحت الحكم البابلي حوالي عام ١٨٣٠ ق.م. ثم استقلت مرة

اخرى في القرن السادس عشر قبل الميلاد وظلت في حالة ضعف نسبي ستتقرون قهرها فيها الحيثيون والمصريون والحوريون والآراميون قبل ان تبعث من جديد على يد أشور ناصر بال في القرن التاسع قبل الميلاد واستمرت قوية نسبياً حتى أواخر القرن السادس قبل الميلاد حين أصابها الانحلال ثانيـة ودمر الميديون عاصمتها نينوى ، وفي عام ٦٠٥ ق. م. حاول القائد الاشوري آشور أوبواليت القيام بمحاولة يائسة لانقاذ الامبراطورية الاشورية حول عاصمة جديدة هي حران ولكنه فشل وتوقفت الدولة الاشورية بعد ذلك عن الوجود .

ومملكة ميتاني التي أقامها الحوريون ذوو الأصل الهندي - أوربي حول كركوك بدأت بهجرة القبائل الحورية الى المنطقة السامية حوالي عام ١٧٠٠ق م. اي في وقت معاصر لمجيء الهكسوس الى مصر ، وكونوا في بادىء الأمر مدناً متفرقة ، ولكن مملكة ميتاني بعاصمتها واشوكاني لم تظهر قبل عام ١٤٧٥ق.م. واستمرت حتى عام ١٢٧٥ ق. م. حين دمرها شلمنصر الاشوري .

وعرفت فلسطين او كنعان القديمة موجات متعاقبة من الأقوام السامية منذ بداية عصر البرونز عام ٣٠٠٠ق.م. فتعاقب عليها الأموريون والكنعانيون والعبرانيون والآراميون والأروميون ، أما مملكة اسرائيل المركزية فقامت بين ٩٣٣ - ٧٢٢ ق. م. ومملكة يهودا المركزية بين عامي ٩٣٣ - ٥٨٦ق.م. وقبل ذلك كان بنو اسرائيل قبائل لا يجمعها حكم مركزي ، وبعد ذلك دخلوا في الأسر البابلي ثم الحكم الفارسي فالهلليني فالروماني ثم تشتتوا أيدي سبأ.

وفينيقيا التي قامت في المنطقة الساحلية غربي لبنان كانت مركزاً للتجارة والتبادل منذ أقدم العصور فوصلتها البعثات التجارية المصرية لجلب الأخشاب من بيبلوس في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، وظلت بيبلوس دائماً تحت الحكم المصري المباشر فيما عدا فترة استقلال قصيرة في عصر العمارنة ثم خضعت لمصر ثانية ، وظلت بصفة عامة معبراً للدول القوية في المنطقة .

من هذا العرض السريع للحضارات القديمة تتضح عدة حقائق ..

الاولى ان الحضارة المصرية هي أقدم الحضارات جميعاً ولا تكاد تنافسها عراقة سوى الحضارة السومرية ، وهذا في حد ذاته دليل على أرجحية مدرسة الانتشار الحضاري على مدرسة المراكز الحضارية المستقلة ، والأرجح كذلك بل ومن المؤكد في ضوء الابحاث الحديثة ان مصر وليست سومر أو غيرها كانت مركز الاشعاع الحضاري الاول نظراً لان آثارها أقدم بكثير من آثار بلاد الرافدين .

والثانية ان الحضارة المصرية لم تكن الاقدم فحسب بل والاكثر امتداداً من الناحية الزمنية ، ففي حين بادت معظم الممالك والحضارات القديمة بعد فترة طالت أو قصرت استمرت الحضارة المصرية القديمه دون انقطاع حتى انهيار العالم الكلاسيكي في القرون الاولى بعد الميلاد ثم تحولت إلى مجرى جديد مع المسيحية ثم الاسلام واستمرت الى اليوم .

والثالثة ان معظم الكيانات البشرية القديمة لم تلبث ان تلاشت وذابت في أقوام وكيانات بشرية أخرى بفعل تيارات التاريخ وأمواجه المتلاطمة ، أما مصر فقد احتفظت الى حد كبير بكيانها البشري الخاص رغم التغيرات التي طرأت على شعبها من شتى النواحي الحضارية والنفسية والدينية ولكنه ظل في جوهره ولا سيما من الناحية الجلسية نفس الشعب القديم الذي انشأ تلك الحضارة المذهلة على ضفاف النيل منذ آلاف السنين .

* * *

وكان الناس في كل العصور يحسون احساساً واضحاً بقدم مصر وغرابة

حضارتها تماماً كما نحس نحن اليوم ، فالاغريق والرومان والعرب عبروا في كتاباتهم عن احساسهم بعراقة مصر وسجلوا عجبهم وإعجابهم بها .

وفي التراث العربي الشيء الكثير من ذلك ، فمصر في التراث العربي ترجع إلى عصر اسطوري موغل في القدم يعود إلى ما قبل نوح ، والعرب يختلفون في مصدر اشتقاق اسم مصر وهل يرجع الى ما بعد نوح أو ما قبله ، فالبعض يقول انها سميت بمصر بعد الطوفان على اسم مصر بن ينصر بن حسام بن نوح ، والبعض يقول انها سميت به قبل الطوفان حين نزلها مع قومه الجبابرة نقراوس ابن مصريم بن مركابيل بن روابيل بن عرياب بن آدم وسماها باسم ابيه مصريم ، وفي قول آخر ان الذي حكمها قبل الطوفان كاهن يدعى عنقام من نسل عرباق بن آدم .

ويقولون كذلك انها كانت قائمة من أيام آدم وأن آدم بارك بنفسه النيل ودعا لمصر بالرحمة والبر والتقوى .

والعرب يعطون الملوك مصر الاسطوريين مدد حكم طويلة تتمشى مع نظرتهم للأعمار في العصر الأسطوري ، فيقولون ان مصرايم الكبير حكم مائة وثمانين عاماً ، وقفطاريم بن قبطيم حكم اربعمائة عام ، وعديم بن البورشير عاش تسعمائة وثلاثين عاماً حكم منها مائة واربعين عاماً ، وشداد بن عديم عاش اربعمائة واربعين عاماً ، وطلما بن قومس فرعون موسى عاش اربعمائة عام وهلك في حكمه ثلاثة قرون من العالم ، ودلوكة التي خلفته في الحكم بعد غرقه بدأت حكمها في العام المائة والستين من عمرها وحكمت مائة وثلاثين سنة أخرى ، وهكذا [1].

---

(١) د. حسين فوزى : سندباد مصري : قفطاريم بن قبطيم .

والعرب ينزلون مصر منزلة عزيزة في نفوسهم رغم حملتهم على فرعون موسى وأمثاله من الطغاة ، ويؤكدون انه لم يكن في البسيطة مُلك أعظم من مُلك مصر ، ويستدلون على ذلك بعشرات من الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرت مصر صراحة أو ضمناً بالخير العميم ومنها على سبيل المثال قوله تعالى يخبر عن فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » وقوله تعالى « فأخرجناهم من جنات وعيون و كنوز ومقام كريم » وقوله تعالى « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها » وقوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة ، كانوا فيها فاكهين » وقوله تعالى : « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا في الحياة الدنيا » .

وهم لذلك يستثنون مصر بن بنصر بن حام من اللعنة التي صبها نوح على ابنه حام وذريته ، إذ يقولون أن نوحا لما نادى حاما لم يجبه هو أو احد من ولده ، فدعا نوح الله عز وجل ان يجعل ولد حام أذلاء وعبيداً لولد سام . وكان مصر بن بنصر بن حام نائماً بجوار جده فلما سمع دعاء نوح على جده وذريته قام يسعى إلى نوح ، وقال يا جدي قد أجبتك إذ لم يجبك جدي ولا أحد من ولده فاجعل لي دعوة من دعائك ، ففرح نوح ووضع يده على رأس مصر وقال. اللهم انه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته واسكنه الارض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد والتي نهرها أفضل انهار الدنيا(١).

وليست مصر عند العرب بلاد العراقة والبركة والخير العميم فحسب بل هي كذلك أصل العلوم والمعارف ، وبلد السحر والكهانة ، وأرض العجائب والطلاسم ، وموطن الكنوز والمعجزات .

---

(١) المقريزي : الخطط - طبعة الشعب جـ ١ ص ٣٥ .

قال صاعد اللغوي في كتاب طبقات الأمم ان جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان انما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، وكان من علومهم (المصريين) علم الطب وعلم النجوم وعلم المساحة وعلم الهندسة وعلم الكيمياء وعلم الطلسمات ، ويقال كانت مصر في الزمن الأول يسير اليها طلاب العلوم لتزكو علومهم ، وتجود أذهانهم ، ويتميز عندهم الذكاء ، وتدق الفطنة(١).

ويقول المسعودي في « أخبار الزمان » عن العلوم التي تنطوي عليها أهرام مصر « سوريد .. أحد ملوك مصر قبل الطوفان بنى الهرمين الكبيرين ، وأمر الكهنة ان يودعوهما جماع حكمتهم ومعارفهم في شتى العلوم والفنون ، كما أمر ان تنقش عليهما كتابات تحوي علوم الحساب والهندسة حتى تبقى شاهداً لما بعدها وحتى ينتفع بها من يستطيعون فهمها » وكان المسعودي يعتقد ان الهرم الشرقي (خوفو) يحوي اسرار الافلاك السماوية ومواقع النجوم والكواكب « وان بانيه بيّن فيه مواقع النجوم ومداراتها ، وتواريخ الأزمنة القادمة ، وكل الأحداث الهامة في مستقبل مصر(٢)».

والعرب ينسبون إلى مصر كثيراً من العجائب والمخترعات التي تنطوي على المعرفة والصنعة والمهارة الفائقة ، وذكر المقريزي في خططه كثيراً منها كحجر كان من يجمع كفيه عليه يتقيأ جميع ما في جوفه ، واصنام ترد ماء البحر المالح عن الارض ، وصورة امرأة مبتسمة لا يراها مهموم إلا سرى عنه ، وتمثال يفضح الزناة إذا مروا عليه بكشف عورته ، وتنور يشوي بغير نار ، وسكين تسير اليها البهائم فتذبحها من تلقاء نفسها ، ويقول المقريزي ان الجاحظ عد ثلاثين اعجوبة في الدنيا عشرة وبمصر عشرون(٣).

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٩ .

(2) Georges Barbarin : Le secret de la grande pyramide . P. 33

(٣) المقريزي : الخطط : فصل « ذكر العجائب التي كانت بمصر » .

اما عند ثراء مصر وعمارتها فتذخر الكتب العربية بذكر الكثير ، ومنها أن أحد فراعنة مصر أرسل مرة بويبة قمح الى أسفل الأرض (الدلتا) وإلى الصعيد فلم يجد لها موضعاً تبذر فيه لشغل جميع البلاد بالعمارة ، وأثر عن النبي انه وصف مصر بأنها أرض يسمى فيها القيراط ، ومن فضائل مصر في قول الكندي وغيره من المؤرخين ان الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعاً ، منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير[1].

* * *

ولم يكن الإغريق أقل من العرب عجباً وإعجاباً بمصر وعراقتها وثرائها وعلومها وأسرارها بالرغم من انهم يسبقون العرب في معرفة مصر بأكثر من الف عام ويكفي أن تتصفح ما كتبه المؤرخون والرحالة الأغريق عن مصر لتدرك حجم نظرتهم اليها .

ويقول أدولف إرمان وهرمان رانكة في كتابهما « مصر والحياة المصرية في العصور القديمة » ان اليونانيين الذين أتوا الى مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد دهشوا — وهم الذين فطروا على الزحف والتنقل في ارجاء العالم — عندما وجدوا في وادي النيل حضارة موغلة في القدم ولكنها رغم جحودها ما زالت تبعث في النفوس الرهبة والخشية ، فقد رأوا مدناً عامرة بالسكان فيها معابد ضخمة عالية يقطنها قوم لا يشبهون في شيء سكان أيونيا والجزر اليونانية ، وجدوا قوماً يؤلهون العجول والتماسيح ، يقوم على خدمتهم كهنة ذوو رؤوس صلعاء يتشحون بأردية كتانية ، ولم يختلف هؤلاء القوم عن باقي الشعوب في مظاهر العبادة هذه فحسب بل كانوا يختلفون عنهم كذلك في حياتهم اليومية » .

---

(١) تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٧ .

ويضيف الكاتبان في وصف غرابة المصريين في أعين اليونانيين وقتذاك ان « معظم اليونانيين كانوا ينظرون الى المصريين بالدهشة الخجولة نفسها التي ينظر بها قومنا الى الصينيين أو اليابانيين ذوي الضفائر والغدائر الطويلة المرسلة ، لقد كان المصريون بالنسبة لهم موضوعاً للدعاية الرخيصة فكانوا يتندرون على ذلك الشعب الذي يعبد الثيران بدلاً من ذبحها وتضحيتها، ويقوم بتقديس السمك بدلاً من أكله ، والحداد على القطط الميتة بدلاً من سلخها – بيد أنه بالرغم من تندرهم وسخريتهم فانهم كانوا يضمرون الاحترام لهذا الشعب العريق في حضارته الذي كان ينظر اليهم (أي الى اليونانيين) نظره الى الأطفال.. كم من عالم يوناني حج الى وادي النيل المملوء بالعجائب وفي نفسه أمل يراوده في أن هؤلاء الكهنة قد يساعدونه في الكشف عن اللغز الكبير لهذا العالم[1].

ونحن نقرأ لهيرودوت وصفاً للمصريين وعاداتهم تختلط فيه الحقيقة بالخرافة ، وقد يكون صادراً عن تسرع أو جهل بالحقائق ، ولكنه على أية حال كاف للدلالة على نظرة الإغريق للمصريين ، تلك النظرة التي عبر عنها هيرودوت بقوله ان المصريين يختلفون كل الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم[2].

ولا يفوت هيرودوت – وكيف يفوت أحد ؟ – أن ينسب فضل معرفة كثير من الأشياء للمصريين منذ عصر موغل في القدم ، فهو يقول ان المصريين كانوا من بين سائر البشر أول من عرف السنة الشمسية ، وأول من سموا الآلهة الاثني عشر باسمائها وأول من وقفوا للآلهة الهياكل والتماثيل والمعابد، وأول من حفر الصور على الأحجار[3].

ويقول هيرودوت « ان المصريين كانوا يعتقدون أنهم أقدم الناس في

---

(١) ارمان ورانكة : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة : د. عبد المنعم ابو بكر المقدمة .

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر : ترجمة المرحوم الدكتور صقر خفاجة نبذة ٣ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق : نبذة ١٠

الوجود » . ولكنه يحاول أن يشكك في ذلك فيورد قصة ملفقة كانت منتشرة في الغالب بين الأغريق المقيمين في مصر تهدف الى الطعن في عراقة المصريين والزعم ان الفريجيين [من سكان آسيا الصغرى] كانوا أسبق منهم ، وتقول القصة ان الملك بسماتيك أراد أن يعرف اي الشعوب أعرق في الوجود فأمر باحضار طفلين حديثي الولادة وعهد بتربيتهما الى راع في مكان منعزل ، وأمر الملك بأن لا ينطق أحد أمامهما بأية كلمة ليعرف أول صوت يصدر عنهما بعد أن يقدرا على اخراج المقاطع ، وبعد عامين كان الطفلان ينطقان بكلمة «بكوس» كلما دخل عليهما الراعي ، وراح الملك بسماتيك يبحث عن أصل هذه الكلمة وأي الشعوب تستخدمها حتى اكتشف ان الفريجيين يسمون الخبز بهذا الأسم ، وهكذا — كما يزعم هيرودوت — اعترف المصريون وحكموا في ضوء هذه التجربة بأن الفريجيين أقدم منهم .

وهذه القصة بادية الضعف رغم ما يدعيه هيرودوت من انه سمعها من كهنة ممفيس [وهي عبارة يقولها عادة عندما يشعر انه لا يقول الصدق] والهدف الوحيد لهذه القصة نفي ما أورده هيرودوت في مقدمتها من ان المصريين يعتبرون أنفسهم أقدم الناس في الوجود . ويعلق الدكتور أحمد بدوي على قصة هيرودوت قائلاً ان هواها اغريقي ومنوالها اغريقي واكبر الظن أن يكون مصدرها ما كان قائماً يومئذ بين الأغارقة النزلاء والمصريين الوطنيين من أسباب المنافسة والبغضاء ، فاذا لم يكن الاغريق قادرين على اثبات تميزهم على المصريين من حيث العراقة فلا أقل من ان يبحثوا بين الشعوب عمن يفضل المصريين في ذلك (١) .

* * *

---

(١) المرجع السابق : نبذة ٢ والهوامش الملحقة بها .

نتيجة لذلك القدم البالغ للتاريخ المصري اختلف المؤرخون كثيراً في تحديد تواريخ العصور والأحداث الفرعونية وبخاصة ما قبل ظهور الدولة الحديثة .

ولنأخذ مثلاً الخلاف حول قيام الأسرة الثانية عشرة التي أنشأها امنمحات فنجد أن فلندرز بترى في كتابه « تاريخ مصر » يحدد قيامها مــا بين عامي ٢٧٧٨ — ٢٥٦٥ ق.م. في حين ان البروفيسور واليس بارج في كتابه « تاريخ قصير للشعب المصري » يحددها بحوالي عام ٢٤٠٠ ق.م. ويقول انها استمرت ٢٢٥ أو ٢٤٠ عاماً ، امــا جمهرة المؤرخين ومنهم برستيد ولانجر ويلسون ودريوتون وفخري وسليم حسن وأحمد بدوي فيقولون انها قامت حوالي عـام ٢٠٠٠ ق.م. باختلافات يسيرة فيا بينهم .

ويعتمد المؤرخون في تحديد التواريخ المصرية القديمة على ما تذكره أحياناً بعض الآثار من أن عيداً فرعونياً معيناً وقع في عام معين من حكم ملك معين ، وهم يصنعون جداول معقدة للغاية (تشبه اللوغارتيات !) لتحديد هذه الأعياد طبقاً لحساب السنين قبل الميلاد حيث أن المصريين القدمــاء لم يتركوا حساباً متصلاً لتاريخهم بل كانوا يؤرخون سني كل ملــك على حدة الأمر الذي فرط حساب السنين الفرعونية فرطاً تاماً[١] .

ولاعطاء فكرة عن التقويم الفرعوني[٢] لا بد من الاشارة الى الدور الذي لعبه المعبود رع في حياة المصريين ، فمن المؤكد ان عبادتهم لهذا الإله العظيم لم تكن تقتصر على اداء الطقوس الدينية في المعابد بل كانت تتطلب فهماً عميقاً ودقيقاً بقدر الامكان للشمس كجرم في السماء ، وكان كبير كهنة رع في أون

---

(١) من اشق المحاولات – واطرفها – لتحديد سني التقويم المصري القديم تلك المحاولةالتي قام بها Herbert Bruce Hannay فيكتابه The secret of Egyptian Chronology

(٢) راجع : على هامش التاريخ المصري لمحمد عبد القادر حمزة والتقاريم لمحمد فياض .

(عين شمس) يسمى « الناظر الأعظم » أو « المبصر الاعظم » لأنه كان دائم التطلع الى صفحة السماء لدراسة حركة هذا النجم بصفة خاصة واستطلاع أسرار الكون بصفة عامة ، ومن هنا ولد علم الفلك وتمكن المصريون من وضع اول تقويم لحساب السنين .

لاحظ الكهنة المصريون ان هناك نجماً لامعاً في السماء ، أو هو ألمع النجوم جميعاً ، أطلقوا عليه اسم سبدت (وهو النجم Cirus أو الشعرى اليمانية) هذا النجم يظهر فى يوم ما في نفس اللحظة التي تشرق فيها الشمس، ثم تنقضي « فترة ما » قبل ان يقترن ظهور هذا النجم اللامع بشروق الشمس مرة أخرى ، وقاسوا هذه الفترة فوجدوها ٣٦٥ يوماً قسموها الى اثني عشر شهراً متساوياً يضم كل منها ثلاثين يوماً ، وبقيت بعد ذلك خمسة ايام اعتبروها اياماً مقدسة في نهاية العام للاحتفال بمولد خمسة من الآلهة العظام هم أوزيريس وايزيس ونفتيس وست وحورس الكبير .

وجعل الفراعنة من شهر توت بداية للسنة الجديدة ، فكانت السنة المدنية الفرعونية تبدأ في اول توت من كل عام حيث يقترن ظهور الشعرى اليمانية بشروق الشمس .

ولكن هذا النظام لم يلبث أن اختل نتيجة لوجود فارق زمني بين دورة الشعرى اليمانية ودورة الشمس مقداره ست ساعات فاذا مرت أربع سنوات اصبح الفرق يوماً كاملاً [٦ × ٤ = ٢٤] اي ان اول توت او بداية السنة المدنية الفرعونية اصبحت تأتي قبل موعدها الطبيعي — وهو اقتران الشروقية — بيوم كامل ومع مرور السنين والقرون يزداد الفرق اتساعاً فتأتي شهور الصيف في زمن الشتاء ، وشهور الشتاء في زمن الصيف ، ومعنى ذلك ان تختل مواعيد الزراعة والأعياد !

وفطن الكهنة منذ البداية لهذه الظاهرة ولكنهم لم يبادروا الى تصحيح

التقويم علناً باضافة الفروق الناقصة الى السنة المدنية بل كانوا يفعلون ذلك سراً، فأعدوا قوائم بتصحيح وضع اول توت بالنسبة للدورة الفلكية واحتفظوا بتلك القوائم كبعض أسرارهم المقدسة ليعينوا بوساطتهـــا للناس مواعيد اعيادهم ومناسباتهم الهامة ، فيقولون مثلاً ان عيد حورس سيكون في يوم كذا من شهر كذا هذا العام ، وقد عثر فعلا على سجلات من ورق البردى تحوي مواعيـــد بعض المناسبات الدينية الهامة طبقاً للتقويم المدني الناقص وأمامها تصحيح لهـــا طبقاً للتقويم الفلكي الدقيق ، وهذا السلوك ليس بالغريب على اية حال عن الكهنة المصريين الذين درجوا على احتكار المعرفة وعدم البوح بأسرارها علناً .

ولكن بالرغم من أن الكهنة ظلوا يحتكرون سر التقويم طيـــلة العصور الفرعونية إلا أن التقويم كان يصحح مساره تلقائياً كلما مرت فترة معينة هي ١٤٦٠ عاماً ، إذ لما كانت السنة المدنية تنقص بمقدار ربع يوم عن اقتران الشروقية ، فمن الطبيعي أن يعود الشروقان الى الاتفاق تلقائيـــاً في فجر أول توت بعد اختزال سنة كاملة من الفروق (أي بعد ٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠ عاماً) فهنا يعتـــدل التقويم المدني مرة أخرى ، ويكون على الكهنة اعداد سجلات جديدة !

وقد فطن المصريون الى هذه الحقبة الزمنية الطويلة التي تضم ١٤٦٠ سنة وسموجاً فترة « سبدت » وأشار الى ذلك المؤرخ هيرودوت حين قال ان الكهنة المصريين أخبروه بأن كل ١٤٦١ سنة مدنية تعادل ١٤٦٠ سنة شمسية .

وتمكن العلماء باستخدام هذه الحقيقة الفلكية من معرفة متى بدأ العمـــل بالتقويم الشمسي الفرعـــوني على وجه التحديد ، فقـــد سجل المؤرخ والرياضي اللاتيني سنسورينوس الذي زار مصر في القرن الثالث الميلادي ان التقويم المصري القديم اعتدل باقتران الشروقين (الشمس والشعرى اليمانية) في أول توت عام ١٣٩ ميلادية، ولما كانت هذه الظاهرة قد تكررت من قبل عدة مرات كل ١٤٦٠

سنة لذلك يمكن بحسبة بسيطة معرفة انها حدثت على التوالي في أعوام ١٣٢١ ق.م. و ٢٧٨١ ق. م ٤٢٤١ ق.م. و ٥٧٠١ ق.م. ففي أي سنة من هذه السنوات – يا ترى – فطنت العين المصرية الى ظاهرة اقتران الشروقين واتخذتها بداية للتقويم ؟

ينبغي أولا استبعاد سنة ١٣٢١ ق.م. لقرب عهدها ويمكن ايضاً استبعاد سنة ٢٧٨١ ق.م. لأن نصوص الأهرام التي أقيمت حوالي هذا التاريخ او قبله تدل على وجود التقويم في سردها لقصة أيام النشوء التي ولد فيها الآلهة الخمسة، ومعنى ذلك ان التقويم لا بد ان يكون قد وضع قبل فترة « سبدت » أخرى اي في سنة ٤٢٤١ ق. م. ان لم يكن قد وضع قبل ذلك في سنة ٥٧٠١ ق.م.!

وهكذا يمكن القول باطمئنان ان التقويم الشمسي المصري وضع قرابة عام ٤٢٤١ ق. م. اي منذ اكثر من ٦٢٠٠ عام ، اي ان تاريخ مصر الحضاري – حتى دون حساب الفترة الضرورية الموغلة في القدم التي انقضت قبل ان تصبح العين المصرية مدربة بما فيه الكفاية لرصد حركات النجوم – يبلغ ٦٢ قرناً او اكثر من ثلاثة اضعاف الفترة التي مرت منذ ميلاد المسيح الى الآن .. فأي دوار يمكن ان يصيب المحدق من فوق هذه الذروة التي هي أعلى الذرى جميعاً في تاريخ الانسان ؟!

ونحن إذا طبقنا هذا التقويم بلا انقطاع على التاريخ المصري جاز لنا أن نقول إن مينا وحد القطرين لا في عام ٣٢٠٠ ق.م. وانما في عام ١٠٤١ بالتقويم المصري ، وان خوفو بنى الهرم الأكبر في عام ١٤٦١ (٢٧٨٠ ق. م.) وان الدولة الوسطى بدأت حوالي ٢٢٤١ (٢٠٠٠ ق.م.) وان الدولة الحديثة قامت عام ٢٦٨٥ ، وان الفتح الفارسي حدث عام ٣٧١٥ ، وفتح الاسكندر عام ٣٩٠٩ ، والدخول في سيطرة روما عام ٤٢١١ ، والفتح العربي كان في عام ٤٨٨١ (٦٤٠ م) وكان بناء القاهرة في عام ٥٢١٠ ، والغزو العثماني في عام ٥٧٥٨ ، وحملة نابليون في عام ٦٠٣٩ ، وثورة عرابي عام ٦١٤٢ ، وثورة ١٩

عام ٦١٦٠ ، وثورة يوليو عام ٦١٩٣. ونكون نحن الآن في عام ٦٢١٣ بالتقويم المصري المستمر الذي يعادل ١٩٧٢ ، بالتقويم الميلادي ا

هذه محاولة لا يمكن بالطبع أن تؤخذ مأخذاً جدياً ، ولكن الهدف منها اعطاء صورة تقريبية لما كان يمكن ان تصبح عليه وحدة التاريخ المصري فيما إذا كان التقويم المصري القديم قد ظل معمولا به دون انقطاع منذ اكتشافه حتى الآن (١).

---

(١) غير ان ما يعطي هذه المحاولة ظلا من المعقولية ان التقويم الشمسي الذي اهتدى اليه المصريون في ذلك العصر السحيق لا يزال هو المعمول به فعلا حتى الآن بعد ان ادخلت عليه تعديلات طفيفة . .

ففي عام ٢٣٨ ق م امر بطليموس الثالث بانهاء احتكار الكهنة لسر التقويم ، وقام بتعديله وسمياً باضافة يوم سادس الى ايام النسيء الخمسة كل اربعة اعوام وبذلك استقرت شهور الصيف والشتاء في مكانها من الدورة الشمسية .

وفي عام ٤٦ ق.م. انتقل التقويم المصري الى روما بأمر يوليوس قيصر واوقف العمل بالتقويم القمري الروماني ، وقام العالم الفلكي الرياضي السكندري سوسيجينيس بضبط التقويم المصري بأن جعل السنة ٣٦٥ يوماً لمدة ثلاث سنوات متوالية ثم ٣٦٦ يوماً في السنة الرابعه .

وفي عام ٥٢٢ ميلادية ألغي العمل بنظام السنين الروماني مع استبقاء التقويم الشمسي المصري ووضع نظام جديد للسنين يبدأ من عام ميلاد المسيح ، وقام بهذا التعديل الراهب ديونيسس اكسيجيوس .

وفي عام ١٥٨٢ م. لاحظ البابا جريجوري الثالث عشر ان موعد الاعتدال الربيعي جاء قبل موعده بعشرة أيام أي في ١١ مارس بدلا من ٢١ مارس لوجود فرق في التقويم اليولياني (نسبة الى يوليوس قيصر) عن دورة الشمس الفعلية مقداره ١١ دقيقة و ١٤ ثانيــة ، وأمر البابا جريجوري بتصحيح هــذا الفرق بأن جعل يوم ٥ اكتوبر ١٥٨٢ يوليانية هو يوم ١٥ اكتوبر ١٥٨٢ جريجورية كما عالج الفرق الضئيل بين التقويم والدورة الشمسية ، ولا يزال التقويم الجريجوري معمولا به حتى الان .

وقد اخذت مصر بالتقويم الميلادي الجريجوري الذي هو في أساسه التقويم الفرعوني القديم في عام ١٨٧٥ في عهد الخديو اسماعيل .

[٢]

أسباب الانقطاع النفسي

ان هذا التاريخ العريق الموغل في القدم المليء بالتطورات الكبيرة والأحداث الجسام بأكثر مما يمتلىء به تاريخ أية أمة أخرى ، ولقد ساعد على ذلك أن مصر لم تكن في وقت من الأوقات منعزلة عن العالم الخارجي ، بل كانت دائماً في مفرق الحضارات ومهب التيارات، مؤثرة ومتأثرة ، ولا يكاد يكون هناك أي حدث تاريخي كبير ، لم يكن له أثر من قريب أو بعيد في حياة المصريين ، لذلك من الطبيعي أن يذخر التاريخ المصري بالتلون والتنوع والاختلاف .

ويكفي ان نلقي نظرة سريعة على المراحل التي مرت بها مصر والدول الحاكمة التي تعاقبت عليها لندرك حجم هذا التنوع المذهل ، فإذا كانت مصر قد ظلت حتى قرابة القرن العاشر قبل الميلاد دولة مستقلة متماسكة تحت حكم أسرات مصرية خالصة ، فقد بدأت تشهد منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد تطورات سريعة متلاحقة أدت إلى سقوط العنصر الوطني من الصدارة ، وخضوع البلاد لسلسلة من البيوت الأجنبية الحاكمة التي تمتزج بدرجة أو أخرى باللون المصري الصميم ، والتي تحكم البلاد بصفة تابعة أو مستقلة .

وبدأ هذا المنقود بحكم اللوبيين (٩٤٥ — ٧٤٥ ق. م.) فالنوبيين (٧٢٢ — ٣٣٢ ق. م.) فالأشوريين (٦٧٠ ق.م) فالفرس (٥٢٥ — ٣٣٢ ق م) فالبطالسة (٣٢٣ — ٣٠ ق. م.) فالرومان الغربيين والبيزنطيين (٣٠ ق.م. — ٦٤٠ م) فالعرب (٦٤٠ — ٨٦٨ م) فأجناس مختلفة من الترك والمغول (٨٦٨ — ٩٦٩ م) فالفاطميين من عرب ومغاربة وصقالبة (٩٦٩ — ١١٧١) فالأكراد والجراكسة (١١٧١ — ١٥١٧) فالعثمانيين (١٥١٧ — ١٨٠٥) فأسرة محمد علي الالبانية (١٨٠٥ — ١٨٥٢) . وبعد هذا التاريخ فقط عاد حكم مصر خالصاً لأبنائها !

ولما تعاقبت على مصر الدول الحاكمة ، تعاقبت عليها كذلك الحضارات المتباينة ، فقد تحولت من الفرعونية إلى الهللينية إلى المسيحية إلى الإسلامية إلى الغربية الحديثة ، وغير المصريون خلال هذه المراحل زيهم ثلاث مرات ولغتهم مرتين ، وانساحت في عروقهم كميات كبيرة من الدماء الجديدة .

ولا شك أن هذه التطورات التاريخية والحضارية كان لها في حد ذاتها أثر كبير في تفتيت وحدة التاريخ المصري من الناحية الظاهرية على الأقل ، غير أن الأخطر في هذا الصدد ذلك الانقطاع النفسي الذي حدث بين المصريين وتاريخهم نتيجة لعدة عوامل محددة اعتقد انها : انهيار الحضارة الفرعونية ، والصراع بين المسيحية والوثنية ، وموجات العالمية ، وظاهرة التعريب ، وعصور الانحطاط .

وسوف نتناول فيما يلي كلاً من هذه الأسباب بشيء من التفصيل .

* * *

إذا كانت مصر الفرعونية قد استمرت ملء السمع والبصر كأقوى وأهم دولة في العالم القديم عشرات القرون على التوالي ، إلا ان الحضارة الفرعونية لم

تلبث أن دخلت مرحلة طويلة أيضاً من الحشرجة والاحتضار قبـــل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في القرون الأولى من العهد المسيحي .

لقد بدأت عوامل الضعف تعمل عملها في مصر الفرعونية منـذ عهد مبكر يرجع إلى الأسرة العشرين ، وهي أسرة الزعامة التي أسسهـــا رمسيس الثالث (حوالي عـــام ١٢٠٠ ق. م.) فمنذ ذلك الحين بدأت مصر تواجه ألواناً من الخطر الداخلي والتهديد الخارجي لم تلبث ان تضاعفت وتراكمت وأزمنت حتى وأدت مصر الفرعونية تحت الرمال .

تعرضت مصر في تلك المرحلة المبكرة للغزوات والأطماع الأجنبيـــة التي جملت الإمبراطورية المصرية التي كانت تمتـــد من السودان جنوباً إلى الفرات شرقاً ، وجزر البحر المتوسط شمالاً تتقلص وتنهار ، وأخذت الولايات التابعة لمصر في الخارج تستقل الواحدة بعد الأخرى دون ان يستطيع فراعنة النيل ان يفعلوا ما كان يفعله آباؤهم المحاربون الأشداء ، والواقع ان قوة العرش الفرعوني لم تهتز في الخارج فحسب بل تقلصت كذلك في الداخل حتى لم يعد لملوك الأسرة العشرين سوى الألقاب ، وأصبحت مؤامرات القصر وخاصة في الحريم شيئـاً مألوفاً [أنظر المؤامرة ضد رمسيس الثالث] وقوي نفوذ الكهنة على حساب الملوك حتى لم يلبثوا ان اغتصبوا العرش بقيـــام الأسرة الحادية والعشرين التي أنشأها الكاهن جريحور ، وفي عهد هـــذه الأسرة اضطرب الأمن ، واشتعلت الفتن والحروب الأهلية ، ونهبت قبور الفراعنة دون أن يستطيع النظام القائم ان يفعل شيئاً أكثر من اخفاء بعض محتوياتهـــا في اماكن اخرى مجهولة ، أما هندسة التشييد والبناء للقصور والمعابد والصروح فقـــد تأخرت وتحولت إلى تصميمات ضعيفة يجري تنفيذها بإهمال ودون اتقان كاف للتفاصيل.. لقد انهارت الأصالة أمام التقليد (١) .

---

(1) Elgood, P. G. The later Dynasties of Egypt .

وكان من اخطر مظاهر هذا الضعف والتحلل العام مظهران رئيسيان هما ، انحلال القوة العسكرية والسياسية وتفسخ العقيدة الدينية .

فقــد اصبح الجيش يعتمد أساساً على المرتزقة الأجانب لا سيما اللوبيين والمشاوشة والإغريق ، وفقدت مصر نهائياً جيشها الوطني ، وأخـذ الأجانب من اغريق واسيويين ونوبيين يظهرون بكثرة في البلاد، ويزاحمون ثم يزحزحون ابناءها الأصلاء عن كافة المراكز الهامـــة في الإدارة والتجارة والمجتمع ، حتى صاروا هم أصحاب النفوذ الحقيقي ، ولم تلبث ان تفتتت السلطـة السياسية بين أمراء الأقاليم ، بل وانقسمت الوحدة الحضارية لمصر نفسهـا فأصبحت منطقة الدلتا تتنفس في الجو الاغريقي ومنطقة الصعيد تتنفس في الجو النوبي [1] .

وفي نفس الوقت كانت العقيدة المصرية القديمة قد تدهورت وفقدت معناها واستغلقت على الأفهام ، وبعد أن كانت عقيدة تجريدية قوية تسامت في بعض مراحلها إلى حد استشراف فكرة التوحيد، اصبحت الآن مجرد طقوس ومتون يغلب عليها طابع السحر والخرافة والشعوذة ، قامت التعاويذ مقـــام العلم ، وانتشرت عبادة الحيوانات لذاتها لا باعتبارها رموزاً للآلهة [2] ، وصرنا نجـد العجل أبيس يحتل المقام الأسمى في البانيثون المصري .

في هذا المناخ العام من التفكك والتفسخ والانهيار الحضاري فقـد العنصر المصري السيادة على بلاده وتعاقبت عليه الأسر الأجنبيـــة الحاكمة التي كانت ترفع أحياناً الشعارات الوطنية أو تعلن احترامها رياء لآلهة البـــلاد ، ولكن روح مصر القديمة المبدعة الخلاقة كانت قد ذهبت إلى غير رجعـة ، وأصبحت الحضارة الفرعونية أشبه بمومياء محنطة .

---

(١) صبحي وحيدة : في أصول المسألة المصرية ص ٢٠ .

(٢) د. حسين فوزي : سندباد مصري ص ١١٩ .

ودخلت مصر تحت سيطرة الفرس والإغريق والرومـــان ، وأصبحت في الواقع جزءاً من عالم جديد هو العالم الهلليني الروماني وأغلق كتاب تاريخها المجيد، وغاضت حضارتها التليدة ، وأصبحت تحيا حياة مصطنعة لا تقوى على القيـام بدور فعال ، وزاد من سوء الحال تعرضهـــا لعديد من الفتن والاضطرابات الداخلية ولهجمات البرابرة من الجنوب ، حتى لقد اضطر الامبراطور دقلديانوس إلى دفع عطايا سنوية إلى القبائل النوبية لمنعها من مهاجمة البلاد ، ولكن دون جدوى .. لقد وقعت مصر كلياً في قبضة البربرية ، وفقد المصريون مجرد الرغبة في الاستقلال ومقاومـة الحكم الأجنبي ولم يلبثوا ان هربوا الى المسيحية تاركين حضارتهم الوطنية جثة ميتة لا سبيل إلى احيائها [1] .

وقد كان انهيار الحضارة الفرعونية وسقوط مصر على هذا النحو تحت الحكم الأجنبي من أول أسباب الانقطـاع النفسي بين المصريين وتاريخهم القديم ؛ لأن الاحساس بالتاريخ ينتعش في ظـــل العزة الوطنية ويضمر في عصور الاستبداد والخور النفسي، فعندما صادرت الاحداث استقلال مصر صادرت أيضاً احساس المصريين بتاريخهم القديم .

ومما يؤكد ذلك الانتفاضة التي حدثت في مصر خلال تلك المرحلة ، والتي كانت بمثابة ارتعاش لذبالة روح الحضارة المصرية قبل موتها النهائي ، وأعني بهـا حكم الأسرة السادسة والعشرين التي أسسهـــا بسماتيك الاول حوالي عام ٦٦٣ ق. م. فقد حاولت هذه الاسرة التي حكمت ١٣٨ عامـــاً أن تعيد مجد مصر القديم ، فكان سبيلهـــا الأول الى ذلك احياء الشعور بالتاريخ واستلهام فنون الدولة القديمة حيث بلغت الحضارة الفرعونية قمة أوجها في الأسرة الرابعة،

(1) Hurry : Imhotep. PP 134 - 144 .

واحياء آداب الدولة الوسطى وهي العصر الزاهي للأدب المصري ، مما جعل بعض المؤرخين يصفون عصر الدولة السادسة والعشرين بعصر النهضة ، ولكنها للأسف كانت نهضة ظاهرية بلا روح ، إذ أن ملوك تلك الأسرة اعتمدوا تماماً على المرتزقة الاغريق وسمحوا للاغريق بإقامة مستوطنات قوية في الدلتا ، وأصبحوا يتحكمون تماماً في تجارة البلاد [1] ، وكان نتيجة ذلك أن ضعفت الروح الوطنية المصرية حتى أن آلاف الجنود المصريين الوطنيين الذين أوغرت صدورهم محاباة بسماتيك للمرتزقة الأجانب أقدموا على خيانة وطنهم باللجوء إلى أثيوبيا والانضمام إلى ملكها الذي كان ينافس ملك مصر إذ ذاك ، ويقدر هيرودوت عددهم بمائتي وأربعين ألف مقاتل ، ويقول ان الملك عندما علم بذلك اقتفى أثرهم وعندما لحق بهم حاول اقناعهم بألا يهجروا آلهة آبائهم وأولادهم ونساءهم ، ويقال ان أحدهم أشار إلى عورته قائلا : أينما وجدت هذه فسيكون لهم أطفال ونساء [2] .

إلى هذا الحد إذن ضعفت الروح الوطنية المصرية حتى في عهد الاسرة السادسة والعشرين التي كانت بمثابة الصحوة الاخيرة في حياة مصر الفرعونية .

* * *

ومما زاد من انفصام المصريين نفسيا عن تاريخهم القديم ان الحضارة المصرية لم تمت موتا طبيعيا هادئا ، وإنما لفظت أنفاسها بعد معركة عنيفة دامية بينها وبين ذلك التيار المكتسح الجديد ألا وهو المسيحية .

---

(١) جون ويلسون : الحضارة المصرية . ترجمة الدكتور احمد فخري ص ٤٦٤ .

(٢) هيرودوت : نبذة ٣٠ ص ١٠٨ .

فخلال القرن الثـــاني الميلادي تأصلت المسيحية في الاسكندرية وبدأت تنتشر حثيثاً في مختلف أنحاء مصر ، وما ان حل عام ٣٠٠ م حتى كان الدين الجديد قد ثبت أقدامه بين المصريين وأصبحت له كنائس سرية وعلنية في كل المدن بل والقرى ، ولقي أنصار الدين الجديد في مصر وفي شتى أنحـــاء الامبراطورية الرومانية مـــا لا يوصف من الاضطهادات على أيدي الأباطرة الوثنيين وعلى رأسهم دقلديانوس الذي يعرف عصره بعصر الشهـــداء ، ولكن المصريين تمسكوا بديانتهم الجديدة ربما كنوع من التحدي للحكم الروماني الوثني، وصاروا يهجرون معتقداتهم القديمـــة التي امتزجت بالوثنية الهللينية في كثير من السخط والتقزز والنفور ، ثم أدى اعتنـــاق الامبراطور قسطنطين للمسيحية حوالي عام ٣١٣ م. إلى دفعة قوية للدين الجديد في كل أنحاء الإمبراطورية ومنها مصر ، فتحول إليه كثيرون من عباد الآلهة المصرية القديمة وهجرت مئات من المعابد المصرية في جميع أنحاء الوادي .

وفي عام ٣٨٠م. أصدر الإمبراطور ثيودسيوس أمره الشهير بإيقاف العبادات الوثنية واعتماد المسيحية كدين رسمي وحيد للامبراطورية ، فكان هـذا الأمر بمثابة إشارة انطـــلاق لتدمير كل الديانات والثقافات القديمة سواء في مصر أو غيرها من الأقاليم الرومانية ، وتحولت موجة الاضطهـــاد ضد الوثنيين الذين تمسكوا بعبادة آلهـــة آبائهم ، وارتفعت ألسنة اللهب والدخان تغطي سماء الاسكندرية موطن الثقافة اليونانية وقلعتهـــا الحصينة ، ودمر المسيحيون المتعصبون كل ما هو وثني فيها : مراكزها العلمية ومتاحفهـــا ومكتباتها التي تجددت بعد حريق المكتبة الكبرى في عهـد يوليوس قيصر ، وأصبحت تضم ثروة لا تعوض من دواوين الشعر اليوناني والتراث الادبي والفلسفي والعلمي والتاريخي لكل حضارات العالم القديم ، وقتل المسيحيون في إحـدى ثوراتهم

هيباثيا الجميلة أستاذة الفلسفة بجامعة الإسكندرية ، فكانت بمثابة آخر رمز يسقط للثقافة الكلاسيكية . وفي عهد القيصر فالين تحولت جامعة قيصرية بالاسكندرية إلى كنيسة مسيحية ، وخربت مكتبتها واحرقت محتوياتها وطورد فلاسفتها بتهمة السحر والشعوذة . وفي عام ٣٩١ م. حصل البطريرك « ثيوفيلوس » من القيصر « ثيودوسيوس » على اذن تخريب أكبر مزار في العالم القديم وأكبر أكاديمية علمية في مصر وهو « السيرابيون » وحرق مكتبته (١).

ولم تقف نقمة المسيحيين عند حد التخريب والحرق والتدمير بل تجاوزتها إلى اعمال الإرهاب والاضطهاد والتعذيب للكهنة والعلماء الوثنيين ، ففي القرن الخامس الميلادي نجد سيفريوس صديق البطريرك الإنطاكي يعترف بلا خجل كيف انه وصديقه الذي أصبح بطريركاً لإنطاكية فيما بعد – وكانا منضمين إلى هيئة مسيحية بالاسكندرية – اقترفا في أيام شبابهما كثيراً من الآثام والجرائم ضد العلماء الوثنيين ودور عبادتهم .

وهكذا اندفع المسيحيون بقيادة قسسهم ورهبانهم المتشحين بالمسوح السود يدمرون كل رموز الوثنية القديمة ، وخلال فترة وجيزة ضربت مئات المعابد في مصر ، ومنع الكهنة تحت التهديد بالموت من مزاولة طقوسهم المقدسة ، وأغلقت بقايا المعابد أو حولت إلى كنائس وبيع ، ويقال ان أربعين ألف صورة وتمثال للآلهة قد دمرت في موجة واحدة من موجات النقمة على الوثنية في ذلك العهد (٢) .

---

(١) سيجريد هونكة : شمس الله على الغرب ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ص ٤٢٦ .

(2) Hurry : Imhotep P. 136

ولكن بالرغم من كل ذلك استمرت بعض آثار العبادات المصرية القديمة قائمة في أقاصي الصعيد وخاصة في جزيرة فيلة على وجه التحديد التي أصبحت بمثابة المعقل الأخير لمن كتب لهم النجاة حتى ذلك الوقت من الآلهة المصرية القديمة وهم ، إيزيس واوزيريس وصحور وخنوم وأحتب .

ولكن ما ان انتصف القرن السادس الميلادي حتى بعث الإمبراطور جوستنيان بقائده نارسيس إلى جزيرة فيلة للقضاء على آخر معاقل الوثنية في مصر ، ودمر نارسيس معابد الجزيرة ، وحطم تماثيل آلهتها ، وأرسل كنوزها إلى القسطنطينية ، وألقى بكهنة معبد ايزيس العظيم – آخر حملة الثقافة القديمة – في السجن حيث ماتوا جوعاً وإهمالاً (١) .

ويعلق هنريك ويليام فان لون على هذا الحدث قائلاً : ان جزيرة فيلة كانت البقعة الوحيدة التي لا تزال تفهم فيها الكتابة المصورة المقدسة (الهيروغليفية) حيث كان هناك عدد قليل من الكهنة ما زالوا مستمرين في مزاولة تلك المهنة التي نسيت في كل مكان آخر من أرض خوفو ، ويصب فان لون لعناته على الإمبراطور جوستنيان الذي كان رجلاً جاهلاً لا شأن له « بالتعلم في الكتب » لأنه قضى بذلك على مفتاح الكتابة الهيروغليفية ، كما انتهت بناء على أوامره مدرسة أثينا الفلسفية نهائياً (٢) .

أما الطبيب الموسوعي الثقافة جاميسون هري ، فيعلق على نفس الحدث قائلاً : ان معابد امحوتب وحتحور وإيزيس وغيرها من الآلهة التي كانت في

---

(1) Hurry : Imhotep P. 140 .

(2) Vam Loon, H. W. The Liberation of Mankind P. 17 .

الماضي تزين جزيرة فيلة أصبحت الآن أطلالاً دارسة ، حزينة الجمال ، بعد أن كانت أضرحة زاهية شهيرة .. لم يعد الكهنة يرتلون أو يطلقون البخور وهم يقدمون القرابين للآلهة ، ولم تعد مواكب العميان والصم والمشوهين والعاقرات تطوف بأنحاء معبد امحوتب الذي ظل قروناً طويلة يهب الرؤية للعميان ، والأطفال للعاقرات ، والشفاء للمرضى .. لقد انزوى النظام القديم مفسحاً المجال للجديد وحقق الله نفسه بطريقة أخرى (١) !

خلال هذا الصراع الدامي الرهيب بين المسيحية والوثنية في مصر ازداد المصريون انقطاعاً من الناحية النفسية عن تاريخهم القديم، لم يعد الأمر مجرد انهيار الحضارة الفرعونية بكل ما يقطعه هذا الانهيار من وشائج نفسية، بل أصبحت هذه الحضارة أيضاً هرطقة ملعونة ينبغي التنكر لها والقضاء على كافة آثارها والتبرؤ من الانتماء اليها، وحتى اللغة المصرية القديمة التي ظل المصريون يتكلمونها في ذلك العصر تعلموا أن يكتبوها بالقلم اليوناني ونسوا تماماً كيف يكتبونها أو يقرأونها بالقلم الهيراطيقي أو الديموطيقي .

يقول الدكتور حسين فوزي : من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها الفرعوني لأنها في الواقع كانت نبذت تاريخها القديم عندما تحولت من الوثنية إلى المسيحية في القرون الأولى بعد الميلاد ، ومن الخطل ان نحمل المسلمين المصريين تبعة تخريب المعابد الفرعونية ، لأن المسؤول الأول عن هذا التخريب هم المصريون المسيحيون .. وإذا كان المسيحيون المصريون احتفظوا بلغتهم القديمة فإنهم يتحملون تبعة ضياع مفتاح الكتابة الهيروغليفية

---

(1) Hurry : Imhotep P. 143 .

والديموطيقية حتى استغلق أمر النقوش المصرية على العالم خمسة عشر قرناً إلى أن كشف شامبليون رموزها في أوئل القرن التاسع عشر [1] .

* * *

غير أننا إذا كنا لا نحمل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها القديم فلا سبيل إلى انكار ان مصر دخلت بعد الفتح العربي الإسلامي مرحلة جديدة تماماً من تاريخها لا يمكن ان تعد امتداداً طبيعياً لما سلف ، ولم يقتصر التغيير الذي حدث في هذه المرحلة على الشكل والمظهر وإنما مس صميم الجوهر والموضوع .

وقد يكون السبب في عمق التغيير الذي أحدثه الفتح العربي ان مصر كانت قد بلغت قبيل الفتح مرحلة من الضعف العام بل والتسيب المطلق ، ثم ارتطمت فجأة بقوة كاسحة لا تقهر هي قوة الإسلام والعروبة الظافرة ، تلك القوة التي هزمت في فترة وجيزة لا تتعدى سنوات قلائل أقوى امبراطوريتين تمخض عنهما العالم القديم ، وهما الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية ، وهذا البون الشاسع بين قوة مصر الذاتية وقوة الغزو الخارجي لم يكن قائماً بالنسبة للفتوحات السابقة التي تعرضت لها مصر ، فمهما كانت ضراوة الفرس، أو تفوق الإغريق ، أو غطرسة الرومان ، فإن الوضع كان مختلفاً ، فلم تكن هذه الدول الفاتحة تتمتع بفتوة الفاتحين العرب ، ولم تكن مصر على هذه الدرجة من الضعف التي بلغتها عند الفتح العربي ، ولذلك استطاعت مصر الصمود إلى حد ما في وجه هؤلاء الفاتحين بينما لم تستطع ذلك أمام العرب .

ولم يكن العرب مجرد فاتحين هدفهم الاستيلاء أو الاستيطان أو الاستغلال

---

(١) د. حسين فوزي : سندباد مصري ص ١١٣ .

بل كانوا حملة رسالة متفوقة هدفهـــا تغيير النفوس من الداخل ، وحملة عقيدة راسخة تستطيع بذاتها أن تتسلل إلى الوجدان ، ويستطيعون هم حمايتها بالجدل والسيف معاً ، وحملة لغة متينة تتسع لكل مطالب العصر وتصمد وتتفوق إزاء أية منافسة في كل المجالات ، وكانت مصر أبعد ما تكون رغبة عن مقاومة ذلك كله بل كانت ، على العكس ، شديدة الترحيب به بحثاً عن مجال روحي ثقافي جديد تستطيع أن تتنفس فيـــه بحرية بعد ألف سنة من السيطرة اليونانية الرومانية ، وأسلمت نفسها طائعـة لرياح التغير القوية القادمة من الشرق العربي الذي تربطها به أوثق الأواصر منذ آلاف السنين .

وهكذا كان التغيير عميقـــاً وشاملاً وسريعاً ، وكما يقول صبحي وحيدة نحن « ما نكاد نبلغ القرن الثامن ونلقى أول مصري كتب عن مصر بعد الفتح وهو ابن عبد الحكم حتى نجدنا أمام مجتمع عربي بارز المعالم مثـــل مجتمعات دمشق والمدينة ومكة المعاصرة ، فأهل هذا المجتمع عرب ، وتفكيرهم عربي ، وتقاليدهم عربية ، وليس في عروبة من ليس بينهم من أصل عربي كابن عبد الحكم نفسه أي تكلف أو زيف ، ومصر ابن عبد الحكم نفسها ساميـة عربية منذ أن كانت الخليقة ، وليس في تاريخها الطويل مـــا يستحق أن يذكر سوى قصص ابراهيم وإسماعيل وموسى ويوسف ومريم القبطية وايثار النبي للقبط وبغض الله كفر المصريين الأولين .. والمصريون من أبناء هذا المجتمع الجديد حتى من دخل منهم الإسلام بالأمس ينتسبون لأصل عربي ، ويسمون انفسهم ابن عبـد الحكم وشمس الدين وبهـــاء الدين زهير وتقي الدين المقريزي ، وهم لا يعون انهم أصحاب قومية خاصة ، وإن شعروا بشيء فإنهم يشعرون أنهـــم من أصل مسيحي [1] .

---

(١) صبحي وحيدة : في اصول المسألة المصرية ص ٣٩ .

ولقد كان تعريب المجتمع المصري على هذا النحو الشامل سبباً آخر — ولعله أقوى الأسباب جميعاً — في احداث ذلك الانقطـاع النفسي لدى المصريين ازاء تاريخهم ، ومع مرور الزمن لم يقتصر أثر هذا الانقطاع على أبناء مصر المسلمين وحدهم بل والمسيحيين أيضاً وبنفس القـوة او كما يقول الدكتور حسين فوزي : ان الحقيقة الواقعة ومـا نراه من احساس المصريين بعروبتهم تدل على انفصام كامل بين مصر الإسلامية وما سبقها، فالمصري المسلم ينظر إلى الإسلام كأساس لحضارته ويعتبر العصور السابقة على الإسلام كأنهـا تاريخ شعب آخر انتهى أمره ، والمصري غـير المسلم يعتبر اللغة العربية وما تحمله من ثقافة كأساس لحضارته . وإذا أردنا تقسيماً أدق فإننا نرى المصريين عن بكرة أبيهم أحد اثنين : اما مسلم يحس إحساساً شديداً بالجامعة الإسلامة بحكم اقتصـار دراسته وفهمه على التاريخ الإسلامي والدور الذي أداه الإسلام للحضارة ، وأمـا مسلم أو مسيحي يشعر بجامعة اللغـة والتراث الحضاري ، وهي التي تجمع شمله بالشعوب التي تتكلم اللغة العربية ، والنتيجة العملية لكل هذا هي ان سكان مصر من المسلمين يبدأون تاريخهم الحضاري بالفتح الإسلامي ، ومن غـير المسلمين يبدأون تاريخهم الحضـاري بكرازة مرقس الرسول ثم يشاركون مواطنيهم المسلمين في ثقافتهم العربية » [1] .

* * *

صاحبت هذه العوامل التاريخية الكبرى وهي انهيـار الحضارة الفرعونية ، والصراع بين المسيحية والوثنيـة ، وتعريب مصر ، ظاهرة أخرى كانت قوية

(١) د. حسين فوزي : سندباد مصري ص ١١٥ .

الأثر في احداث ذلك الانقطـاع النفسي لدى المصريين ازاء تاريخهم الوطني ، وساعدت العوامل الأخرى على احداث أثرهـا .. تلك الظاهرة هي موجة العالمية التي امتدت متصلة عـبر حقبات تاريخية بالغة الطول من أواخر العصر الفرعوني حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

هـذه الموجة لم تقتصر على المصريين وحدهم بل شملت جميع شعوب العالم المتحضر بلا استثناء ، فقد شهد العالم موجات متصلة من مشاعر العالمية تتفق في جوهرها العالمي اللاقومي وتختلف في مصادرها وأسلوبها ، وهذه الموجات هي على التوالي الهللينية والمسيحية والإسلام .

وكانت الهللينية في الواقع قمة الاتجاه العالمية الذي بدأ قبل العصر الإغريقي بعدة قرون ، أي منذ قيـام الإمبراطورية المصرية في الدولة الحديثة التي ضمت تحت أعطافها معظم الشرق الأدنى القديم وأجزاء من السودان ، وتجلت عالميتها سافرة في ثورة أخناتون الفكرية الدينية . وبعـد انهيار الإمبراطورية المصرية سادت فترة من الصراع الدولي استمرت عـدة قرون بين مصر وبابل وأشور والفرس واليونان ، إلى ان فرض الفرس سيطرتهم عـلى العالم القديم وأنشأوا إمبراطورية عالمية تمتزج فيها مختلف الشعوب المتحضرة في ذلك الحين ، وهـذا بالتحديد ما جعل يسيراً على الإسكندر أن يتقدم بفتوحاته الكبرى شرقاً حتى الهند ، فالذي فعله الإسكندر أنه انتزع الزعامة السياسية من يد الفرس عـلى إمبراطورية عالمية قائمة بالفعل، ولكن فتوحات الاسكندر دعمت النزعة العالمية دون شك وجعلتها واعية بذاتها لأن الإسكندر كان من المبشرين الصرحاء بهذه النزعة ، وكانت لديه أفكار شرع في تنفيذهـا فعلاً للمزج بين الشرق والغرب عن طريق الزواج والعقيدة والثقافة ، وبعـد وفاة الإسكندر تحطمت إمبراطوريته سياسياً ولكنها استمرت موحدة من الناحية الفكرية ، فقد ظلت

الحضارة الهللينية تنشر ظلالها في كل أرجاء العالم المتمدن وتجمعه في وحـــدة عالمية تتضاءل ازاءها الفروق القومية ، وبرزت الثقافة الإغريقية كعامل مشترك بين الشعوب ، حتى ان المصريين هجروا قلمهم الوطني وكتبوا لغتهم بالقـــلم اليوناني، وكان المفكرون والكتاب سواء في أوربا أو آسيا أو أفريقيا يكتبون ويفكرون بالإغريقية، وحتى روما تلك القوة الخطيرة الناشئة اصطبغت بالصبغة الهللينية بالرغم من علو نجمها السياسي ، وارتفاع كعبها العسكري ، وانتزاعها أخيراً الزعامة من أيدي الإغريق .

وفي ظـــل الهللينية لم تكن الحدود الإقليمية ذات شأن يذكر ، فالعبرة بالثقافة والفكر وليست بالعنصر والجنس ، ويستطيع اليوناني أو الروماني أو المصري أو السوري أو الفارسي أو اليهودي أن يتنقـــل بسهولة بين أقاليم الإمبراطورية كلها ، ويستطيع أن يشغل أرفع المناصب دون أن يعوقه أصله عن مبتغاه ، بل وان يرتفع إلى عرش روما نفسه كما فعـــل ماكرينو المصري وفيروس السوري وستيميو سفيرو الأفريقي [1] ، ثم انتفى كل أثر للحواجز الإقليمية عندما أصدر الإمبراطور كراكالا مرسومه الشهير بمنـــح الرعوية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية الأحرار .

وكان من أثر هذه النزعة العالمية ظهور الأديان التبشيرية أي التي تتطلب من معتنقيها أن ينشروها ويقنعوا غيرهم بها ، في حين أن أديان العـــالم القديم كانت قبل ذلك غير تبشيرية ، وتستطيع أن تتعايش فيما بينهـــا ببساطة بل حتى اليهودية نفسها قصرها معتنقوها على أنفسهم ولم يحاولوا التبشير بها [2] .

---

(١) صبحي وحيدة : في اصول المسألة المصرية ص ٣٠ .

(٢) د. سليان حزين : تاريخ الحضارة المصرية ص ٣١ .

وهكذا ظهرت المسيحية وانتشرت حثيثاً في أرجاء الإمبراطورية الرومانية الشاسعة وكأنها وجدت الجو ممهداً لتقبل الشعوب لهـــا ولنزعتها العالمية ، وعدما أصبحت المسيحية الدين الرسمي المعترف به للإمبراطوريه زادت النزعـة العالمية وضوحاً وأصبح الدين معيار كل شيء ومنبع السياسة والفلسفة والحروب والثورات ، وبرز بين المصريين عـــدد من أعظم فلاسفة المسيحية وأبطالها وشهدائها ، ولم يكن نفوذهم يقتصر على أبناء جلدتهم من المصريين بل ينتشر في كافة أرجاء العالم المسيحي ، وليس أدل على ذلك من وصول نظـــام الرهبنة المسيحية المصرية حتى ايرلندا وبلاد الشمال الأوربي .

وحتى الصراع الدامي بـــين المصريين وحكامهم البيزنطيين لم يكن محوره الاستقلال الوطني بل كان محوره الظاهر هـــو الدين [وإن كان يخفي نزعة استقلالية غير واعية] . وعندما اعتلى عرش الإمبراطورية ماكرينو المصري الأصل كان أشد ممن سبقوه اضطهاداً للمصريين الذين يخالفونه المذهب الديني . وعندما انقسمت المسيحية إلى كنائس متنازعة ظل المصريون أبعد ما يكونون عن التفكير في الاستقلال الوطني ، ولم تــك تراودهم ذكريات استقلالهم الماضي أو رؤى أمجادهم القديمة ، بل انهم ليستنكرون عهد الفراعنة تماماً كما يستنكره شركاؤهم في الدين وأعداؤهم في المذهب ، فالفريقان ينظران إلى الفراعنة خلال منظار التوراة .

وعندما أشرق الإسلام ازدادت النزعة العالمية وضوحاً وأثراً ، فقد كان المجتمع الإسلامي كالمجتمع المسيحي والمجتمع الهلليني اللذين سبقاه يقوم على أساس العقيدة الدينيـــة ، ولا يعرف الحدود الإقليمية أو التفرقة الجنسية ، فالنظرية السياسية في الإسلام تقوم على تقسيم العالم إلى « دار سلام » تضم المناطق الواقعة

تحت الحكم الإسلامي ، و « دار حرب » تشمل جميع المناطق التي لا يحكمها الإسلام ، والعلاقة بين الدارين هي الحرب المقدسة أو الجهاد .

وكان الإسلام أساساً حركة عالمية وحركة امتزاج بين الشعوب ، فكانت الأفكار التي تظهر في أي جزء من العالم الإسلامي تنتشر في سرعة مذهلة إلى باقي الأجزاء ، وإذا كانت الرابطة الاجتماعية التي تربط العرب قبل الإسلام هي الرابطة القبلية ، فقد حولها الإسلام إلى رابطة الأمة الاسلامية التي تضم جميع من يؤمنون بمبادىء الاسلام بغض النظر عن اختلاف العنصر أو اللون ، فلا فرق بين عجمي وعربي ، أو بين أسود وأبيض إلا بالتقوى ، والناس جميعاً متساوون كأسنان المشط .

وظلت رابطة الإسلام العالمية من القوة بحيث تجنب أي خلافات فكرية أو انقسامات سياسية تنشأ بين المسلمين وهي متعددة ، فالمسلمون – كما يقول صبحي وحيدة – قد ينقسمون إلى مالكيين وحنفيين وشافعيين ، أو شيعة وسنية وإسماعيلية وقرامطة ، وقد يعرفون العصبية العربية أو الفارسية أو التركية ، وقد تتعدد دولهم السياسية فتقوم للفاطميين دولة في مصر إلى جانب دولة العباسيين في بغداد ودولة الأمويين في الأندلس ، ولكن ذلك كله لا ينتقص من وحدتهم الإسلامية ولا يدفعهم إلى أية مشاعر اقليمية قومية ، فإن تعدد هذه الوحدات السياسية لا يرجع إطلاقاً إلى سمات قومية خاصة ، وإنما يرجع فحسب إلى اختلاف المصالح وتنافس الأفراد ، ولذلك ظلت هذه الدول تحمل أسماء الأشخاص الذين أقاموها لا المناطق الجغرافية التي قامت فيها ، فهناك الدولة الأموية نسبة إلى بني أمية ، والعباسية نسبة إلى بني العباس ، والفاطمية نسبة إلى سلالة فاطمة الزهراء ، والعثمانية نسبة الى بني عثمان ، وهذه الدول جميعاً تقتصر على المدلول السياسي ولا تتعداه فتصبح حاجزاً يفصل بين المسلمين فكرياً أو دينياً أو اجتماعياً ، فالتشريع والقضاء موحدان في العالم الإسلامي

رغم انقسامه إلى دول متعاصرة مكاناً أو متوالية زماناً ، والمسلم في أي مكان في الأرض الإسلامية يخضع لنفس الشريعة المستمدة من الكتاب والسنة مهما اختلف المتربعون في دست الحكم .

وهذه الأوضاع هي التي مكنت المماليك والعثمانيين من حكم مصر والمشرق العربي، إذ لم يجد العرب المسلمون أية غضاضة في الخضوع لحكم مماليك مستجلبين من أصقاع آسيا ما داموا مسلمين ، وكذلك لم يحاول هؤلاء المماليك أن ينقلوا مقر حكمهم إلى بلادهم الأصلية التي جاءوا منها ، فهي لا تعني شيئاً بالنسبة لهم ولا تربطهم بها أي مشاعر قومية [1] .

وقصارى القول أن هـــذه الموجة القوية المتلاطمة من المشاعر العالمية التي تقاذفت مصر عشرات القرون منذ أواخر عصورها الفرعونية إلى مطلع تاريخها الحديث كان لها أبلغ الأثر في فصم المصريين نفسياً عن مراحـل تاريخهم المختلفة وعن إحساسهم بالانتماء القومي الاقليمي ، بل جعلتهم في الواقع لا يفكرون بالمنهج التاريخي على الاطلاق ، وأصبح التاريخ المصري نتيجة لذلك يبدو فاقد الوحدة ، فهو تاريخ مجتمعات تنقسم على أساس الصبغة الدينية ، وليس تاريخ وطن واحد يمر عبر مراحل مختلفة .

* * *

ومما ساعد كذلك على طمس ذاكرة المصريين التاريخيـة عصور الاستبداد

---

(١) مراجع النزعة العالمية : جون ويلسون (الحضارة المصرية) صبحي وحيدة (في أصول المسألة المصرية) جلانفيل (تراث مصر) .

والتخلف المريرة التي مروا بها في تاريخهم الطويل وأبرزها فترة الاحتلال العثماني التي وصلت بالشعب المصري الى الدرك الأسفل في سلم البشرية .

لقد ترك لنا كثير من الرحالة والمؤرخين العرب في عصر الفاطميين والأيوبيين وسلاطين المماليك ، ومنهم ناصر خسرو وابن جبير وابن بطوطة والمقريزي وصفاً لحالة مصر كما شاهدوها نتبين منها جلياً مدى التقدم الذي كانت تتمتع به مصر في شتى ميادين الحياة ، ولو أن الأمر كان قد استمر على هذا الحال سواء بالنسبة لمصر أو العالم العربي على الاجمال لكان من المؤكد أن تسير الحضارة العربية قدماً ، ولربما اتخذت خطاً موازياً للنهضة الأوروبية المعاصرة بما يقدمه ذلك من إمكانيات لاحساس المصريين والعرب عموماً بذاتيتهم وشخصيتهم وقوميتهم وتاريخهم ، ولربما كانت بداية إحساس المصريين بتاريخهم التى رأيناها في القرن التاسع عشر قد تقدمت ثلاثة أو أربعة قرون ..

ولكن الذي حدث كان شيئاً مختلفاً تماماً ، ففي القرن السادس عشر أصيبت مصر والأمة العربية بوجه عام بضربة قاتلة تلقاها المشرق العربي بتحويل طريق التجارة العالمية عن مصر والبحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح ، ثم سرعان ما سقطت المنطقة تحت النير العثماني الذي قضى على أملها في التقدم قضاءً مبرماً .

فبعد ان كان العرب يترجمون ارسطو وافلاطون ويمارسون فنون جالينوس وابقراط ويضيفون إلى العلوم الطبيعية والرياضية من عبقريتهم الخلاقة ما ترجم بعد ذلك إلى اللغة اللاتينية واصبح اساساً لنهضة الغرب ، وبعد ان كان

المقريزي يصف رخاء مصر فيقول : « يرمى بمصر في كل يوم الف دينـار ذهباً على الكيمان والمزابل » إشارة إلى ما يوجد في النفايات من اشياء يستغنى عنها ، وبعد ان كان ابن جبير يحاول احصاء قوافل التجارة في بر مصر فلا يستطيع ويكتفي بقوله ان احمال الفلفل توازي التراب قيمة ، وبعد ان كان ابن خلدون يصف مصر بأنها قبلة الأنظار وتاج الخليقة .. بعد ذلك كله نرى الرحالة الفرنسي سافاري الذي زار مصر عند بداية الحكم العثماني في القرن السادس عشر الميلادي يقول : « ان هذه البلاد الغنية التي كانت عصوراً ملاذ العلوم والآداب والفنون يحتلها اليوم شعب جاهل بربري يسومها الخسف ، أجل ! ان الطغيـان ليسحق بنيره الحديدي اجمل بلاد العالم [1] » .

وما ان يهل القرن التاسع عشر وتنصرم ثلاثة قرون على مصر تحت هـذا النير الحديدي حتى نجـد الميجور ديانروا عضو حملة نابليون يصف حالة القاهرة عندما دخلها الجيش الفرنسي فيقول: « ماذا تجد عند دخولك القاهرة؟ شوارع ضيقة قذرة غير مرصوفة ، وبيوتاً مظلمة متداعية ، وأبنية عامة كأنها السجون وحوانيت اشبه بمرابط الخيل ، وجواً عبقاً بعطر التراب والقمامـة ، وعمياناً وعوراً ورجالاً ملتحين واشخاصاً يرتدون اسمالاً محشورين في الشوارع او قاعدين يدخنون قصباتهم كالقردة امام مدخل كهفهم ، ونساء قليـلات منكرات الصورة ، مقززات ، يخفين وجوههن العجفاء وراء خرق نتنة ، ويبدين صدورهن المتهدلة من أرديتهن الممزقة ، واطفالاً صفر الوجوه ، رقـاق الأجساد ينتشر الصديد على جلدهم وينهشهم الذباب ، ورائحة كريهة منبعثة من الأوساخ داخل

---

(١) احمد رشدي صالح : الادب الشعبي ص ٥٤ .

البيوت ، ومن التراب في الهواء، ومن قلي الطعام بزيت رديء في الأسواق العديمة التهوية »[1] .

وليس هنا مجال الاستطراد في احوال مصر والشرق العربي في ذلك العهد الأسود الذي فرض على سكان المنطقة ابشع ألوان الانحطاط والتفسخ باسم الخلافة الاسلامية ، ولكن المقصود تبيان ان عصر التجهيل العثماني هذا وما شابهه من عصور الاستبداد السابقة ادت إلى القضاء على اية فرصة كان من المحتمل ان يحس فيها المصريون بشخصيتهم وتاريخهم ، وما كان قد تأخر هذا الاحساس على ذلك النحو ، إذ لم يبدأ المصريون في إدراك تاريخهم حتى انقشعت غمامة الاستبداد العثماني خلال القرن التاسع عشر .

---

(١) كريستوفر هيرولد : بونابرت في مصر - ترجمة فؤاد اندراوس ص ١٨٧ .

[٣]

البحث عن خيط عام

هذه الهوات السحيقة التي تعترض مجرى التاريخ المصري وما صحبها من انقطاعات نفسية لدى أبناء كل حقبة إزاء الحقب السابقة عليها تثير مشكلة صعبة أمام القول بوحدة التاريخ المصري . فالظاهر انه ليست هناك وحدة تربط بين اجزاء ذلك التاريخ بل إن كل حقبة تبدو منفصلة تماماً عما قبلها ، وتزداد الهوة اتساعاً إذا لم تكن الحقب متتالية بل تفصل بينها حقبة أخرى أو اكثر، فنحن إذا لمسنا مثلا علاقة واضحة بين مصر الفرعونية ومصر الهللينية ، او بين مصر الهللينيةومصر القبطية البيزنطية ، أو بين مصر القبطيةومصر صدر الإسلام، فانالعلاقة لا تبدو بنفس الوضوح ، أو تبدو كأنها ليست قائمة أصلا ، بين مصرالفرعونية ومصر الإسلامية ، أو بين مصر الهللينية ومصر الحديثة .

غير أنالمدقق في تاريخ مصر لا يستطيع أن يقول رغم كل أسباب الانقطاع التاريخي والنفسي ورغم تغير الحضارات وتوالي العصور، بأن تاريخ مصريتكون من مراحل منفصلة لا تربط بينها وشائج ما ، بل انه لخطأ علمي كبير الزعم بعدم وجود صلة بين مصر الفرعونية ومصر الهللينية ومصر القبطية ومصر الإسلامية ومصر الحديثة ، فهذه المراحل ليست قوارير منفصلة تقف الواحدة

وراء الأخرى في « فترينة » التاريخ المصري ، وليست هناك فواصل جامدة أو أبواب حديدية تقف بين مرحلة وأخرى ، وإنما هناك تلاحم عضوي فيما بينها تبدو معه هذه المراحل أشبه بأنابيب مستطرقة منها بقوارير منفصلة .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الدكتور حسين فوزي في «سندباد مصري» بقوله « ولكن مصر لم تبق ، ولا يمكن أن تبقى ، بمعزل عن العالم الذي تطور منذ القرون الوسطى وأنشأ في أوروبا حضارة نبتت أصولها من حضارة اليونان والرومان والتوراة والإنجيل ، وأخصبتها عناية العرب ببعض معالم الفكر اليوناني فاذا أضفنا إلى هذا ان حضارة اليونان تعترف لمصر القديمة ببعض الفضل ، وان الحضارة العربية تأثرت في بعض نواحيها الفنية بالفن البيزنطي ، فان السلسلة الحضارية التي تجمع مصر القديمة ومصر المسيحية ومصر الاسلامية والحضارة الحديثة سوف تضيق حلقاتها »[1].

وليس من شك ان وحدة التاريخ العام للبشرية حقيقة علمية قائمة بمعنى أن ثمة روابط تاريخية وحضارية وروحية ونفسية مختلفة تربط بين أجزاء التاريخ البشري على نحو أو آخر ، ولكن هل الأمر بالنسبة للتاريخ المصري يندرج فحسب تحت مبدأ وحدة التاريخ المصري العام ؟ أم أن ثمة خيطاً واحداً يمكن تتبعه على طول التاريخ المصري ويربط بين مراحله المتعاقبة ؟

ان البحث عن هذا الخيط العام في تاريخ مصر يعد مشكلة حقيقية ..

إذ ينبغي بادىء ذي بدء استبعاد وحدة الحضارة كخيط عام للتاريخ المصري ، فقد تقلبت مصر في حضارات مختلفة بحيث لا يمكن تصور وجود وحدة حضارية تكون أساساً لتاريخها كله ، ولا يمكن مثلاً الآن التفكير في احياء حضاري على

---

(١) د . حسين فوزي : سندباد مصري ص ١١٥ .

أساس فرعوني أو هليني أو بيزنطي أو حق اسلامي قـديم ، فكلها مراحـل حضارية ولت وانقضت ولا يمكن أن تصلح أساساً للقول بوحدة تاريخ ، بل ان هذه الحقيقة بذاتها هي التي مزقت وحدة التاريخ المصري ، ذلك لأن المؤرخين يغلبون الحضارة على التاريخ فهم يؤرخون لتاريخ الحضارات التي تعاقبت على مصر وليس لتاريخ الشعب المصري الذي تغلب في مختلف الحضارات ، في حين أن هناك شعوباً عريقة أخرى كالهنود والصينيين تصلح حضارتها ان تكون اساساً لتاريخها نظراً لاستمرارية حضارتها وتطورها بصورة منطقية طبيعية .

وإذا استبعدنا الحضارة كأساس لوحـدة التاريـخ ينبغي أن نستبعد بالتالي مقوماتها الأساسية كالدين واللغة .. فقد تحولت مصر من الوثنية إلى المسيحيـة إلى الإسلام ، ومن المصرية الهيروغليفية إلى القبطية اليونانية إلى العربية ، وبذلك لا يمكن أن يصلح أحد هذين العنصرين الحضاريين أساساً لوحدة تاريخية بـل انهما من أقوى أسباب الانفصام .

وقد يقال انه إذا كانت الحضارة متغيرة فان الموقع ثابت ومن الممكن اتخاذه أساساً لوحدة التاريخ المصري ولا شك أن موقع مصر الجغرافي لعب دوراً هاماً في تاريخ مصر وكان بمثابة وعاء لاستمراريته ، غير انني أزعم أن تاريخ مصر أكثر تماسكاً وترابطاً من أن يكون مجرد تاريخ موقع جغرافي معين ، فان استمرارية الحياة المصرية لا تفسرها الجغرافيا وحدها ، ولنذكر مثلا ان هناك مواقـع جغرافية كثيرة تعاقبت عليها أجناس وحضارات مختلفة دون أن تشفع لها وحدة الموقع للقول بوحدة تاريخهـا ، فمثلاً بلاد الرافدين تعاقب عليها السومريون والبابليون والأشوريون والآراميون والعرب المسلمون ، وبالرغم من أن كل هذه الأقوام – باستثناء السومريين – تنتمي إلى الأسرة السامية ، وبالرغم من أنهـا أقامت في نفس المكان إلا انه لا يمكن التأريخ لها كشعب واحـد على أساس اشتراكها في الموقع ، وكذلك لا يصلح موقع بلاد الشام كأساس لتاريخ واحد

يضم سير الفينيقيين والكنعانيين والعبرانيين والرومان والعرب . وعلى ذلك لا يمكن رد وحدة التاريخ المصري إلى وحدة الموقع وحده بل لا بد أن تكون إلى جانبه عوامل أخرى أكبر أهمية وأثرا .

وتكاد تكون الاستمرارية الجنسية النسبية للشعب المصري أصلح من غيرها كخيط يثبت وحدة تاريخ هذا الشعب ولكن يجب التحذر من اطلاق هذا القول على عواهنه ، أولاً لأن دعوى تجانس واستمرار أي جنس بشري علاوة على كونها غير علمية فانها أيضاً دعوى رجعية تؤدي إلى أوهام الاستعلاء والتفوق والتميز عن باقي الشعوب، وثانياً لأنه في حالة مصر بالذات لم يكن هناك جمود عنصري مطلق فبالرغم من وجود تشابه جنسي لا سبيل إلى انكاره بين المصريين القدامى والمصريين المعاصرين وبخاصة أهل الصعيد فان الشعب المصري لم يكن في أي عصر من العصور مغلقاً من الناحية العنصرية كالصينيين أو الاسكيمو بل كانت مصر دائماً معبراً ومستقراً للبشر من مختلف الأجناس يأتون اليها فرادى أو جماعات ، ويمنحونها دماء جديدة ، وكانت مصر دائماً تتقبل هؤلاء الوافدين [ولكن بشروطها لا بشروطهم !] وسرعان ما تمتصهم وتتمثلهم في نسيجها البشري بقدرتها الخارقة على التمصير ، وما ان يستقروا فيها جيلين أو ثلاثة أجيال حتى يعتبروا أنفسهم مصريين خلصاء ولا يعودوا يعرفون لأنفسهم أوطانا أخرى بل قد يصبحوا أشد اعتزازاً بها وبامجادها من ابنائها الأصليين .

وفي الحالات القليلة التي تمسك فيها القادمون إلى مصر بكيانهم الخاص ورفضوا الاندماج في وسط الشعب أصبحوا كالقوقعة المتحجرة وسرعان ما كانت مصر تلفظهم عاجلا أو آجلاً ، وهذا ما حدث بالنسبة للهكسوس الذين لفظتهم مصر بعد احتلال استيطاني دام ١٥٠ عاماً ، وبالنسبة لبني اسرائيل الذين خرجوا بعد إقامة طفيلية قلقة معذبة، وبالنسبة للبيزنطيين الذين طردوا

إلى البحر بعد احتلال عسكري متعجرف ، وبالنسبة للبدو الاعراب بعد الفتح العربي الذين رفضوا ممارسة الزراعة – شرط التمصير الأول – فأصبحوا يعيشون على هامش مصر اجتماعياً وجغرافياً .

ان ما يصلح بمثابة خيط عام للتاريخ المصري ليست الاستمرارية الجنسية بالتحديد وانما استمرارية الحياة المصرية ذاتها القائمة على مقومات مصر الدائمة كالاستقرار والزراعة والانتاج الدائب.. انه نهر الحياة المصرية الذي لا يتوقف عن الجريان كنهر النيل ، فكما أن النيل مستمر ومتجدد في نفس الوقت كذلك نهر الحياة المصرية في استمراره وتجدده ، وقد تعترض هذا النهر أو ذاك عقبات موقتة وقد يصاب في بعض المراحل بالركود والأسن ولكنه لا يلبث أن يتدفق من جديد ويعود سيرته الأولى ، فها هم المصريون رغم كل ما يحدث فيهم ، ومن حولهم ، يشقون الأرض ، ويبذرون الحب ، ويحصدون الثمار ، عاماً بعد عام ، لم يتوقفوا عن ذلك سنة واحدة منذ سبعة آلاف عام !

* * *

من المعجزات الكبرى في تاريخ الشعب المصري – وربما أكبر معجزاته على الاطلاق – انه واصل الحياة والاستمرار بعد انهيار حضارته القديمة التي عاش في ظلالها ثلاثة آلاف عام من التاريخ المكتوب وعدة آلاف اخرى من السنين ضاربة في احشاء ما قبل التاريخ .

ويكاد يكون الشعب المصري فريداً في ذاته في هذه الناحية ، فالقاعدة التي أثبتت نفسها دائماً في تاريخ البشرية أن أي شعب ذي حضارة عظيمة يموت عادة بموت حضارته ، هذه القاعدة لم تصدق فحسب بالنسبة لشعوب وحضارات امريكا الجنوبية المنعزلة مثلا كالانكا والمايا ، وإنما لم تسلم منها كذلك الشعوب

العريقة المتحضرة في العالم القديم وعلى رأسها الشعب الأغريقي نفسه ، فالذي يؤكده علماء الأجناس والحضارات ان الشعب اليوناني المعاصر وكذلك الشعب الايطالي المعاصر لا يمتان الى حد كبير بصلة عضوية إلى الأغريق والرومان القدامى ، فقد حدثت عملية إزاحة شبه كاملة للغطاء البشري لجزر اليونان وإيطاليا في مطلع العصر الميلادي وحل محله غطاء بشري آخر نتيجة لهجرات القبائل المتبربرة من الشرق والشمال التي هاجمت الأمبراطورية الرومانية من الخارج واستقرت فيها واعتنقت المسيحية وتولد عنها المجتمع الغربي الحديث ، فاليونانيون المعاصرون والايطاليون المعاصرون لا يعتبرون ورثة الحضارة الاغريقية الرومانية إلا تجوزاً باعتبارهم يسكنون نفس المنطقة التي ترعرعت فيها هذه الحضارة . أما المصريون المعاصرون فهم ورثة حضارتهم القديمة بالمعنى الكامل للكلمة لأنهم الأحفاد الحقيقيون المباشرون لأجدادهم صانعي تلك الحضارة .

وقد يقال ان قاعدة موت الشعب بانهيار حضارته لم تصدق مثلاً في حالة الفرس الذين استمروا كشعب حي بعد اعتناقهم الاسلام وأخذهم بالحضارة الاسلامية ، ولكن ذلك يبدو لأول وهلة فحسب لأن الحضارة الفارسية القديمة لم تمت في الواقع نتيجة للفتح الاسلامي بل استطاعت أن تكيف نفسها مع الظروف الجديدة بل وانتهى بها الأمر الى « فرسنة » الحضارة الاسلامية ، وما الإنقسام الكبير الذي حدث في العالم الاسلامي إلا شاهداً على ذلك .

أما المصريون فقد كانت حضارتهم القديمة قد ماتت فعلا وهم يعتنقون المسيحية ثم الاسلام ، وأصبحوا ينتمون الى صروح حضارية جديدة مختلفة تمام الاختلاف عما عهدوه من قبل ، ومع ذلك ظل المصريون هم نفس المصريين ، وظلت حياتهم تسير على نفس المنوال ، ولم ينقطع نهر الحياة المصرية .

والمقصود هنا بانهيار الحضارة الفرعونية الوقت الذي توقفت فيه نهائياً عن

أن تكون قـــوة مؤثرة في حياة المصريين وليس مجرد انهيــار الدولة سياسياً واقتصادياً ، فقد حدثت في العصور الفرعونية انهيارات كثيرة من هــذا النوع أبرزها الفترة الانتقالية الأولى Interregnum التي أعقبت انهيار الدولة القديمة وحدثت خلالهــا ثورة شعبية كبرى[1] . والفترة الانتقاليه الثانية التي أعقبت انهيار الدولة الوسطى وحدث أثناءها غزو الهكسوس ، ولكن مــا حدث في الحالتين لم يكن انهياراً للحضارة ذاتها وإنما مجرد انهيار للدولة ، وكانت الحضارة الفرعونية لا تلبث أن تعاود سيرها من جديد ، فقد قامت الدولة الوسطى كرد فعل لحالة الانهيار السياسي والاقتصادي والفكري التي استمرت زهاء أربعـة قرون كانت فيها روح الحضارة المصرية قوية رغم هذا الانهيار بدليل أن تلك الفترة شهدت ميلاد قيم جديدة تعترف لأول مرة بفردية الانسان وحقـــه في الخلود[2]. وقامت امبراطورية الدولة الحديثة كرد فعل من الروح المصرية لغزو الثقافة الآرية والسامية في عهد الهكسوس. وقامت الأسرة السادسة والعشرون الوطنية كرر فعل للغزو البابلي والاشوري واللوبي والاثيوبي . وكذلــك أدى الاحتلال الفارسي البغيض على يد قمبيز حوالي ٥٢٥ ق.م. الى سلسلة من الثورات المصرية العنيفة حدثت الأولى بــــين ٤٨٥ — ٤٨٤ ق. م. والثانية من ٤٦٥ — ٤٤٩ ق. م. والثالثــــة من ٤٠٤ — ٣٤٣ ق. م. وحصلت مصر خــلال هذه الثورات على قدر من الاستقلال الذاتي ولكن اعــــادة الفتح الفارسي عام ٣٤٣ ق.م. قضى على الاستقلال المصري نهائياً ومع ذلك لم يفقـد الشعب المصري قدرته على الانتفاض في وجه حكامه الأجانب لعدة قرون تالية ، وخلال هذه الانتفاضات كان الشعب المصري يحصل على تنازلات كبيرة من حكامـــه الأجانب[3].

---

(١) راجع : اول ثورة على الاقطاع للمؤلف كتاب الهلال — ٢١١

(٢) المرجع السابق ، وايضاً Breasted : Daun of Concious

3) Toynbee vol. 7, P. 50

وأخيراً انهارت الحضارة الفرعونية تماماً بعد أن عاشت فترة زمنية أطول من أي تاريخ آخر معروف أو ثلاثة أضعاف عمر الحضارة الغربيـة المعاصرة ، وأصبح التغيير الذي طرأ على الشعب المصري كاملا باعتناقه المسيحية والإسلام ، وهذا ما يدفع المؤرخين إلى القول بحدوث انقطاع تام في التاريخ المصري، وحتى المؤرخ العظيم أرنولد توينبي يذهب إلى حد القول بأن هذا المجتمع المصري غير ممثل في عالم اليوم بأي خلفاء بشريين أو أصحاب حق ، ويدرج توينبي المجتمع المصري في قائمة المجتمعات التي لا ترتبط بأي علاقات انتماء سواء بالبنـوة أو الأبوة مع أي مجتمع آخر. فقد تتبع توينبي علاقات الانتماء والتبني بين المجتمعات الحضارية التي عرفها التاريخ البشري وعددها ٢١ مجتمعاً فوجد انها متصلة ببعضها البعض بهذه العلاقات على نحو أو آخر فيما عدا مجتمعين فقط يقفان بمفردهما وهما المجتمع المصري القديم والمجتمع الهندي القديم(١).

وأعتقد أن هذا الحكم قد يصدق على الحضارة الفرعونية باعتبارهـا شيئاً مختلفاً عن تاريخ مصر ، فان توينبي عندما يتكلم عن المجتمع المصري Egyptiac Society انما يقصد الحضارة الفرعونية لا المجتمع البشري المصري ، وهنا فقط تستقيم نظريته ، فالحضارة الفرعونية تلاشت تماماً في القرن الخامس الميـلادي دون أن تتخلف عنها جذوة مباشرة ما ، ولكن ماذا عن المصريـين كشعب وكائن عضوي ؟ هل لحقتهم الابادة التي حاقت بحضارتهم القديمة ؟ هل ظهرت بعد القرن الخامس الميلادي مصر أخرى لا تمت بصلة إلى مصر السابقة لها ؟ أم أن مصر دخلت مرحلة جديدة من تاريخها تختلف فحسب عما قبلها في لونهـا الحضاري وأمست الحضارة الفرعونية ذات الأربعة آلاف عـام أو أكثر مجرد تجربة في تاريخ مصر ؟

---

1) Toynbee : vol. I P. 128

ان أكثر الخطأ في الاعتقاد بعدم وحدة التاريخ المصري إنما ينشأ من هذه النقطة بالذات وهي اعتبار الحضارة الفرعونية صنواً للتاريخ المصري ، أو بمعنى آخر ينتهي تاريخ مصر بانتهاء حضارتها الفرعونية ثم يبدأ بعد ذلك تاريخ آخر مع كل حضارة جديدة يدخلها المصريون .

لنفترض ، مثلاً ، ان كائناً بشرياً استطاع أن يغير اسمه وعقيدته وعلاقاته الاجتماعية بل وملامحه الجسدية وأصبحت كل هذه السمات بالنسبة له شيئاً يمت إلى الماضي واكتسب بدلاً منها ملامح وسمات وعلاقات جديدة ، فهل يكفي هذا لأن نعتبره شخصاً اخر ؟ هل نحن أمام رجلين أم ما زلنا أمام رجل واحد ؟ ان هذا الرجل حتى لو شاء أن ينسى ماضيه وود أن ينساه الآخرون ، فان هذا الماضي سيظل يطارده ولن يجد منه فكاكاً ، بل سيظل دائماً في أعين الآخرين على الأقل نفس الرجل .

وهذا نفس ما حدث لمصر بعد أن تلاشت نهائياً ظلال المرحلة الفرعونية ، وإذا كان بعض المصريين ينكرون الآن هذه المرحلة كشيء لا يمت الى تاريخهم بصلة ، فليس هذا موقف الأجانب عن مصر الذين يساعدهم بعد الصورة على إدراك وحدة التاريخ المصري أكثر مما يتأتى للبعض منا !

* * *

والآن ، لنلق نظرة عن كثب على مراحل الانقطاع الظاهري في تاريخ مصر لنرى الى أي حد تعتبر انقطاعاً حقيقياً ..

ان العصر البطلمي الذي يقابلنا بعد انتهاء العصور الفرعونية مباشرة لم يكن سوى امتداداً فعلياً لكل أحوال المصريين السابقة عليه فيما عدا ضياع السلطة السياسية من يد الوطنيين ، فقيام دولة البطالسة لم يسلب مصر سوى

جنسية أسرتها الحاكمة وفرض عليها طبقة أجنبية حاكمة فحسب وفيا عـدا ذلك استمرت سمات الحضارة القديمة كما هي فيما يتعلق بحياة الشعب اليومية ولغته ومعتقداته ربما بتغيير طفيف ينحصر في كتابة اللغة المصرية بالأبجدية الاغريقية ودخول المعتقدات المصرية مرحلتها الأخيرة من الأبهام والفساد..

ان الإسكندر الاكبر نفسه رغم انه كان فاتحاً عظيماً لم يجـد غضاضة في التودد الى المصريين وآلهتهم ، والظهور بمظهر الخليفة الحقيقي للفراعنة، فنجده يقدم القرابين الى الآلهة المصرية في معبد بتاح ، ويتوج فرعوناً بكل الالقاب الرسمية التي كان يحملهـا الفراعنة الغابرون ، ثم يسافر في الصحراء إلى معبد آمون بسيوة رغم مشاغله الكثيرة ومشاق الطريق كي يتلقى الوحي ويستشير الإله في مسألة نسبه(١).

فالاسكندر لم يجرؤ — والحقيقة انه لم يتصور — أن يقطع خيط التاريـخ المصري وانما سلك نفسه في التاريخ القومي للمصريين ، وبعد وفاة الاسكندر عام ٣٢٣ ق. م. تقاسم قواده امبراطوريته بين ثلاث دول هي دولة البطالسة في مصر ودولة السلوقيين في سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا في بلاد الاغريق . ولم يلبث أن حطم البطالسة الوحدة الظاهرية للامبراطورية وأعلنوا استقلالهم علناً ، وتطلعوا إلى اقامة امبراطورية عالميـة نواتها مصر .

بل نجد أن بطليموس الكبير الذي تولى الحكم عقب الاسكندر انمـا تولاه بمقتضى ميثاق يتعهد فيه لكهنة منق برد الاموال التي سلبها منهم الفرس ويتعهد فيه بدفع خطر الفرس عن مصر ، وقد عثر في القاهرة عام ١٨٧١ على هـذه

(١) د. ابراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالسة .

الوثيقة التي تدل على نوع من الشرعية للحكم البطلسي يضع في الاعتبار مشيئة مصر[1].

ولما كان البطالسة لا يستندون إلى قوة خارجية ولا يمثلون مصالح دولة أجنبية لذلك اضطروا الى الاعتماد على قوةمصر الذاتية بل واضطروا إلىالتقرب من المصريين رغم سياسة التفرقة العنصرية التي حاولوا فرضها بصراحة ضد المصريين الوطنيين .

فقد كان هناك جهد واعفي سياسة البطالسة لعدم المزجبين العنصرينالإغريقي والمصري حتى لا يذوب العنصر الإغريقي المتفوق وسط جموع العنصر المصري الغالب فكان الزواج المشترك محرماً بين الإغريق والمصريين ، وكان المصريون لا يتمتعون بحقوق المواطنة الإغريقية بل انهم في مدينة الاسكندرية كانوا يأتون في الدرجة السابعة أي بعد اليهود ، وكان مثقفو الاسكندرية يعكفون على دراسة الفكر الفلسفي الإغريقي لا التراث العلمي المصري بل ان الشعراء كانوا يتغنون بمفاتن الطبيعة الاغريقية التي ربما لم يروها في حياتهم وليست الطبيعة المصرية التي يعيشون في رياضها ، وباختصار كان هدف البطالسة لا سيا في أول عهدهم انشاء دولة اغريقية روحاً ودماً وكانوا حريصين على عدم إيقاظ الروح القومية لدى المصريين وعدم تحقيق وحدة وادي النيل حتى لا تؤدي إلى يقظة قومية ويبدو أن هذا ما يفسر اتجاه فتوحاتهم شرقاً وشمالاً وغرباً لا جنوباً حيث تقهقرت الروح المصرية الأصيلة تاركة الأجزاء الشمالية من مصر خالصة للنفوذ الأغريقي[2].

ولكن بالرغم من كل هذا الجهد الواعي لاضعاف الروح المصرية فقد ظلت

---

(١) صبحي وحيدة : في اصول المسألة المصرية .

(٢) د . ابراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالسة .

تلك الروح من القوة بحيث ترغم البطالسة على احترامها والنزول على إرادتها في كثير من الأمــور ، فمن الناحية السياسية كان البلاط البطلسي يتسم بالطابع المصري الفرعوني ، فالبطليموس يحكم كفرعون ، ويحيا في قصره حياة الفراعنة الأولين ، يحمل نفس الشعارات والرموز ، ويعبد نفس الآلهــة ، ويعتمد في حكمه على الكهنة المصريين ويسترشد بآرائهم ، ويرأس مجامعهم ، وفي العهــود البطلسية المتأخرة أصبح للكهنة المصريين الحق في منع تتويج البطليموس بعدأن كان التتويج واجباً عليهم فحسب ، وفي عهد بطليموس الرابع انتقـل البلاط البطلسي بأكمله من الاسكندرية إلى منف مقر الكنيسة المصرية[1].

ومن الناحية الدينية انخرط الاغريق في سلك الكهنوت المصري ، ودخلت آلهة اليونان المعابد المصرية وآلهة المصريين المعابد الاغريقية ، وظهرت عبارة سيرابيس التي هي مزيج من المعتقدات المصرية والاغريقية بينما غزت عبادة ايزيس المصرية الخالصة كل أنحاء العالم الهلليني ، ولكن من الأمور ذات الدلالة ان اقبال الاغريق على الآلهة المصرية كان أكبر بكثير من اقبال المصريين على الآلهــة الاغريقية ، بل يمكن القول ان المصريين لم يقبلوا الديانة الاغريقية على الاطلاق ولم يستسيغوا أساطير جبل الأولمب .

ومن الناحية الثقافية كانت جامعة الاسكندرية منارة للحضارة في حوض البحر المتوسط ، وكانت مكتبتها العامرة تضم ما يقرب من نصف مليون مجلد منها نسبة كبيرة من كتب وسجلات الفكر المصري والتراث الفرعـوني ، ومن هذه المنابع نفذت مجموعة من أكبر فلاسفة ومفكري الهللينية .

ولم يفقد المصريون طيلة ثلاثـــة قرون من الحكم البطلسي احساسهم القومي وقدرتهم على الثورة والتمرد ، وكثيراً ما ظهرت زعامات مصرية وطنية التفت

---

(١) صبحي وحيدة : في اصول المسألة المصرية ص .

حولها الجماهير ، وكثيراً ما قامت الثورات الدامية في وجه الحكام البطالسة وخاصة بعد معركة رفح عام ٢١٧ ق. م. التي أحرز فيها الجنود المصريون الذين كان يتكون منهم أساساً الجيش البطلسي انتصاراً ساحقاً على جيش السلوقيين الذي كان يتكون أساساً من الجنود الاغريق . والمؤكد أن هناك ثورتين كبيرتين للمصريين في عهد البطالسة الاولى في عامي ٢١٣ – ٢١٢ ق. م. والثانية بين عامي ١٨٩ – ١٨٤ ق.م. وحتى وقت متأخر يرجع الى عام ٨٥ ق.م. نجد ثورة مصرية عنيفة في مدينة طيبة التي كانت بمثابة معقل للروح الوطنيه لم تخمد إلا بعد أن خرب البطالسة المدينة ، ووضعوا نهاية أبدية أليمة لتلك العاصمة العتيدة ذات المائة باب .

وقد حرص البطالسة بقدر الامكان على عدم المساس بالعادات والتقاليد والقوانين المصرية ، وكانت بعض القواعد القانونية المصرية أكثر تقدماً من القوانين الاغريقية ومثال ذلك مركز المرأة في القانونين ، فالمرأة في القانون المصري كاملة الأهلية وجوباً وإداء لها أن تتصرف في نفسها وفيا تملك بحرية تامة ، أما المرأة في القانون الاغريقي فقاصر لا بد من وجود وصي شرعي عليها ، وقد أثار هذا الوضع حفيظة الاغريقيات في مصر حيث كن لا يتمتعن بحقوق المصريات اللاتي يرونهن دونهن في السلم الاجتماعي ، ونتيجة لذلك اضطر بطليموس الرابع إلى الحد من حقوق المرأة المصرية في الزواج والمعاملات .

وفي أواخر عهد البطالسة بدأ مؤشر القوة يتجه نحو المصريين ، فقد أصاب الاغريق وهن قومي ولم يعودوا مثل أجدادهم في عصر بركليز أو الاسكندر بينما إزداد المصريون قوة بعد أن استردوا أنفاسهم عقب الغزوات المتلاحقة التي قضت على استقلالهم السياسي ، وكانوا يعتزون اعتزازاً واضحاً بحضارتهم القديمة التي كانت أعظم حضارة أخرجت للناس باعتراف الاغريق أنفسهم ، وبدأ الاغريق يتقربون بشكل واضح من المصريين ، فيتعلمون لغتهم ، ويهتمون

بشؤونهم ، ويختلطون بهم في الحياة الاجتماعية ، ويتزوجون منهم حتى لقد ظهر بالفعل عنصر اغريقي مصري جديد ، ومن ناحية أخرى أقبل المصريون على تعلم الاغريقية وتقلد المناصب العامة حتى لقد برز منهم الكثيرون في السلكين المدني والعسكري على السواء ، وصاروا قاب قوسين أو أدنى من المساواة التامة مع الاغريق .

وبوجه عام ظل المصريون طيلة العصر البطلمي يعيشون كما كان يعيش أجدادهم محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، يعبدون آلهتهم القديمة ويخضعون لقوانينهم القديمة ، يفلح ملايينهم الارض ، ويشتغل ألوفهم بالصناعة والتجارة والحرف المختلفة ، وظل الكهنة المصريون رغم ضياع ارستقراطيتهم القديمة وثرائهم الفاحش محتفظين بتنظيمهم القومي الذي لم يكن أي حاكم يجرؤ على المساس به ، وبرز الكهنة المصريون في الثقافة مثل مانيتون الكاهن السمنوري الذي صنف تاريخاً لمصر أصبح – رغم ضياعه وبفضل المقتبسات القليلة التي بقيت منه – عمدة التأريخ للعصور الفرعونية حتى الآن . وكان المصريون يلتقون في انديتهم أو في بيوت أعيانهم أو في معابدهم ليستمعوا إلى قادتهم الروحيين دون أن تتدخل الحكومة في أمورهم بل كانت تضطر إلى النزول عند مطالبهم ، أو كما يقول توينبي لقد حصل المجتمع المصري على تنازلات ملحوظة من سادته الهللينيين[1] .

وباختصار يمكن القول انه إذا لم يكن الشعب المصري قد برز كقوة سياسية واجتماعية أولى أثناء العصر البطلمي نتيجة للحكم الأجنبي المعتمد على طبقة ارستقراطية عسكرية أجنبية مسيطرة إلا أن مصر أثرت بقوة دفعها الحضاري وامكانياتها الذاتية الضخمة في شئون سادتها وأحوال العالم المعاصر في ابراز شخصيتها الوطنية وفرض التمصير على يونانييها ، وما وقفة كليوباترا السابقة في

---

1) Toynbee : Vol. 7 P. 50

نهاية الأمر سوى انتفاضة لروح مصر المستقلة في وجه التوسع الروماني الكاسح، بل إن اختيار كليوباترا الانتحار بلدغة الكوبرا لم يكن محض مصادفة وإنما كان له مغزاه المقصود لأن الكوبرا هي أفعى تاج مصر السفلى وخادمة اله الشمس رع التي تمنح لدغتها الخلود والألوهية ، واختيار كليوباترا لهذا الرمز المصرى عند انتحارها دليل على احساسها القوي بمصريتها [1] .

ونخلص من ذلك إلى أن حكم البطالسة الذي امتد ثلاثمائة عام (٣٣٣ — ٣٠ ق. م.) لا يعتبر انفصاماً من تاريخ مصر ، وإنما كان مرحلة جديدة دخلتها مصر بعد أن مالت شمس رع للغروب .

* * *

وانتقلت مصر إلى سيطرة روما في عام ٣٠ ق. م. وتم الانتقال بطريقة هادئة أقرب ما تكون إلى طبائع الأمور، لم يكن ما حدث أكثر من استبدال سيد بسيد ، وكانت سيطرة روما على مصر سيطرة سياسية في المحل الأول إذ لم تسبقها هجرة بشرية رومانية كما حدث بالنسبة للسيطرة اليونانية من قبل ، ولم تعقبها هجرة بشرية كما حدث بالنسبة للفتح العربي من بعد ، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يكيفون العلاقة بين روما ومصر بأنها أشبه بالاتحاد الشخصي . فالذي حدث أن أغسطس قيصر توج ملكاً على مصر في الوقت الذي كان يتقلد فيه حكم روما ، وأصبحت مصر من الأملاك الخاصة للامبراطور الروماني .

ولم يحاول الرومان ولا سيما في أول الأمر أن يغيروا شيئاً من الأحوال

---

(١) د. عبد اللطيف أحمد علي : مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الاوراق البردية ص ٢٩ .

المصرية ، ولم يمسوا حقوق وأوضاع الطبقة العليـــا المسيطرة والتي هي مزيج اغريقي مصري ذات ثقافة هللينية وخلقية مصرية ، وبالتالي لم ترفع هذه الطبقة صوتاً بالمعارضة ضد روما .

وتحت الحكم الروماني فقدت مصر استقلالها الذاتي ورزحت تحت قيـــود سياسية واقتصادية ثقيلة ، وفقدت الكثير من مقومات حضارتها القديمة ولكن الشعب المصري لم يستكن تماماً للأوضاع الجديدة بل نجده يثور أكثر من مرة في وجه حكامه الرومان ممـا يثبت استمرار احساس المصريين بتميزهم القومي الذي لم ينجح في طمسه نهائياً الاستبداد السياسي وغلبة المشاعر العالمية في عالم ذلك اليوم ، فما أن غادر أغسطس قيصر مصر بعد ضمها إلى روما حتى ثار اقليم طيبة معقل الروح الوطنية المصرية وتبعته في الثورة أقاليم أخرى ، وفي عـام ١٣٦م اضطر الامبراطور ادريان الروماني إلى الحضور بنفسه إلى مصر للاشراف على اخماد الاضطرابات التي كادت تزلزل السلطة الرومـــانية ، كما ثارت الاسكندرية في عـام ١٥٣ م وقتل أهلها الحاكم الروماني ثم ثارت مرة أخرى بزعامة الراهب المصري ايزادور في عهد الامبراطور مـــاركوس اورليوس (١٦١ — ١٨٠ م) .

لقد كانت مصر أبعد ما تكون عن الشلل والخـمول رغم النير الروماني ، فهي بحكم وزنها الحضاري وتراثها الروحي تمكنت من غزو غزاتهـــا في عقر عقولهم ، فقد انتشرت العقائد المصرية في جميـع أنحاء الامبراطورية الرومانية وأصبحت ديانة ايزيس لفترة طويلة ديانة الدولة الرسمية وأقرت في روما بشعائرها المصرية وانشئت لها المعابد في قبرص وصقلية وانطاكية وأثينا وروما وفرنسا وانجلترا والواقع ان انتشار عبادة ايزيس في العالم القديم يرجع إلى ما قبل العصر الروماني بعدة قرون ، فمنذ القرن الرابـع قبل الميلاد بدأت تظهر معابد لتلك الربة المصرية في رودس ولسيوس وتيرا وازمير بل وفي جزيرة ديلوس المقدسة

نفسها ، ثم واصلت انتشارها في العصر البطلسي إلى قبرص وصقلية وأنطاكية وأثينا ، وكان السبب في انتشارها الواسع على هذا النحو انهـــا عبادة غنية بالعمق الروحي مما جعل الرومان المتعطشين لعقيدة روحية يجدون فيها مـا لا يجدونه في المذاهب الفلسفية المتناقضة المنتشرة بين المثقفين الهللينيين ، فأقبلوا على الاغتراف من الفكر الديني المصري المليء بالحنان والطمأنينة والسمو والذي يهب الأمل في حياة أفضل بالعالم الآخر [1] .

وهكذا منحت مصر رغم هوانها وضعفها السياسي العـــالم المتحضر آنذاك نبضه الروحي وعقيدته الدينية وطمأنينته النفسية ، وكان انتشار عبادة ايزيس على هذا النحو من العوامل التي هيأت الأذهان لتقبل المسيحية إذ كانت للمسيحية رموز مقاربة لرموز ديانة ايزيس فأقانيم التثليث المسيحية تشبه الثالوث المصري ايزيس وأوزيريس وحورس ، ومريم العذراء حملت بروح القـــدس كما حملت ايزيس بروح أوزيريس ، وصورة العذراء مريم تحمل يسوع ما هي إلا نسخة جديدة لصورة ايزيس تحمل الطفل حورس .

وإلى جانب عبادة ايزيس ظلت عبادة معظم الآلهة المصرية القديمة الأخرى مستمرة في مصر ولكنهـــا تدهورت إلى عبادة الحيوان ، ويحتفظ المتحف اليوناني الرومـاني بالاسكندرية بكثير من الآثار الدالة على تقديس الحيوانات المصرية في العصر الروماني ومنها التمساح (سبك) الذي أقام له الرومان معبداً خاصاً في الفيوم .

وفي مجـال الفنون امتزج الاسلوبان المصري والروماني من مزيج واحد ان كان قد فقد اصالة الفن المصري القديم وتجريده إلا أنه احتفظ بآثار جماله الذابل فأصبحنا نرى التمثال أو الصورة الواحدة يجمعان بين الاسلوبين معاً فقـــد

---

(١) د. عبد المنعم أبو بكر : ايزيس . صحيفة الاهرام ٢٦ / ٨ / ١٩٦٩ .

يكون النصف الأسفل مصرياً والأعلى رومانياً ، أو الملامح رومانية والشعارات مصرية كقرص الشمس والجعران والصل والباشق والجناحين .

وتجدر هنا الاشارة إلى أثر روماني يجمع بوضوح بين الاسلوبين المصري والروماني ذلك هو الطاناكوم أو المقبرة الجمالية الرومانية بجي كوم الشقافة بالاسكندرية ، فقد نحتت هذه المقبرة من ثلاثة طوابق في باطن الأرض الصخرية ، وغرفة الدفن الرئيسية فيها تضم ثلاثة توابيت حجرية تجمع بين الاسلوبين المصري والاغريقي في تصميمها وزخرفتها ، وفوق التابوت الأوسط لوحة تمثل عملية التحنيط على الطريقة المصرية حيث نجد الجثمان مسجى بين يدي أنوبيس اله الجبانة المصري ذي رأس ابن آوى ، وعند الرأس أوزيريس اله العالم الآخر ، وعند القدمين ايزيس ناشرة جناحيها الكبيرين ، وتحت الجثمان تصطف الأواني الكانوبية التي يحتفظ فيها بالاحشاء ، وأسلوب تنفيذ المقبرة مصري في مجموعه مع لمسات رومانية هنا وهناك فمدخل الغرفة الرئيسية على هيئة بوابة فرعونية تعتمد على عامودين مصريين تزينهما نقوش رومانية ، وإلى جانبي الغرفة تمثالان في فجوتين لصاحب المقبرة وزوجته نصفهما الأسفل بالطريقة المصرية ونصفهما الأعلى وبخاصة ملامح الوجه والشعر المجعد روماني صميم . والملاحظ ان الفنان الذي صنع المقبرة سواء كان مصرياً أو رومانياً أخطأ في عدة قواعد رئيسية في الفن المصري ، فمثلاً نجد القدم اليمنى للسيدة هي المتقدمة وكان يجب أن تكون اليسرى ونجد الأواني الكانوبية عددها ثلاث بدلاً من أربع ، وهذا يدل في حد ذاته على اختفاء الاصالة وتحول الرموز المقدسة إلى مجرد زخارف شكلية ، ومع ذلك فإن الكاتاكوم أبلغ دليل على أن الروح المصرية ظلت قائمة في مصر الرومانية تفرض وجودها حتى على الأجانب الذين يحتكرون السلطة في البلاد ، فإن صاحب المقبرة وهو حاكم أو نبيل روماني يصر على التمسك بهذا الطابع المصري في مدفنه ، وما كان أغناه عن ذلك وهو السيد المنتمي إلى

طبقة أجنبية حاكمة ، فهل هي قوة اندفاع الحضارة المصرية ما زالت تفرض وجودها حتى على الغرباء ؟ هل هي رغبة من ذلك النبيل الروماني في اضفاء طابع العراقة على نفسه ؟ أيا ما كان الدافع فان الكاتاكوم – كما يقول جيمس بيكي – يعد نموذجاً جذاباً للذوق الفني في مصر اليونانية الرومانية وللاختلاط الزائد للمؤثرات المصرية والكلاسيكية [1] .

وازدادت شخصية مصر وحنوها في العهد المسيحي البيزنطي ، ويبدو أن اعتناق مصر للمسيحية كان بمثابة جرعة قوية أنعشت الشعب المصري لأن المسيحية كانت ثورة اجتماعية عميقة قلبت المجتمع رأساً على عقب وأدت إلى تقدم الطبقات السفلى تضم الفلاحين والعبيد وأصحاب الحرف وفقراء المدن إلى صدارة المجتمع الجديد كانت من قبل وقفاً على الطبقة الهللينية الوثنية التي حطمتها المسيحية ، وهكذا أصبحت الكنيسة المسيحية في مصر أكثر مصرية من الكنيسة الوثنية المصرية التي كانت قد اتجهت بالفعل اتجاهاً هللينياً عالمياً. أما الكنيسة القبطية فقد اتجهت اتجاهاً محلياً قوياً ، وتحول أساقفة الاسكندرية إلى فراعنة سافرين [2] .

وهذه هي الخلفية التي تفسر أبعاد النزاع المذهبي الذي شجر بين أقباط مصر وحكامهم البيزنطيين فمن الملاحظ ان المصريين كانوا من أشد الأمم تقبلاً المسيحية منذ نشأتها الأولى لجملة أسباب ليس أقلها السخط على الدولة الرومانية الوثنية ، فقد وجدوا في هذا الدين متنفساً قومياً لهم ، وجعلوا منه شارة تميزهم عن الجحافل الرومانية التي تجثم فوق صدورهم، واستعذبوا في سبيله أقسى ألوان الاضطهاد التي بلغت ذروتها في عهد دقلديانوس ، ثم ما أن تحولت الدولة

---

(١) جيمس بيكي : الآثار المصرية في وادي النيل جـ ١ ترجمة لبيب حبشي وشفيق فريد ص ٣٨ .

(٢) صبحي وحيدة : في أصول المسألة المصرية .

الرومانية أيضاً إلى اعتنـــاق المسيحية حتى أصبح المصريون من أشد المنكرين لمذهب الدولة الرسمي .

والقضية الأساسية التي احتدم حولها الصراع بين المصريـــين وحكامهم البيزنطيين أو الرومان الشرقيين هي طبيعة السيد المسيح ، فالبيزنطيون يقولون بوجود طبيعتين للمسيح إلهيــة وناسوتية ، أما المصريون فقــد ثبتوا على القول بطبيعة واحـــدة للمسيح هي الطبيعة الالهية وكانوا يسمون مذهب الطبيعتين بالملكانية ، وهي كلمة كما يقول توينبي تعادل الامبريالية [1] ، أمــا هم فيسمون بالمونوفيزيين أي المتوحدين أو اليعاقبة .

وللاستاذ العقاد تفسير زكي لطبيعة هذا الخلاف المذهبي إذ يقول انه يكمن في الاختلاف بين طبيعة الرومان والشعوب الشرقية التي يسيطرون عليهـــا ، فالقول بالطبيعتين يحمل معنى الخلط بـين الطبيعة الالهية والطبيعة الإنسانية وهو قول يناسب المعتادين على عبادة الامبراطور قبل مجيء المسيحية ، أمــا المصريون وغـــيرهم من الشعوب الشرقية الساخطة على السيطرة الرومانية فقد كانت نفوسهم تنفر من عبادة الامبراطور الرومــاني ورفعه إلى مصاف الآلهة والمزج بين طبيعة الانسانية وطبيعة الإله ، وبالتالي فقـــد نفروا من مذهب الطبيعتين الكاثوليكي [2] .

وهكذا كان الصراع المذهبي انعكاساً للصراع الجنسي بين المصريين وحكامهم ، وكان هدفه الأول الحفاظ على الكيان المصري وحمايته من الذوبان في الكيان البيزنطي ولكنه لم يكن هدفاً واعياً ولم يناد بالاستقلال الوطني صراحة فتلك

(1) Toynbee, Vol. 7 P 50 Margin 8 .

(٢) عباس محمود العقاد : عمرو بن العاص ص ٢٠٢ .

لم تكن قضية العصر ، ولم يكن القاموس السياسي وقتئذ يعرف معنى أو كلمة الاستقلال .

وكان أسلوب المصريين في مقاومة حكامهم الرومان والبيزنطيين سواء في العهد الوثني أو العهد المسيحي هو المقاومة السلبية التي أخذت شكل الرهبنة الفردية والجماعية .

وقد بدأت حركة الرهبنة المصرية في القرون الأولى للميلاد كرد فعل من المسيحيين المصريين لنوبات الاضطهاد التي لقوها على أيدي الأباطرة الوثنيين كراكالا وديسيوس وجالوس وفاليريايوس وجالينوس وبلغت قمتها في عهد دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥م) وجالريوس (٣٠٥ — ٣١١ م) واستمرت حركة الرهبنة بعد انتهاء الاضطهاد الوثني عندما حل محله الاضطهاد المذهبي وخاصة في أيام النزاع بين أنصار اثناسيوس وآريوس ، وكان الهدف منها في الحالتين النجاة بالعقيدة التي تخفي وراءها في الواقع أبعاد الصراع الجنسي والسياسي والفكري بين المصريين وحكامهم الأجانب .

وثمة ما يدل على أن السلطة الرومانية في مصر حاولت استخدام هذا السلاح — الرهبنة المصرية — في عكس هدفه أي بتوجيهه إلى نحور مستخدميه ، فقد عمدت أحياناً إلى تشجيع هذه الحركة كوسيلة لابادة الجنس المصري والخلاص من مقاومته السياسية ، ومثال ذلك القانون الذي أصدره قسطنطين الكبير باعفاء الرهبان من الخدمة العسكرية ، وكذلك اعفاء الاعزب ومن لا أولاد له من الضرائب [1] ، فالهدف في الحالين واضح وهو تشجيع المصريين على الرهبنة وعدم الزواج والانجاب بهدف انقراضهم والتخلص منهم .

---

(١) د. حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبنة والديرية المصرية ص ٧ .

والجدير بالملاحظة ومما له دلالة خاصة في نفس الوقت – ان حركة الرهبنة القبطية تضرب بجذورها في الديانة المصرية القديمة التي كان يستنكرها أقباط العهد المسيحي أشد الاستنكار، وفي ذلك دليل آخر قوي على استمرارية الخط الواحد في التاريخ المصري ، فالميل إلى الرهبنة والنسك واضح في تاريخ الديانة المصرية القديمة ، ومثال ذلك ما يبدأ به الفصل الرابع والستون من كتاب الموتى ونصه « هذا الفصل سيقرأه رجل نظيف طاهر لم يأكل لحم الحيوان أو السمك ولم يخالط النساء » ونفس المعنى يتكرر في أماكن أخرى من كتاب الموتى ، وكان كهنة ايزيس وأوزيريس ينذرون الصوم لآلهتهم ويمتنعون عن شرب الخمر وأكل لحوم الحيوان والسمك ، فهذه الاتجاهات النسكية في الديانة المصرية القديمة كانت من العوامل التي سهلت قيام الرهبنة القبطية [1] .

ومعروف أن الرهبنة المصرية انتشرت في جميع أنحاء العالم المسيحي ، وأصبحت فيما بعد جزءاً لا يتجزأ من تقاليد الديانة المسيحية بمختلف مذاهبها ، وفي هذا دليل آخر على حيوية مصر ومساهماتها في الاتجاهات العالمية حتى وهي في أشد حالات الضعف والسلبية .

وخلاصة القول ان مصر بالرغم من كل ما فقدته خلال العصر الروماني البيزنطي ، وبالرغم من تخليها عن عقائدها الوطنية [مع انها استمرت نسبياً في الوجه القبلي حتى عصر جستنيان] إلا أنها حافظت على شخصيتها المحلية ، وساهمت بقدر الامكان في ثقافة ذلك العصر وتياراته الفكرية والدينية والسياسية ، لم تذب في محتليها الرومان والبيزنطيين الذين ظلوا بمثابة طبقة قائمة بذاتها تضم الحكام وكبار الموظفين والجند الذين يعيشون في المدن الكبرى أو في مدن خاصة بهم دون أن يجرؤوا على التغلغل في أعماق الريف الذي ظل يحيا

---

(١) المرجع السابق : ص ٨ .

حياته المصرية التي ألفها منذ آلاف السنين ويتحدث لغته الوطنية التي تطورت مع الزمن تطوراً طبيعياً .

وعلى ذلك، لا يمكن اعتبار هذه المرحلة بشطريها الروماني الوثني والمسيحي البيزنطي بمثابة انقطاع في تاريخ مصر ، وإنما هي مرحلة ذات طابع خاص من تاريخ مستمر فيها اندمج المصريون في بوتقة العالمية ولكنهم ظلوا كما هم مصريين تحت جلودهم يقاومون حكامهم الأجانب بكل ما ملكوا من قدرة على الثورة والجدل وتحمل الاضطهاد .

* * *

هكذا يمكن القول بوجود خيط عام ينتظم التاريخ المصري منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر القبطي البيزنطي ، وهو خيط لا تخطئه العين رغم اختلاف الدول والحضارات التي تقلبت على مصر ، أو تقلبت فيها مصر ، غير أننا ما أن نصل إلى العصر العربي الإسلامي في القرنين السابع والثامن الميلاديين حتى نجد فجوة كبرى تفصل بين حاضر مصر وماضيها ليس من اليسير عبورها وتجاوزها ، فقد تغير المصريون وجدانياً ومادياً وقطعوا مسلمين وأقباطاً وشائج ارتباطهم بتاريخهم السابق ، وما أن نمضي قدماً من مجاهل موجة المغل التي اجتاحت مصر تحت ستار الدين حتى نجد الهوة وقد ازدادت اتساعاً، فقد تقلبت على مصر شتى الاجناس الآسيوية من مغول وأتراك وأكراد وجراكسة ومغاربة وارناؤوط في صورة حكام وأجناد وقضاة ومثقفين، وتوارى إلى الخلف شعب مصر الأصيل حتى لا نكاد نعثر له بين طيات التاريخ على أثر بارز أو كيان ملموس. ان مصر التي ألفتها العين سواء مستقلة أو مستعمرة تبدو كأنها اختفت تماماً الآن وفقدت أي تميز قومي مستقل لقد أصبحت جزءاً من العالم الإسلامي الفسيح المترامي الأطراف الممتد من المغرب والاندلس إلى حدود الصين ومن القوقاز والبلقان إلى أواسط أفريقيا ، وهذا العالم قد تمزقه

الحروب والخلافات ، وقد يتوالى عليه الحكام من كل جنس ولون وتنتقل فيه مراكز الحكم من مختلف الأقاليم . ولكنه رغم كل ذلك يبدو واحداً متجانسا مهما بدا من عدم اتحاده لأنه يستمد تجانسه من الدين الإسلامي الذي يعتنقه الكل رغم اختلاف المذاهب والفرق والنحل والملل ورغم عصف رياح السياسة والاقتصاد .

في هذا المناخ الذي استمر أكثر من الف عام حتى مطلع العصر الحديث يبدو من العسير – وقد يكون من العبث – البحث عن شخصية مستقلة لمصر والمصريين ويبدو كأن الخيط العام الذي نريد له أن ينتظم التاريخ المصري قد انقطع بلا أمل في وصله أو العثور عليه ، فهل ترانا مستطيعين أن نعثر وراء هذا التغير العميق الشامل ، مرة أخرى ، على ذلك الخيط العام الذي يؤكد وحدة واستمرارية التاريخ المصري منذ أقدم العصور حتى الآن ؟

[٤]

رواسب الفولكلور

للاجابة على السؤال المطروح في نهاية الفصل السابق يتحتم علينا أن نقفز عبر التاريخ إلى وقتنا الحاضر لأن ثمة وسيلة بسيطة للغاية يمكن أن نتحقق بواسطتها عما إذا كان خيط استمرارية مصر لا يزال متصلاً أم انه قد انقطع نهائياً واننا ازاء مصر أخرى ومصريين آخرين لا يمتون بصلة ما إلى مصريي العصور التاريخية الموغلة في القدم .

هذه الوسيلة هي البحث عما إذا كانت ثمة رواسب فولكلورية ما زالت متخلفة من العصور القديمة في العصر الحاضر والمقصود بالرواسب الفولكلورية معناها الواسع الذي يشمل العادات والتقاليد والمعتقدات والمفردات اللغوية والقصص والأساطير أو بمعنى آخر كل ما تعيه الذاكرة الشعبية من معارف ومعلومات ورواسب تمت إلى الماضي ، فنحن بهذه الوسيلة نستطيع أن نتحقق مما إذا كان هناك وعاء واحد ينتظم الذاكرة المصرية أم ان هناك انقطاعاً تاماً في تلك الذاكرة يدل على انقطاع مماثل في شخصية مصر وتاريخها على السواء ؟

لقد لاحظ كثير من الكتاب أوجه التشابه القوي بين كثير من ملامح الحياة

المصرية المعاصرة ومثيلاتها في الماضي[1] .

وأول ما يلاحظ من هذا الصدد ان السمات العامة للريف المصري المعاصر لا سيما قبل أن تمسه عصا الثورة التكنولوجية الحديثة تكاد تطابق تماماً سمات الريف المصري القديم من حيث تخطيط القرية ، وشكل المنازل ، وطريقة الحياة اليومية ، والأدوات المستعملة في البيت والحقل ، وأسلوب الزراعة .

فالمنازل في القرية المصرية الحديثة والقديمة على السواء تتكون من طابق واحد أو طابقين ، وتقام من الطوب اللبن الذي يصنع بنفس الطريقة ، وتطلى واجهتها بالجير الأبيض أو الملون ، وأمامها نفس المصطبة ولها عدة درجات تصل إلى السطح حيث تجد نفس الصوامع الطينية التي تستخدم في اشعال الفرن ، وهناك ملقفان لجلب الريح الشمالية والجنوبية في أوقات القيظ ، وهندسة المنزل الداخلية كما هي سواء بالنسبة لمنازل القادرين ذات الحديقة والحجرات المتعددة أو بيوت الفقراء التي تقتصر على غرفة واحدة يشترك في سكناها الإنسان والحيوان ، بل ان الاخصاص المقامة من الطين والبوص في الحقول تشبه مثيلاتها القديمة تماماً .

والحقول الحديثة صورة طبق الأصل كذلك من حقول الفراعنة بما تنقسم اليه من مربعات صغيرة يسهل ريها وما يستخدم فيها من أدوات الزراعة

---

(١) من هؤلاء الكتاب الذين اعتمدنا عليهم في هذا الفصل :

محرم كمال : آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية .

ولم نظير : العادات المصرية بين الامس واليوم .

أحمد رشدي صالح : الادب الشعبي .

د. أحمد عبد الحميد يوسف : مقال بالاهرام في ٢٨ / ٨ / ١٩٦٩ .

Blackman : Winifred S. , The Fellahin of Upper Egypt.

كالمحراث والفأس والشاروف والمنجل والمذراة، ومعظم طرق الزراعة والحصاد والتذرية المستخدمة اليوم هي نفسها التي كانت تستخدم منذ آلاف السنين .

وشوارع القرية قديماً وحديثاً متشابهة يمكنك أن تشاهد فيها نفس المناظر ، فالرجال يرتدون نفس الجلابيب الزرقاء . والنساء يتشحن بنفس الطرح ذات الألوان الزاهية ، والأطفال برءوسهم الحليقة إلا من خصلة أمامية تترك للزينة ، وبألعابهم الجماعية والرياضية والبهلوانية التي يمارسونها في الهواء الطلق يعيدون أيضاً صورة من الماضي السحيق كما يعيدهــا آباؤهم وهم يتخاطبون بالعصي أو يلعبون السيجة .

ويمكنك أن تشاهد أصحاب الحرف والصناعات اليدوية القدماء وقد بعثوا من مراقدهم وأخذوا يزاولون حياتهم اليومية المعتادة إذا نظرت إلى أحفـادهم اليوم وهم يعملون في حرفهم اليدوية داخـل دكاكينهم الصغيرة ذات الأبواب المفتوحة على مستوى الطريق .

والوشم الذي يزاوله كثير من الفلاحين اليـوم يرجع إلى أقدم العصور وربما إلى ما قبـل الاسرات ، ولا يزال الرجال ينقشون على جانب جباههم صورة عقاب كأثر لتقديس الصقر حورس ، والنساء ينقشن على أذقانهن علامة نفرتيتي التي ترمز للجمال .

وأدوات الفلاح المعاصر وحرفه اليدوية هي نفس الأدوات والحرف القديمة التي كانت تزاول في القرى المصرية منذ آلاف السنين ، فهـــو يصنع قوالب الطوب اللبن والأواني الفخارية بنفس الطرق والمواصفات ، ويستخدم الروث (الجلة) نفس استخدامــه القديم ، ويصنع نفس السلال والمقاطف والذكائب والأقفاص والحبال والأنوال والمغـــازل ، ويستعمل نفس المحراث والفأس

والشادوف وعروسة القمح والمذراة ، ويجفف خبزه في الشمس ، ويقيم أسواقه في الهواء الطلق .

ويقدم محرم كمال هذا التصوير الشاعري للتشابه القوي من مظاهر الريفين الحديث والقديم في كتابه « آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية » فيقول « ونحن إذا سرنا على جسور القرى نرى صفوفاً من الرجال والماشية والدواب وهي تسير في الأفق البعيد فتعيد إلى ذاكرتنا مناظر الصفوف الطويلة المشابهة المرسومة على جدران المعابد والآثار ، ومما يزيد هذه الصورة حركة وقوة حياة ما نراه يرفرف فوق رءوسنا من طيور ، فهنا نجد الآلهة المصرية القديمة «نخبت» ترفرف على شكل عقاب ، وهناك يطير الإله « حورس » على شكل صقر كبير ، وعلى مدى البصر يسير الاله « أنوبيس » على شكل ابن آوى فيختبىء في الوديان والسهول ، وعند مواطىء أقدامنا نرى « خبر » يسير متمهلاً في شكل جعل صغير ، وهناك تحت الشجرة الباسقة نرى الاله « خنوم » يرقد تحت ظلها في هيئة كبش كبير ، وهكذا في كل جانب من جنبات الوادي وسهوله نرى الحروف والعلامات الهيروغليفية تقفز بيننا ، تذهب وتجيء كأنها نقوش معبد فرعوني قديم قد عادت اليها الحياة فجأة بقوة ساحر عظيم » .

* * *

وكثير من العادات والتقاليد التي كان يمارسها المصريون القدماء لا تزال باقية إلى اليوم ولا تكاد تدخل تحت حصر ، منها مثلاً لجوء الزوجة الغاضبة إلى منزل أخيها ، وعقاب الزوجة الخائنة أو الابنة الخاطئة بالقتل ، وولع النساء بالتزين بالحلي والكحل والشعر المستعار ، والتخلص من شعر الجسد ، وحب الاكثار من الاولاد ، والتمسك بوظائف الحكومة ، والعزوف عن الهجرة ، والتوسع في الولائم والأفراح . وكذلك العادات المصاحبة للموسيقى والغناء كالتصفيق بالأكف ، والطرقعة بأطراف الأصابع ، واظهار الاعجاب بالمغني ، ووضع اليد

على الخد عند الغناء أو تجويد القرآن ، وأدوات الموسيقى كالمزمار والدفوف والصاجات ، والزواج المبكر ، وتقاليد الزواج والولادة والرضاع ، وغسل الأيدي قبل الأكل وبعده ، والتطهر بالاغتسال ، والاعتقاد في السحر وفنونه وقدرته على النفع والإيذاء والتحبيب والتفريق ، واستخدام الدمى التي تخرق بالدبابيس وتحرق بالنار ، وتقلد التمائم والأحجبة والتعاويذ ، والاعتقـــاد في الحسد وأيام السعد والنحس ، وتعليق البصل في الأعياد ، واستخدام طاسة الخضة واقامة حفلات الزار لطرد العفاريت من الجسد،وتكريم بعض المعبودات القديمة كالشمس والاشجار والقطط والثعـــابين ، وتعليق التماسيح المحنطة على أبواب المنازل ، ونحر الذبائح على عتبات المنازل الجديدة ، والوصفات الطبية والعلاج بالعقاقير القديمة كالخردل والثوم وزيت الخروع، والاعتقاد في القديسين والمشايخ المحليين ، والاحتفال بعيد وفاء النيل وليلة النقطة وشم النسيم ، وأكل الفسيخ والبيض والبصل والخس والملانة في الحدائق ، وتنـــاول الطعام على الطبلية في البيوت وصنع كعك الأطفال على هيئة أشكال آدمية ، ومضغ اللبان ، وحرق البخور ، وخضاب الشعر والأيدي والأقدام بالحنة ، وقرع الطبول والصفائح المعدنية عنـــد خسوف القمر ، وفكرة القرين الذي يطابق شكل المولود ويولد معه في نفس اللحظة والاعتقاد بوجود « الأخت » أو القرينة ، وكذلك العادات المتصلة بالحيوان مثل تزيين ثيران التضحية ، وختم الماشية بخاتم محمى بالنار ، وتعليق الأجراس والجلاجل حول رقـــاب البقر ، والاعتقاد في تقمص الأرواح للقطط ، والرفق بالطيور وتحريم اصطياد النافع منها ، وتسمين الدواجن بطريقة « التزغيط » .. كل هذه ومئات غيرهـــا عادات وتقاليد انحدرت إلى المصريين المحدثين من أجدادهم القدماء ولن تجد نظيراً لها بين الشعوب العربية الأخرى .

أما العادات المتعلقة بالحزن والوفاة فهي من أقوى العادات القديمة التصاقاً بالمصريين المعاصرين بالرغم من انها مستهجنة من الناحية الدينية ،ومن هذه العادات

البذخ في اقامة المقابر والتطرف في اظهار الحزن بالصياح والعويل وحل الشعور ولطم الخدود وشق الجيوب وتعرية النحور والاثداء وتلطيخ الرؤوس والأجسام بالنيلة والطين واستئجار النسوة المحترفات للندب والتعديد . وتدور هـذه المراسم المزعجة بينما جسد المتوفي مسجى في فراشه ، ويدخل الأهل والأصدقاء لإلقاء النظرة الأخيرة عليه [كما فعل أخناتون وزوجته نفرتيتي في لوحة شهيرة وهما يلقيان النظرة الأخيرة على جسد ابنتهما المتوفاة] ثم يكفن الموت بأثواب عديدة قد يبلغ طولها عشرات الأمتـار [في حين أن النبي كفن في بردته] وتغسل ملابسه لتخليص بقايا روحه العالقة بها ، وتصرف الروح بقراءة القرآن أو استدعاء القسس [وكانوا قديماً يستدعون الكهنة] ثم تبدأ مراسيم الجنـازة فتشترك فيها النسوة كما كن يفعلن قديماً ، وربما يسير أمامها حملة القماقم والمباخر الذين يشبهون خدم الميت وكهنته في العصور القديمة ، وعند الوصول إلى المقبرة التي تشبه في هيكلها المثلث مثيلتها القديمة يذبح حيوان وترش دمـاه على عتبة القبر [كما فعل سنوحي منـذ أربعة آلاف عام] ويثوى المتوفي في قبره بين العويل والصياح والتلاوة والإنشاد ، وأخيراً يقفل الركب عائداً حيث يمكث الرجال أمام المنزل لتقبل العزاء بينما تنفلت النسوة إلى الداخل ليواصلن عويلهن بين صديقاتهن المجاملات ، وتخلع النساء حليهن ، ويطلق الرجال ذقـونهم ، ويمتنع الجميع عن مظاهر الترف أياماً أو أسابيـع [كانت فترة الحداد تستمر سبعين يوماً في مصر القديمة وهي المدة التي تستغرقها عملية التحنيط] .

وبعد ذلك تبدأ طائفة كبيرة أخرى من العادات المتصلة بهذا الحدث الجلل كزيارة المقابر في الأعياد بالخبز والكعك والفاكهة وسعف النخيـل ، والتصدق على روح المتوفي ، وتلاوة القرآن في المقابر ، وطلب الرحمة والنـور للأموات ، ومناشدة قارىء شاهد القبر أن يقرأ الفاتحة على روح المتوفي والاعتقاد بأن

روح المتوفي تعود إلى القبر في أيام (الطلعة) لرؤية الأقارب والأحبـاب ، كل هذه العادات لها مثيلاتها الحرفية في مصر القديمة .

* * *

ليست هذه العادات والتقاليد فحسب هي ما تبقى من مخلفات مصر القديمة بل نجد إلى جانبها مجموعة ضخمة من الألفاظ المصرية القديمة لا تزال تنطق كما هي في نفس استخداماتها أحياناً وبتحريف ضئيل أحياناً أخرى لتدل بدورها على وجود استمرارية واضحة في حياة المصريين .

ومن هذه الألفاظ مجموعة من أسماء الأشخاص لا تستخدم فقط بطريقـــة واعية بفرض احياء القديم كرمسيس ومينا وتحتمس وأحمس ورامس ، وانمـا تستخدم كذلك بطريقة غير واعية وعلى نحـــو مستمر رغم نسيان معناها الأصلي ، ومن هذه الأسماء بانوب (أي عين الالة انوبيس) وباهور (عين الاله حورس) وتاييس (خادمة ايزيس) وباخـــوم (عين تمثال الاله) وبشاى (عبد الله) وآدم (اتوم) وماري (مري ألي المحبوبة) وسويرس (من ساور أي الرجل المظيم) .

ومنها كذلك أسماء الشهور القبطية القديمة التي لا تزال مستخدمة في الزراعة وتحمل نفس اسمائها وخصائصها القديمة إلى اليوم ، وهي : توت (شهر الاله تحوت) وبابه (عين أمون) هاتور (شهر صخور) كبـاك (شهر كاها كا أي اجتماع الأرواح) طـــوبة (عيد القمح) أمشير (شهر الله الريح والعواصف) برمهات (نسبة للفرعون امنحات) برمودة (شهر رنودة الهة الحصاد) بشنس (شهر بن خنسو اله القمر) بئونـــة (با أوني أي عيد جبانة وادي الملوك) أبيب (عيد الاله أبيي) مسرى (مس. را = ابن رع) .

ومنها طائفة كبيرة جـــداً من أسماء المدن والقرى التي بقيت كما هي أو

قليلا ، فمن الأسماء الباقية كما هي دون أدنى تحريف : طرة . بسيون . صهرجت . شطانوف . دفرة . طوخ . شبرا . شبراخيت . شبراريس . شبرامنت . مطاي . طهطا . قوص . كوم امبو . بلامون . باويط اسنا .

ومن أسماء الأماكن المحرفة قليلا : أثر النبي (هاتور ننوق أي معبد حتحور الذهبية) حلوان (حر. أون أي المدينة التي تعلو أون وهي عين شمس) الفرما (بر. مساعت أي معبد الالهة ماعت ربة العدل والفضيلة) رمنهور رمى . ن . هور أي مدينة الاله حور) الزقازيق (جقاجيق بالقبطية) بلبيس (بر . بيس أي معبد الاله بس اله المرح والسرور) تل بسطه (بر . بابسته أي معبد الالهة بابست القطة) أبو صير (بر.أوسير أي معبد الاله أوزير) سنهور (سا.ن.هور أي ابن الاله حورس) بهبيت (بر.هبيت أي معبد الأعياد) بنها (بنهاو بالقبطية) بولاق الدكرور (بولاق. دكرور أي جزيرة الضفادع) سقارة (نسبة للاله سكر اله الجبانة) الفيوم (بي.يوم أي الأرض المغمورة بالماء) ميدوم (بر . آتوم أي معبد الاله آتوم) اهناس (هلسو بالهيروغليفية وهناس بالقبطية) المنيا (منت أو.الميناء) اوشمونين (شمنو أي مدينه الآلهة الثمانية) ملوى (منلوى بالقبطية) أسيوط (سيوط ومعناها الحارس) اخميم (خم . مين أي مدينة الاله مين) طما (حت . طمت) دندرة (تندرر بالهيروغليفية وتنترة بالقبطية) قفط (جبتو بالهيروغليفية ومنها اسم القبط واسم مصر باللغات الأجنبية) أرمنت (بر.منت . أي بيت الاله منتو) ادفو (ادبو بالقبطية) اسوان (سوون أي السوق بالهيروغليفية) النوبة (نتوب أي أرض الذهب) .

وإلى جانب ذلك هناك تعبيرات كثيرة لا نزال نستخدمها في حياتنا اليومية وليس لها أصل عربي وانما أصلها قبطي وفرعوني ولكنها لا تزال قوية وموحية من اللغة العامية الدارجة لتدل بدورها على الاستمرارية في حياة

المصريين . من هذه التعبيرات كلمة دميرة التي لا يزال يستعملها الفلاحون إلى اليوم ومعناها فيضان النيـل وحسى أي بئر أو عين ماء ، وفيّ أي مجرى أو قناة ، وبعبع وأصلها بوبو وهو عفريت يخيف الأطفال ، وبخ أي عفريت أو شيطان ، ومم وهي موم أي طعام ، وامبو ومعناها شراب ، وننه وهي دعوة للنوم ، وتاتا ومعناها امشي ومنهـا اسم نفرتيتي وترجمته الجميلة تتهـادى ، وطظ فش وهي توس فيش أي الشيء اليابس أو المكسور الذي لا يثمر ، وابن الايه أي ابن البقرة ، ويتليس وهي مشتقة من الكلمة الفرعونية ليس أي طين ومنها لوصة أي وحل ومنها تعبير هيلا ليصا الذي يستخدمه المراكبية إلى اليوم وترجمته هيا نخرج من الوحل ، وكلمة يهيص مشتقة من مه . يص أي سرعة أو قفز بلا نتيجة ومنهـا مهيصة ومهياص وهو الرجل الكثير الحركة بلا انتاج ، وسباب جاك أوا أي جاءك الويل أو الحسرة ، وجاك طمسة أي فلتدفن لأن الطمسة هي الدفن ومنها فول مدمس أي مطموس أو مـدفون ، وبيبة هي برغوث ، وحمرأ أي غش في اللعب ، وعنتيل وهو القوي من الكلمة الفرعونية انتوري ومنها أيضاً الكلمة اليونانية قنطورس وهو حيوان قوى برأس انسان وجسد ثور ، وخن كلمـة قبطية معناها داخل ، ومشرشر أي مكسر ، ومخلخل أي مخلع ، ومحمحم أي ساخن ، ويشطف أي يغسل الملابس من الكلمة الفرعونية ايشتوفو ومنها طشت وهو آنية الغسيل ، ويشطح أي يدرك ، وخم وتستخدم للدلالة على التفضيل نتيجة للتجهيل ويقـال انا آنحميت أي فضلت شيئاً على شيء باعتباره خطأ انه الأحسن ، ونونو أي صغير ، ويولول من ويلاويلي أو ولولة وهـو النوح والبـكاء ، ويشنشن أي يرن او يطن ، وصهر اي نار أو لهيب، ونجرة أو نقرة الشمس من نج. رع أي شمس شديدة، وشأشأ من شاهشا أي سطع أو اضاء ، وبوش اي يصدر صوتاً رتيباً ، وباش اي لان أو طرى ، وبوس اي سلب او نهب ومنها راح بوش أي راح بلا ثمن ، وكوّش أي تركه

لا يملك شيئاً ، ويبشبش أي ينـدي الثرى ، وأمان وأمين هما تحريف أمون ، ورخ أي نزل المطر أو الماء ، وياما من آمـا بمعنى كثير ، وكاني ماني أي سمن وعسل أما دكان الزلباني فهو دكان البقال ، وحاتا باتا أى لحم وعظم ويقال نزل على الأكل حتتك بتتك أي لم يترك منه لحماً أو عظماً ، وليلي يا عيني أي افرحي يا عيني وقد وردت في انشودة العذراء مريم ومطلعها بالقبطية : ليـــلي أودي برتينوس اي افرحي ابنتها العذراء .

ويقدر محرم كمال عدد الكلمات الفرعونية والقبطية المستخدمة في لغتنـــا الدارجة بالمئـات ان لم يكن بالآلاف أصلاً أو اشتقاقاً أو ترجمة صرفية وهي تكثر في مجالات الحيـــاة اليومية المختلفة ولا سيما في الأعمال المزاولة من قديم والعادات القديمة المتوارثة .

* * *

يقول أحمد رشدي صالح في كتابه « الأدب الشعبي » :

« الواقع ان الأدب القبطي العامي واللغة الدارجة القبطية مـازجا الأدب العربي واللهجات العامية العربية ، واستوى من ذلك مزاج عربي قبطي ، أو قل استوى مزاج قبطي اسلامي وهذا يصدق على الشكل والمحتوى سواء بسواء ، ولو اردنا أن نشير إلى المحتوى – أي المعتقد الشعبي – أيام العهـد الإسلامي لما استطعنا إلا أن نجده مكملاً للمعتقد الشعبي الفرعوني وان كان مكملاً له في وجه جديد ، وكما أن المصريـــين أخذوا المسيحية ديناً رسمياً دون أن ينبذوا فعلاً تصوراتهم الوثنية السابقة فكذلك أقبلوا على الإسلام يعتنقونه ولا يتخلون عن تلك التصورات بل غالباً ما كانوا يذيعونها ، وما يقال عن المعتقد الشعبي يقال عن أصول المعارف الشعبية وكذلك السلوك الاجتماعي وقضايا الأخلاق وكافة ذلك الصراع المتعدد الجوانب .

ويضيف « إذا كنا نؤرخ لأدبنا الشعبي الشفاهي باستخدام العامية في مصر فالواقع ان جذوره أقدم من ذلك بكثير وانها ترجع إلى الأدب الشعبي المصرى الفرعوني القبطي في اطواره السابقة .. ومخطوطة المستشرق أويستروب التي يعتبرها البعض أقدم نص عامي مكتوب فيهـا مزيج من مفردات العاميتين القبطية الصعيدية والعربية الدارجة ، ومؤدى ذلك ان الكتبة والصناع والفنانين كانوا في المرحلة الأولى الطويلة اقباطاً مزاجاً أو اقباطاً رسمياً ودينياً.. وكذلك حدث تزاوج بين الروح الإسلامية وبين الفن القبطي ، فالزخارف الإسلامية المكونـة من الخط والنقطة كان موطنها الأول مصر ويوجد مصحف بدار الكتب المصرية يرجع إلى أوائل القرن الثاني الهجري وبه زخارف قبطية ، وهناك رق مكتبة جوتا بمدينة ميونيخ الذي يتضمن صفحة من القرآن وبه أشرطة بين السور تتضمن زخارف قبطية ، ومعظم زخـارف جلود الكتب الإسلامية الأولى بمصر بها زخارف ذات طابع قبطي والتواريخ عليها على أساس الكتابة القبطية [1] .

كما تناقلت الذاكرة الشعبية جيلا بعد جيل قصصاً وأساطير وخرافات تعود إلى مصر القديمة أو تدور حول أحداث سحيقة أو تتعلق بآثار مصرية قديمة .

وقد سجلت وينفريد بلاكمان في كتابها عن فلاحي مصر العليا بعض هذه القصص التي لا يزال يحكيها قصاصو القرية المحترفون ومنها قصة « شاه إيران وابنته والبقرة الذهبية وهي تشبه إلى حد كبير قصة منقرع وابنته والبقرة الذهبية التي سجلها هيرودوت نقلاً عن المصريين . وتقول القصة الحديثة ذات الأصل القديم ان ابنة شاه إيران الجميلة احتالت للتهرب من عزم أبيها الزواج منها بأن صنعت بقرة ذهبيـة واختبأت في جوفها ، وباع شاه إيران البقرة

---

(١) أحمد رشدي صالح : الادب الشعبي ص ٥٢ – ٥٣ .

الذهبية وهو يجهل ما فيها إلى ملك الهند الذي اكتشف أمر الفتـــاة وأحبها وقرر الزواج منها عندما تسنح الفرصة ، وحدث ان سافر ملك الهند لبعض شئونه في الخارج وطلب من أمه أن تقدم كل يوم الطعام للبقرة وتتركها وحيدة وشأنها ، ولكن بنات عمه الشريرات — وكن يطمعن في الزواج من الملك — يكتشفن أمر الفتاة ويحتلن على أم الملك حتى يأخذن البقرة ويوقدن ناراً تحتها فتخرج منها الفتاة ثم يضعن الفتاة في صندوق ويلقين بـــه في اليم فينتشله شيخ صياد يأوي الفتـــاة في أسرته ، وعندما يعود الملك ويكتشف ضياع البقرة الذهبية يصيبه الحزن البالغ، أما الفتاة فقد كانت تنسج المناديل وتعطيها للصياد الشيخ لبيعها والارتزاق منها ، وطلبت الفتاة من الصياد أن يبيع منديلاً معيناً للملك نفسه ، وعندما وصل المنديل إلى يد الملك قرأ عليه ما نقشته الفتاة عن أمرها ومكان وجودها فبعث في احضارها واجتمع شمل الحبيبين وبطش الملك ببنات عمه الشريرات [1] .

وهناك قصة شعبية أخرى تحكيها عجائز الفيوم عن مغامرات أحد الشطار وهي تماثل حرفياً القصة الفرعونية التي سجلها هيرودوت عن اللصين اللذين أسر لهما أبوهما قبل وفاته بسر الدخول إلى خزائن الملك عن طريق حجر مسحور يسهل تحريكه وحين يكتشف الملك انتقاص جواهره مـــع أن باب الخزائن مقفل واختامه سليمة يأمر بصنع فخ يوضع في حجرة الكنوز ، ويأتي اللصان كالعادة لسلب مزيد من الجواهر فيسقط أحدهما في الفخ ولكنه يطلب من أخيه أن يقطع رأسه ويأخذها معه حتى لا يتعرف عليها الملك ، وفي الصبـــاح يكتشف الملك — لحيرته الشديدة — جثة بلا رأس قد أمسك بها الفخ ، فيأمر بتعليق الجثة في السوق حتى يكتشف أحـداً من أقارب اللص إذ وجده يبكي بالقرب ، وتطلب أم اللصين من ابنها الحي أن يحضر جثة أخيه فيحتال على

---

(1) Blackman : Wingred : She Fellahin of Upper Egypt P 272 .

ذلك بأن يدفع حراس الجثة إلى احتساء كمية كبيرة من الخمر كان يحملها فوق حمير ،ويتظاهر بأنها تسيل منه على الأرض ، وعندما ينـــام الحراس من فرط السكر، يفك اللص جثة أخيه المقطوعة الرأس ويحملها عائداً إلى أمه ، وتزداد حـــيرة الملك ويقرر القبض على اللص مهما كان الثمن فيضع ابنته في ماخور ويطلب منها أن تعرف ممن يتردد عليها أبرع واخبث ما فعل في حياته ، وأن تمسك على الفور بمن يخبرها بهاتين المغامرتين ، ويحضر اللص اثناء الليل ويقص على ابنة الملك مغامراته وعندما تهم بالامساك به يضع في يدها كفاً مقطوعة كان قد أحضرها معه لهذا الغرض ، ويتسلل هارباً تحت جنح الظلام ، وهنا تزداد دهشة الملك واعجابه باللص الشاطر فيعلق العفو عنه ويزوجه من ابنته [١] .

وتدل هاتان الحكايتان – وربما هناك كثيرات غيرهـــا – على أن ذاكرة الشعب المصري تحتفظ بحكايات فرعونية قديمة لا تكاد تفقد تفاصيلها القديمة رغم مضي آلاف السنين ، وهذا دليل على أنها ذاكرة تضرب في أعماق الماضي البعيد وان التراث القديم يتناقل شفاهة عبر الأجيال [٢] .

أما الأساطير والخرافات التي تدور حول مصر القديمة وآثارها العجيبة ولا يزال يتناقلها المصريون إلى اليوم فهي كثيرة ومتواترة ، وقد أورد بعضها محرم كال في كتابه « آثار الفراعنة في حياتنا الحالية » .

فهناك اسطورة « الذهبية العجيبة » التي يحكيها أهل الاقصر ويزعمون فيها

---

(١) هذه القصة أوردها شوقي عبد الحكيم في الملحق الادبي لصحيفة الاخبار ١٩٦٩/٦/٢٩ وعقد مقارنة بينها وبين قصة هيرودوث تدل على التشابه المطلق بينهما .

(٢) راجع أيضاً د. لويس عوض : اسطورة أوريست والملاحم العربية وفيها يثبت ان ملحمة الزير سالم تحمل آثار اسطورة ايزيس واوزيريس .

ان سفينة ذهبية تظهر في بعض الليالي القمرية على سطح البحيرة المجاورة لاطلال معبد الكرنك وعليها ملك من الذهب الخالص يحف به بجارة من الفضة ، وتشق طريقها على سطح البحيرة مخلفة وراءها ذيلاً من الاحجار الكريمة ، والسعيد من يصادف هذه السفينة ويتتبعها في صمت وهدوء حتى ترسو إلى الشاطىء فيقفز اليها في غفلة من قائدها ويغترف من كنوزها ما يشاء ، أما إذا أبدى حركة أو صوتاً يجعل ركاب السفينة يفطنون إلى وجوده فسوف تضيع فرصته النادرة إذ تختفي السفينة الذهبيه فوراً تحت سطح الماء .

فهذه الاسطورة اثر باق من الاحتفال بعيد الاله آمون على صفحة البحيرة المقدسة المجاورة لمعبده حين كان الكهنة يحملون تمثال آمون المصنوع من الذهب الخالص ويخرجون به من قدس الأقداس حيث يضعونه في السفينة المقدسة التي يركب فيها أيضاً الملك وكبار حاشيته وكهنته ، ويقومون بجولة في أنحاء البحيرة المقدسة بين الترتيل والانشاد .

ونفس الاحتفال القديم بآمون يكاد يتكرر كل عام بتفاصيله حتى الآن وذلك في الاحتفال بمولد أبي الحجاج الولي الإسلامي حامي الأقصر والمتخذ مقامه بين أطلال معبد الأقصر ، إذ يوجد في هذا المقام قارب أو سفينة صغيرة يحمله الناس على اكتافهم في عيد أبي الحجاج الذي يوافق ليلة النصف من شهر شعبان المكرم ويطوفون به في عربة ذات عجلات في انحاء الأقصر ، فالرموز الحديثة المستخدمة في الاحتفال بأبي الحجاج توحي بالرموز القديمة المستخدمة في الاحتفال بآمون كالقارب المقدس والقيام بجولة في المدينة ، والاحتفال الشعبي وما يتخلله من غناء ورقص وعبث وشراب ، وإذا لاحظنا أن في مصر مئات بل آلاف من الأولياء المحليين ولكن لا يحتفل بهم نفس احتفال أبي الحجاج ولا تعد لهم زوارق كزورقه أو تقام لهم مواكب كموكبه قوي الدليل على أن احتفال أهل الأقصر بأبي الحجاج استمرار لاحتفال أهل طيبة بآمون ، وفي بعض نقوش

جدران معبد الأقصر ما زلنـــا نرى كيف كان يحتفل بمهرجان الاله آمون في الماضي فقد كان الكهنة يحملون تمثاله في قارب صغير على اكتافهم ثم يضعونه في السفينة المقدسة الكبيرة الراسية أمـــام المعبد حيث تنقله إلى معبد الكرنك وبحيرته المقدسة ، ويشارك في المهرجـان النبلاء والجنود وقد رفعوا الأعلام والبنود ، والناس من حولهم يبتهجون ويرقصون بينما يعرض اللاعبون والمهرجون ألعابهم وفنونهم ويعزف الموسيقيون على آلاتهم .. وجميعها مناظر تكاد تتكرر حرفياً في مهرجان أبي الحجاج إلى اليوم .

وعلى مقربة من معبد الكرنك يوجد معبد قديم للاله بتاح اشتهر بين سكان الأقصر بأنه مقر غولة فظيعة تفترس الأطفال ، وتأكد لديهم هـــذا الاعتقاد المجهول المصدر عندما انهار جرف اثناء بعض أعمال التنقيب بالقرب من المعبد ودفن تحته سبعة أطفال صغار لم تظهر جثثهم أو عظامهم بعد ذلك على الاطلاق، وكان الأهالي لشدة اعتقادهم في صحة خرافة الغولة يتحاشون المرور بهذا المكان قـدر امكانهم فإذا اضطروا إلى ذلك اعترتهم رعشة الخوف وتمتموا بالتعاويذ ، وظل أصل هذا الاعتقاد مجهولاً حتى كشفت الحفريات الحديثة عن تمثال هائل للالهة سخمت ذات رأس اللبؤة والسحنة البشعة داخل ذلك المعبد . وسخمت هي التي وكل اليها رع في الاسطورة القديمة مهمة افناء الجنس البشري عندمـا ازداد فساداً وشروراً فأغرقت سخمت البلاد في الدماء وأعملت في الناس القتل والفتك ، ولذلك ظلت مرهوبة إلى الآن كما أظهرت أسطورة الغولة قاتـــلة الأطفال، ولك أن تتصور مدى الرعب الذي عقد ألسنة عمال الحفائر الأقصريين وهم يخرجون تمثال الغولة « سخمت » من تحت أطباق الثرى .

وفي قفط كانوا يرددون اسطورة أثبتهـا المقريزي في خططه تتلخص في أن المعبد الفرعوني المقـــام في هذه البلدة تتولى حراسته فتاة سوداء تحمل على ذراعيها طفلاً صغيراً أسود مثلها ، وترى هذه الفتاة في الليـــالي القمرية ترتاد جنبات المعبد وفنائه حاملة طفلها .. هذه الفتـــاة الاسطورية ليست في الحقيقة

سوى ايزيس تحمل طفلها الرضيع حورس إذ ان قفط وهي كبتوس القديمة كانت محلاً لعبادة الربة ايزيس وفيها معبدها .

أما أهالي دندرهفيرددون اسطورة اخرى عن المعبد الفرعوني هناك تتلخص في أن احد الملوك القدماء أودع أمواله وذخائره في نفق داخل هذا المعبد وأقام على حراسته بقرة عظيمة لا تزال ترى إلى اليوم وهي تتنقل في أرجاء المعبد اثناء الليل لتراقب كنزها المخبوء ، ورغبة في سبك الاسطورة يضيفون ان فلاحاً معيناً – يحددون اسمه – استطاع أن يغافل البقرة وينتهب بعضاً من هذا الكنز ولكنه لم يستفد بما أخذه إذ غاص في أرض بيته ولم تستطع يداه أن تصل اليه ، ولكن بغض النظر عن هذه التفاصيل يمكننا أن نرى بوضوح ان هذه البقرة الاسطورية ليست أيضاً إلا ظل البقرة المقدسة حتحور التي اقيم معبد دندرة مركزاً لعبادتها وترى مرسومة على جدرانه .

وفي بلدة أتريب وكانت قديماً مركزاً لعبادة الصقر حورس توجد أسطورة مماثلة أوردها المقريزي أيضاً عن حمامة بيضاء تحوم فترة من الزمن حول مذبح أحد الأديرة القديمة في يوم معين من السنة .. هذه الحمامة ليست سوى الصقر حورس .

ونفس الخرافة تتكرر عن معبد خنسو بالكرنك والبوابة البطلسية الضخمة المقامة أمامه ، إذ يقال ان قزماً مخيفاً يعيش فوق البوابة ذا خلقة مشوهة وقامة قصيرة ممتلئة وله وجه عريض وعينان براقتان وأنف افطس ولسان متدل وذراعان طويلان تصلان إلى الأرض ، والأهالي يرهبونه بشدة ويتجنبون المرور بالقرب من البوابة ليلا لأن هذا القزم إذا اهتاج أخذ يرسل صياحاً مخيفاً ويصب شروره على الجميع من أناس وحيوان. هذا القزم ويسمونه « عيط الله » ما هو إلا صورة طبق الأصل للمعبود المصري القديم « بس » ذي اللسان المتدلي

والذي أقيمت البوابة تكريماً له ، وقد ظلت ذكراه عالقة بأذهان الناس آلاف السنين بعد أن نسوا كل شيء عن أصله .

* * *

إلى جانب مثل هذه الرواسب الفولكلورية المتنوعة المتخلفة عـــن العصور المصرية القديمة نجد أيضاً ان المصريين المحدثين يحملون الواناً من الفنون والمهارات توارثوها جيلاً بعد جيل عن أجدادهم الفراعنة .

يقول ادولف ارمـــان ان أغاني الفلاحين والمراكبية التي تتردد اليوم بـــين الحقول الخضر وعلى صفحة النيـــل كان يرددها من قديم الزمان فلاحو مصر الفرعونية وملاحوها ، ويكفي دليلاً على ذلك ان الموال المصري بمعانيه والحانه يعتبر نسيج وحـــده في العالم العربي ، فمن أين جاءته هذه الخاصية ان لم تكن ميراثاً تتناقله الأجيال ؟ ويقول أدولف ارمان : ولست أدري مـــا إذا كانت الشغشغة الأنفية المغنية التي تصاحب هذه المواويل والالحـــان هي أيضاً ميراث من العصور القديمة ، ولكن من المؤكد ان حالة البهجة التي تصاحب الغناء هي نفس ما كانت عليه في الماضي [١] .

ومن الوان المهارات القديمة التي نجدها في المصريين المحدثين تلك المقدرة غير العادية على تحريك الأشياء الثقيلة وحملها باليسير من العون الآلي ، وتظهر هـــذه المقدرة بوضوح في عمال البناء والتنقيب عن الآثار رغم اعتلال صحتهم وضعف بنيتهم . يحكي عالم الآثار المرحوم محمد زكريا غنيم [٢] أن صديقاً انجليزياً أخبره كيف كان يراقب في دهشة وفزع محاولة نفر من الأحـــداث المصريين الأقوياء الذين يرتدون الجلابيب نقل تمثال هائل من الجرانيت في متحف الآثار المصرية ،

---

(1) Adolf Erman : The Literature of ancient Egyptions P. XXVIII

(٢) محمد زكريا غنيم : الهرم الدفين ص ٦٤ .

كان هذا التمثال تبلغ زنته مائة طن أو اكثر ولكن الغلمـان المصريين تـكالبوا على التمثال بأدواتهم البسيطة التي لا تعدو قطعاً من الحديد والخشب والحبـال ومع صيحاتهم وتنهداتهم تأرجح التمثال بينهم وبدأ يتحرك معهم . كان هـذا فناً قديماً جاء من السلف ، وهـل يعجز أحفاد من حملوا صخور الأهرام على اكتافهم العارية عن زحزحة تمثال ؟!

* * *

يقول الدكتور حسين مؤنس [1] « ولعل بلداً من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فان مصر التي ولدت منذ نحو خمسة آلاف سنة لا زالت هي بعينها اليوم لم يتغير فيهـا الدين على طول هذه الاحقاب إلا مرتين ولم تتغير اللغة إلا مرتين أيضاً على حين أن بريطانيا مثـلاً لا يبعد تاريخها إلى أبعد من الفي سنة تغير الدين خلالها مرتين واللغـة أربع مرات على الأقـل ، واسبانيا يرجع تاريخها إلى الفين وخمسمائة سنة تغير الدين خلالها ثمان مرات واللغة ست مرات ، أما جنسنا فلم يتغير في جملته خلال هذه الأعصر إلا تغيرات طفيفة في حين أن بلداً كايطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغييراً هاماً اكثر من مرة ونتيجة ذلك ان طبيعة الحيـاة في مصر وجوهرها لم يختلفا كثيراً رغم هذه الاحقاب المتطاولة بـل ان العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة كما هي اليوم أيام الفراعنة » .

ويفسر الدكتور جمال حمـدان سبب هذه الاستمرارية بسيطرة ظروف طبيعية معينة على حياة مصر في مختلف العصور ، فهذه الظروف ترسم خطط ادارة البلاد واستغلال مواردها على نحو واحد تقريباً ، ولذلك فان أعمال أي من الفراعنة أو السلاطين أو الحكام تتكرر فيما عدا الأسماء والتواريخ ، ونمط

---

(١) د. حسين مؤنس : مصر ورسالتها ص ١٢٢ – ١٢٣ .

الحياة والزراعة تمثل وحدة الحياة على ضفاف النيل [1] .

وقد لاحظ المؤرخ العالمي أرنولدتوينبي نفس هذه الملاحظة في مقارنة عقدها بين محمد علي الكبير حاكم مصر وبين بطرس الأكبر حاكم روسيا ، وأشاد فيها باهتمام الأول بالزراعة وهاجم اهمال الثاني لها ، غير أنه لم يلبث ان استدرك قائلاً ان ظروف مصر الطبيعية هي التي دفعت محمد علي إلى الاهتمام بالزراعة ولو كان الرجلان قد استبدلا مركزيهما لكان بطرس الأكبر — كحاكم لمصر — قد أبدى نفس الاهتمام بالزراعة ، وكان محمد علي - كحاكم لروسيا — قد أهملها !

ونفس ذلك يقال عن الحكم المركزي الذي كان نتاجاً للبيئة الطبيعية المصرية ، فقد أدت ظروف مصر الطبيعية إلى قيام دولة مركزية في وادي النيل طيلة خمسة آلاف سنة ولم ينفرط عقد وحدتها القومية إلا في فترات استثنائية نادرة وقصيرة للغاية خلال هذا الزمن الطويل .

(١) جمال حمدان : شخصية مصر (الكبير) ص ٤٧٨ .

[٥]

الاستمرارية الجنسية

رأينا في الفصل السابق دليلاً على استمرارية الشعب المصري في بقاء ذخيرة كبيرة من الرواسب الفولكلورية التي نجحت في تحدي الزمن حتى الوقت الحاضر. وقد جاءت الابحاث الانثربولوجية الحديثة لتؤكد وجــود استمرارية نسبية ولكنها واضحة ، للشعب المصري .

ولكن ينبغي التنبيه منذ البداية إلى ان ذلك ليس معناه أن الشعب المصري جنس مغلق على ذاته ، فلا وجود للاجناس النقية إلا في مخيلة دعاة الفلسفات العنصرية ، والمصريون أولا وأخيراً ومنذ أقدم العصور حتى الآن جزء من المحيط البشري الموجود لهم ، وهو المحيط الذي يضم سلالات البحر المتوسط ومــن أبرزها العنصر العربي السامي ، وكان المصريون يتفاعلون باستمرار مع هذا المحيط ، ولكن المقصود بالتحديد عند الحديث عن الاستمرارية الجنسية وجـود انتماء مباشر بين غالبية المصريين المحدثين وبين أجدادهم القدامى الذين أقامـوا صرح الحضارة الفرعونية على ضفاف النيل .

وكثيراً ما تختلف الآراء في تحديد أصل المصريين القدماء فالبعض يرى انهم من الجنس السامي ، وآخرون يرجحون الأصل الحامي أو اللوبي . وثمــة آراء

أخرى تتضارب في نسبة المصريين الى مختلف الأجناس ابتداء من أقصى الشرق الآسيوي إلى أقصى الغرب الأوروبي ، بل ان بعض علماء الأجناس يقارنون بين المصريين القدامى وسكان أمريكا الجنوبية الأصليين الذين نزحوا اليها من شمال شرقي آسيا عبر ممر بهرنج . والرحالة دينون الذي زار مصر عام ١٧١٠ يقول أن المصريين من أصل أوربي موغل في القدم ، والواقع كما يقول عالم الأجناس الطبيب اليوت سميث انه ليس هناك مكان في العالم لم يدع عنه كاتب أو آخر انه مصدر قدماء المصريين(١).

غير انه من المؤكد ان السلالة التي عمرت مصر في مطلع عهد الاسرات ترجع اصولها في وادي النيل الى عهد يسبق ذلك ببضعة آلاف من السنين ، وانها استقرت فيه خلال العصر الحجري الحديث واشتغلت بالزراعة وتربية الحيوان، وهذه السلالة تنتمي الى سلالات البحر المتوسط التي تتميز باستطالة الرأس واعتدال القامة(٢).

وقد استقرت الآن معظم الآراء على ان الطراز المصري الأصيل يرتبط بأوثق أواصر النسب والتقاليد المشتركة مع سكان ساحل شرق أفريقيا جنوباً إلى مضيق باب المندب من جانب وسكان ساحل أفريقيا الشمالي من جانب آخر ، وان التأثير العربي أو السامي من شبه الجزيرة العربية لم ينقطع عن مصر في مختلف العصور وبخاصة في العصور الموغلة في القدم قبل عهد الاسرات . وجاء هذا التأثير عن طريق شبه جزيرة سيناء أو باب المندب أو وادي الحمامات في بعض الآراء أو عن طريقها جميعاً في آراء أخرى .

---

1) Elliot Smith : The ancient Egyptions and the Origin of Civilization P. 40.

(٢) د. سليمان حزين: تاريخ الحضارة المصرية جـ ١ فصل البيئة والانسان والحضارة في وادي النيل ص ٢٨ – ٣٠ .

ويذهب اليوت سميث الى ان العرب الاصلاء والمصريين القدماء يمتـون إلى أصل مشترك واحد كان يسكن كل المنطقة التي يفصلها البحر الاحمر ثم انفرد كل منها بخصائص معينة من حيث التركيب الجنسي والعـــادات والمعتقدات وذلك قبل زمن طويل من بداية التاريخ المكتوب ثم لم ينقطع هذا التأثيرالعربي في مصر على مدى ستين قرناً غير انه لا سبيل الى تقدير حجم هذا التأثيرومداه تقديراً أقرب إلى الصحة واليقين(١).

ومن المؤرخين الذين يرجحون الأصل السامي او العربي للمصريين برستيد وما سبيرو وارمان وهرمان‌رانكه‌وحسن كمال وأحمد كمال وفيليب حتي‌وجرجي زيدان وسليم حسن ، وذلك على خلافات يسيرة بينهم حول مــدى الاختلاط بأجناس أخرى كاللوبيين والحاميين والجالا والصومال (٢).

والمؤكد علمياً ان التأثير السامي أو العربي بلغ أقصى مداه في عصر ما قبل الأسرات ، ومنذ بداية العصور التاريخية استقر النمط المصري ولم تطرأ عليــه بعد ذلك تغييرات‌جوهرية بالرغم من عدم انقطاع الهجرات‌والغزوات‌والعلاقات المختلفة بين مصر والشرق السامي ولا سيا في أعقاب الفتح العربي الاسلامي .

ويقول الدكتور سليمان حزين انه على الرغم من الغزوات التي تعرضت لهـــا مصر في العصور الفرعونية فقد احتفظ المصريون بصفاتهم الجسمية التي ربطتهم منذ عصور ما قبل التاريخ بسكان غرب آسيا الذي أصبح يعرف فيما بعدبالشرق العربي ، وحتى عندما جاء العهد الاغريقي ونزحت العناصر الاغريقية إلى‌شمال مصر وغربها بقي أثر الاغريق محصوراً في نطاق ضيق ولم يلبث أن تحلل في كتلة السكان الأصليين ولم يغير شيئاً من الصفة العامة للسكان ، وبعد الفتح الاسلامي

(١) اليوت سميث : المرجع السابق ص ١٠١ .

(٢) محمد عزة دروزة : عروبة مصر قبل الاسلام وبعده .

نزحت إلى وادي النيـــل الادنى عناصر جديدة من القبائل العربية ولكن لم يترتب عليها تغيير التكوين العام للمصريين لأن هذه العناصر الجديـــدة كانت متشابهة في صنعاتها العامة مع سكان مصر، ولأن صلات السلالة والدم بين وادي النيل الأدنى وشمال الجزيرة العربية صلات وثيقة وقديمة ، ومـا حدث بهجرة القبائل العربية بعد الفتح الاسلامي إنما كان تسجيلا وإبرازاً لما هناك من صلات بين المصريين والعرب سبقت التاريخ المكتوب ولكن زادتها مسحة الثقافة العربية والاسلامية المشتركة ظهـوراً وتوكيداً ، وعندما حل الاتراك محل العرب في حكم مصر توقف تيار الهجرة العربي ولكن التيار التركي اقتصر في الغالب على امداد مصر بطبقة الحكام والجنود وهم قلائل بالنسبة لتعداد المصريين وبالنسبة للهجرات العربية السابقة على السواء ، ولذلك ظل تيار النمط التركي وهـــو يختلف عن النمط المصري العربي من حيث استدارة الرأس وشكل الأنف ولون البشرة وبنية الجسم ضعيف التأثير في كيان المصريين الجنسي ، وبقي محصوراً في مناطق وطبقات خاصة مـــن السكان ، وكان عديم الأثر تماماً في البيئـة الريفية[٢] .

* * *

ويمكن هنا أن نورد بعض مقتبسات من أقوال العلماء تشير إلى وجـــود استمرارية جنسية للمصريين منذ أقدم العصور إلى اليوم الأمر الذي يستقيم معه القول حقيقة لا مجازاً بأن المصريين الحاليين هم أحفاد أجدادهم الفراعنة الذين أقاموا على ضفاف النيل أعرق وأعظم حضارة عرفتها البشرية في فجريقظتها.

يقول أدولف ارمـان وهرمان رانكة « في مصر وحدها دون غيرهـــا

---

(١) د . سليمان حزين : المرجع السابق .

نستطيع أن نرى نفس الناس طوال خمسة آلاف سنة : لم تتغير فيها اللغة إلا مرة واحدة، وتغيرت فيها الديانة مرتين وجنسية الطبقة الحاكمة عدة مرات، ولكن الظروف الطبيعية للحياة بقيت ثابتة لا تتغير ، وهذا لم يحدث في التاريخ إلا فيما يتعلق بالشعب المصري ».

ويضيف المؤلفان « لا يزال الشعب الذي سكن مصر القديمة يعيش بروحه الآن في السكان الحاليين لهذه البلاد ، لقد غيرت تقلبات التاريخ لغـــة البلاد ودينها ، ولكنها لم تستطع أن تغير من مظهر هذا الشعب القديم .. ان مئات الآلاف من اليونان والعرب الذين استقروا في البلاد لم يحدثوا فيها أثراً لان هذه البلاد قـد امتصتهم ، وقد يكون من المحتمل انهم تمكنوا من احـداث أثر في المدن الكبيرة التي استقروا فيها مجتمعين ، ولكنهم في سائر البلاد — وبخاصـة في الوجه القبلي — لم يحدثوا إلا أثراً ضئيلاً جداً .. فالفلاح الحالي لا يزال يشبه أجداده الذين عاشوا منذ خمسة آلاف سنة تمام الشبه مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالي قد أصبح يتكلم اللغة العربية ويدين بالاسلام أو المسيحية ، والذي يتجول الآن في قرية مصرية من قرى الوجه القبلي يستطيع أن يرى أشكالاً من الناس يخيل للمرء أنها خرجت لساعتها من الرسوم والصور التى تغص بها المقابر المصرية القديمة [1]».

ونفس هذه الحقيقة يؤكدها الأب دريوتون بقوله « يتحتم الاعتراف بأنـــه يوجد في مصر منذ الدولة القديمة طابـع مصري خاص ظل برغم الغزوات التي حدثت فيما بعد على دفعات متعددة حافظاً لكيانه إلى نهاية العصر الفرعوني بل وما يزال يعثر عليه إلى يومنا هذا »[2].

---

(١) مصر والحياة المصرية في العصور القديمـــة ترجمة د . عبد المنعم ابو بكر ومحرم كمال ص ١

(٢) ابتيين دريوتون وجاك فانديه : مصر تعريب عباس بيومي ص ٤

كما يؤكدها برودريك بقوله « من الواضح طوال الستة آلاف سنة الأخيرة أو يزيد انه لم يكن هناك أي تغيير ملحوظ في مظهر جمهرة المصريين، فالبدرايون وأهل نقارة ومصريو الأسرات الأولى والفلاحون الذين نراهم يعملون في الحقول اليوم كلهم من نفس النمط القاعدي المتوسطى »[1] .

ويلاحظ كون «ان التغيرات التي لحقت النمط الجنسي في أي جزء من أوروبا خلال السنوات الخمسمائة الأخيرة كانت اكبر منها في مصر خلال خمسة آلاف سنة »[2].

ويقول البوت سميث « منذ ١٣ قرناً اكتسبت مصر اللغة العربية والدين الاسلامي دون أن تخضع لأي تغيير ملحوظ في الصفات البدنية لشعبها »[3].

ويقول جان يويت : ان الرجال المصورين في جبانة منف وفلاحي اليوم يشكلون في مجموعهم نموذجاً بشرياً مشتركاً ومن ثم يحق لنا أن نتحدث عن وجود سلالة مصرية متميزة : القامة متوسطة، والجسم قوى ، والانف عريض مستقيم والشفتان غليظتان ، والشعر مجعد أسود ، والبشرة تختلف درجة سمرتها باختلاف خط العرض ، ولم يتغير أصل السلالة المصرية تغيراً ملموساً بفعل الهجرات التاريخية من الهكسوس الساميين الى الاغريق والعرب الى استجلاب أسرى الزنوج والليبيين والآسيويين في الدولة الحديثة على ضفاف النيل ثم إقامة الحاميات الأجنبية ايام الفرس »[4].

ويقول الدكتور جمـــال حمدان « منذ فجر التاريخ يبرز الشعب المصري

---

(١) د. جمال حمدان : شخصية مصر ص ١٤٨

(٢) نفس المرجع ص ٢٨

(٣) نفس المرجع ص ٣٠

(٤) جان يويت : مصر الفرعونية ترجمة سعد زهران ص ٢٥ .

كوحدة جنسية واحدة الأصل متجانسة بقوة في الصفات والملامح الجسمية ، وقد ظل محافظاً على هذا التجانس حتى اليـــوم دون ان تحدث اي ابتعادات ملموسة عن النمط الأول أو تتنافر معه تخصصات محلية ضيقة . والواقع أن من أطرف الحقائق الانثربولوجية بقـــاء أو ثبات النمط المصري عبر العصور Persistence فـــلم يكد يتحرك منذ آلاف السنين حتى أن ثمة من التماثيل الفرعونية منعصر الاهرامات حين كشفت في القرنالماضي ما تعرف الفلاحون وعمال الحفائر على بعضه كشبيه وممثل لبعض أفراد من بينهم »[1].

ويضيف الدكتور جمال حمدان ان « مصر لم تكن حصاناً تغير عليه عدد من المسافرين أثناء الرحلة أو عدد من الركاب أثناء سباق التتابع ، وإنما استمر راكبه – المصري القديم والمعاصر – هو الأول والأخير والوحيد طوال الرحلة دون أن يتغير ، وقصارى ما تغير فيه رداؤه ولونه وجلده ربما »

ويعزى الدكتور جمال حمدان ظاهرة الاستمرارية الجنسية والثبات النسبي الجنسي في مصر إلى قدرة مصر الخارقة على تمصير الواردين اليها ، ويشرح قوة التمصير هذه قائلا « في مواجهة الغزو الخارجي كانت مصر تمارس « الغزو من الداخل » بمعنى انها كانت تتمتع بقوة امتصاص نادرة وحيوية بيولوجية تبتلع وتهضم بها معظم العناصر الوافدة حتى تعهدها كأنها البوتقة في الجسم الكبير ، وهكذا كانت العناصر الوافدة تحتوى وتمصر في النهاية دموياً وحضارياً ، وبدلاً من أن يفرضوا شخصيتهم الجنسية على مصر كانت هي التي تفرض شخصيتهـــا عليهم ومن مصادر هذه الحيوية أن مصر لم تعرف بصفة عامة الحاجز اللوني أو الحضاري القوي ولا التمييز العنصري ، ومن ثم فقد كانت تمثل وحدة كبرى من التزاوج الداخلي على المستوى الاقليمي، وبهذا كانت مصر تتجدد بمقدار بواسطة

(١) د . جمال حمدان : شخصية مصر (الكبير) ص ٤٨ .

الهجرات والعناصر الداخلة ، وتكتسب عروقها دماء جديدة مهما كانت كميتها ضئيلة محدودة ، وتلك ظاهرة صحية ومفيدة ومنشطة للبنية البشرية للسكان ، لذلك يمكن أن يقال ان مصر لم تكن مقبرة للغزاة بالمعنى السياسي فحسب بل وبالمعنى الجنسي أيضاً »[١].

وفكرة قوة التمصير البيولوجي تحدث عنها كتاب كثيرون من قبل ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل الذي استعرض في مقدمة كتابه « تراجم مصرية وغربية » تاريخ الغزوات الأجنبية التي تعرضت لها مصر مثبتاً أن الأجانب تمصروا واندمجوا في الشعب المصري وهضمتهم مصر ولم تعد تفرق بينهم وبين باقي بنيها ، ويطبق الدكتور هيكل نظريته على الفتح العربي لمصر ويعلل بها انتفاض مصر على السلطة العربية الراشدية والأموية والعباسية المركزية ثم نيلها استقلالها منذ أيام الطولونيين ثم تسنمها المكانة الأولى بين الأمم الاسلامية واسهامها في التراث العربي العلمي والأدبي[٢] .

* * *

الفلاح المصري اذن من اكثر العناصر ثباتاً واستمراراً في قصة مصر ، ولم يعد هذا فرضاًنظرياً وإنماحقيقة علمية أثبتتها الدراسات التاريخية والانثربولوجية والفلكلورية، ولقد بدأت قصة الفلاح المصري مع فجر الحضارة في وادي النيل منذ ستة أو سبعة آلاف سنة واستمرت حتى الآن دون أن تنقطع تحت وطأة التغيرات الكبرى التي طرأت على مصر خلال تاريخها الطويل وأهمها انهيار

---

(١) المرجع السابق : ٥٧

(٢) انيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ص ٢٠٧ وفيه يشير الى تراجم مصرية وغربية ص ١٠ - ٢٩ .

الحضارة الفرعونية وضياع استقلال مصر السياسي ، ودخولها في كنف الحضارة العربية الاسلامية وأخيراً انفتاحها على حضارة العصر الحديث ، فكل هذه التغيرات الكبرى لم تؤثر كثيراً في التكوين الجنسي والنفسي للفلاحين المصريين، ولم تؤثر اطلاقاً في استمرارية حياتهم ، ولا ينبغي بالتالي أن تحول دون محاولة تقييم دورهم الحضاري المتصل .

لقد لعب الفلاح المصري دوراً أساسياً في قصة الحضارة المصرية ، انه يعتبر في الحقيقة خالق هذه الحضارة الاول وينبغي أن يسجل له هذا الدور بالعرفان والتقدير بالرغم مما وصلت اليه حالته اليوم من تدهور وتخلف حتى أصبح – للأسف – من أكثر العناصر البشرية تخلفاً في العالم !

فالحضارة المصرية القديمة كانت حضارة زراعية عناصرها الأرض والنيل والمناخ . ولكن الانسان هو الذي مزج بين هذه العناصر بحيث يمكن اعتباره هو نفسه بعداً رابعاً في هذا الثالوث الحضاري بل هو في الواقع أكثر العناصر إيجابية . فالفلاح المصري هو الذي أرسى أسس الحضارة الفرعونية العريقة وهو الذي تعهدها بعمله وإنتاجه خلال عشرات القرون ، واليه يرجع الفضل المباشر في كل المنجزات العظيمة التي ذخرت بها تلك الحضارة .

فمثلا .. نظام التقويم الشمسي الذي يسير عليه العالم بتعديلات طفيفة حتى الآن بدأ وضعه في مصر قبل الالف الرابع قبل الميلاد[١] ولا شك انه وضع في بيئة زراعية ، فهو جهد يمزج بين الارض والسماء .. بين أطوار الزراعة وحركة الشمس والنجوم ، وإذا كان كهنة رع هم الذين اكتشفوا سر هذا التقويم بادمان النظر في صفحة السماء فلا شك أن هؤلاء الكهنة أنفسهم ليسوا سوى فلاحين تخصصوا في هذا النوع من المعرفة وأوقفوا حياتهم على هذا الضرب من الملاحظة،

(١) راجع ما سبق في الفصل الاول .

ولم يكن جهدهم منعزلاً عن بيئتهم الزراعية وواقعهم المصري بـل انهم وضعوا علمهم في خدمة بني جلدتهم من الفلاحين الذين يكدحون في الأرض ويشعرون بحاجة ملحة الى مقياس زمني يحدد لهم مواسم الزراعة ويضبط مواعيدها من بذر وري وحصاد وأعياد .

ولنضرب مثلاً آخر .. العقائد والاساطير الدينية التي لعبت دوراً أساسياً في صياغة الفكر المصري القـديم وقام عليها صرح الحضارة الفرعونيـة نشأت كذلك في بيئة فلاحية أي أن واضعيها ليسوا إلا مفكرين من الفلاحين. ولنأخذ مثلا اسطورة إيزيس وأوزيريس ذات المكانة الرئيسية في الفكر المصري والعالمي القديم نجد انها نتاج مخيلة فلاحين وعناصرها الأساسية مستمدة من واقعهـم ، فاوزيريس هو رب الخصب والنماء الذي علم المصريين أصول الزراعة ومبادىء الحضارة ، وغريمه ست هو رب القحط والجدب والصحراء ، والصراع بينهـما يعكس التناقض بين الخصب والبور كما يعكس نظرة الفلاحين البسطاء الى الخير والشر ووجوب انتصار الخير في النهاية كما ينتصر الأخضر على اليابس .

وكثير من النظم الاقتصادية والتشريعية والمعايـيـر الاخلاقية والآداب والفنون وباختصار معظـم مظاهر الحضارة في مصر القديمة من نتاج البيئـة الزراعية أي من وضع الفلاحين المصريين سواء نتيجة لعبقريتهم الجماعية أو الفرديـة .

والريف هو الذي أمد مصر بمعظم أو كل كهنتها ومهندسيها واطبائها وفنانيها ومثقفيها ، فقد كان الريف المصري قديماً مثلما هو اليوم المورد الذي يمد المدينة بقوتها البشرية ، وإذا كانت العادة قد جرت على نسبة الحضارة المصرية القديمة إلى الفراعنة وليس الفلاحين فما ذلك إلا من باب التبسيط ، فالفلاح المصري هو الذي شاد بفكره ويديه كل هذه المنجزات العظيمة التي تثير أطلالها اعجابنا اليوم ، كان هو المهندس والكاهن والصانع والعامل ، ان أروع التماثيـل التي

تخلد الملوك كآلهة ، وأرق الحلي التي كانت تزين نحور الملكات والاميرات ، وأجمل الصناديق والتوابيت والأثاث والثياب التي كانت تذخر بها مقابر النبلاء وقصورهم إنما هي نتاج ايدي صناع مهرة من الفلاحين البسطاء .

وإذا كان هذا هو حال الفلاح المصري في عصر ازدهار الحضارة الفرعونية فلا بد انه كان شخصية متفتحة يشارك في كافة مظاهر المدنية من حولـــه ولم يكن محصوراً في العمل اليدوي الزراعي مع أن هـــذا العمل في حد ذاته كان أساس حضارة العصر .

وقصة « الفلاح الفصيح » التي ترجع إلى العهد الاهناسي(الأسرةالعاشرة) في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد تدل دلالة كافية على مدى حيوية الفلاح المصري وثقافته وإيمانه بالعدالة والقيم العليا . وتأتي هذه القصة في شكل تسع شكايات حكيمة بليغة تقدم بها فلاح يدعى « خونا نوب » الى كبـير أمناء البلاط الملكي « رينسى بين ميرو » يطالب فيها برفع ظلم شديد أصابه ، ولا شك انه إذا كان فلاحو ذلك العصر لا يتمتمون بالذكاء الكافي لما أمكن لمؤلف القصة أن يضع على لسان الفلاح « خونا نوب » كل هذه الفصاحة أو ينسب اليه كل هذا التعمق في فلسفة الحكم والاخلاق[1].

ولا بد اذن ان يثور سؤال : ترى لماذا وكيف تدهورت حالة الفلاحالمصري صانع الحضارة القديم لتصل الى ما وصلت اليه من تخلف ؟

ينبغي أن نلاحظ أولا أن تدهور الفلاح المصري ليس ظاهرة حديثة وانمـا

---

(١) راجع القصة مترجمة عن الاصل الهيروغليفي في « روايات وقصص مصرية » لجوستيف لوفيفر ترجمة الدكتور علي حافظ عن النص الفرنسي (الالف كتاب) وراجع تحليلا لها في رائعة الدكتور حسين فوزي « سندباد مصري » وفي «اول ثورة على الاقطاع» للمؤلف (كتاب الهلال)

هي أيضاً ظاهرة موغلة في القدم يمكن القول بأنها ترجع الى العصور الفرعونية نفسها بل وفي الوقت الذي كانت فيه الحضارة الفرعونية قد بلغت أوجها، ولكن مركز الفلاح المصري واصل تدهوره فيما بعد .

ولا يتسع المجال هنا لتقصي عوامل تدهور الفلاح المصري تفصيلا ، وكيف تحول من انسان حر يشعر بفرديته ويساهم بعبقريته في جميع مظاهر الحضارة من حوله الى مجرد زراع للأرض يعيش على هامش الحياة يقتات الجهل والخرافات ويئن تحت سياط الظلم والعسف دون أن يثور أو يرفع مجرد صوت بالشكوى، ولكن قد يمكن أن نجمل هذه العوامل اجمالاً سريعاً . .

من أول هذه العوامل فساد العقيدة الدينية القديمة وتحولها الى أحاجي وألغاز وخرافات مما أفسد بالتالي ذهن الفلاح المصري، ففي عهد الدولة الوسطى انتشرت عبادة أوزيريس التي كانت بمثابة عبادة شعبية بالمقارنة بعبادة رع الملكية التي لم تكن تتاح إلا للطبقة العليا ، وظهرت بالتالي خرافات كثيرة عن الحياة بعد الموت وما تعج به من ثعابين وتماسيح وقردة وشياطين تعترض طريق المتوفي في العالم الآخر وينبغي أن يعمل لها حساب قبل الموت، ويمكننا أن ندرك مدى هذه الأخيلة والأوهام إذا قارننا بين كتاب الموتى ونصوص الأهرام وأدركنا كثرة هذه التصورات في الكتاب وندرتها أو عدمها في النصوص، وأدى ذلك الى انتشار الصلوات والدعوات والاحجبة والتعاويذ التي من المفروض فيها أن تقي المتوفي شرور الطريق في الدار الثانية ، وصارت هذه الخزعبلات مصدر رزق كبير للكهنة الذين برعوا في التغرير بعقول الفلاحين والعامة ، ووضعوا في ذلك كتاباً أسموه « الدليل » لضم المعلومات والوصايا اللازمة لتحقيق حسن المآب ، وكتاباً آخر يسمى « دليل الطريقين » يسير على نفس النهج ، وكما يحدث دائماً في بدايات الاضمحلال أصبح هذان الكتابان محور القصيدة في حين

أهملت قواعدها الصحيحة وطمست أفكارها التجريدية وفقدت قدرتهـــا على الايحاء ، ويرجح برستيد أن يكون الهدف الوحيد من هذين الكتابين هو مجرد ابتزاز المال، وهكذا بدأت تظهر تلك الاكوام الهائلة من الخرافات والخزعبلات التي عرقلت تطور المصريين فيا بعد وتفاقمت سوءاً في نهاية العصور الفرعونية[1].

وواكب هذا التدهور العقيدي ظهـــور الاقطاع كنظام اقتصادي غالب وانهيار نظام الملكية الفردية الذي عرف في الدولة القديمة ، وإذا كانت بذرة الاقطاع قد ظهرت في مصر منذ أقدم العصور في شكل أوقاف المعابد إلا ان الاقطاع لم يعرف كنظام اقتصادى شامل الا خلال الفترة المتوسطة الأولى والدولة الوسطى وظل قائماً إلى نهاية العصور الفرعونية ثم أصبحت مصر كلها ضيعـــة لروما ، وظل مركز الفلاح المصري يتدهور اقتصادياً وفكرياً وقانونياً كلما رسخ الاقطاع واستقرت دعائمه حتى تحول من انسان حر مفكر خلاق الى عامـــل سخرة وتابـــع أرض .

ثم انهارت الحضارة المصرية مع فقدان مصر استقلالها السياسى ، وخضعت البلاد منذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد لسلسلة لا تنتهي مـــن الحكم الاجنبي فخضعت لاحتلال الليبيين والاثيوبيين والاشوريين والفرس والأغريق والعرب والترك والمغول والعثمانيين ، وكان الفلاحون دائماً الذين يمثلون أغلبية الشعب هم الذين يقع عليهم العبء الأكبر من الاضطهاد والاستنزاف المستمرين من جانب شتى ألوان الحكام والمحتلين وأدى ذلك بالتالي إلى زيادة تدهورهم مادياً ومعنوياً .

ويمكن القول كذلك بأن من أسباب تدهور مركز الفلاح المصري حلول التجارة والمبادلات محل الزراعة كأساس للحضارة ، وقد بدأت هـــذه الظاهرة

(١) برستيد : تاريخ مصر من اقدم العصور ترجمة حسن كمال ص ١١٣

أيضاً في عصر مبكر يرجع الى الدولة الفرعونية الحديثة حين أصبحت مصر امبراطورية كبرى يعتمد في رخائها على التجارة الخارجية والعائد الاستعماري وتضاءلت أهمية الارض أمام زيادة أهمية السفن والقوافل التي تجلب شتى منتجات العالم القديم ، وظهرت بالتالي طبقة وسطى من سكان المدن والثغور وقلت أهمية الريف وساكنيه ولم تعد الزراعة أبداً فيما بعد الى مجدها القديم ، وكذلك لم يعد الفلاح .

لكل هذه الاسباب الرئيسية – وربما لغيرها أيضاً – أخذت مساهمات الفلاح المصري في الحضارة والمدنية تتضاءل بالتدريج حتى وصلت تقريباً الى حد العدم بينما استمرت انتاجيته الزراعية دون انقطاع منذ أقدم العصور الى وقتنا الحاضر .

غير أن ذلك التمرس الطويل القديم بالحضارة هو الذي مكن الفلاح المصري من الصمود لعوادي الزمن والاحتفاظ بكيانه وتراثه الفولكلوري وخصائصه النفسية والجنسية رغم كل عوامل التدهور التي جرعها حتى الثمالة ، وكان هذا الصمود من جانب الفلاح المصري في أسوأ الظروف هو سر بقاء مصر رغم ما أصابها من محن ، فقد بادت الحضارة القديمة ولم يعد لها وجود ، ولكن الشعب الذي تشبع بها اكتسب مناعة كافية ولم يتلاش بانهيار حضارته وضياع استقلاله وانتهاء تفرده بل ظل يقاوم الزمن ملتصقاً بالأرض والنيل وملتحفاً بالمناخ الطيب والسماء الصافية بينما تلاشت شعوب كثيرة أخرى عاصرت مصر القديمة لأن فلاحيها كانوا مجرد زراع أرض وليسوا صانعي حضارة كالفلاحين المصريين .

فالملاحظ انه عندما فقد المصريون استقلالهم السياسي وخرجوا من عصور تنورهم ظلوا مع ذلك يصنعون الحضارة طيلة العصر اليوناني الروماني بل وفي العصر الاسلامي إذ ترك القبط ذوو الأصل الفلاحي والبارعون بالوراثة في فنون السيراميك والنسيج طابعهم على الفن الاسلامي في مصر .

ولا يزال الفلاح المصري الى اليوم يحمل من الرواسب الحضارية ما يثري شخصيته ثراء طبيعياً ويجعله يتمتع بنفسية متحضرة بالرغم من كل الظروف القاسية التي كابدها عشرات القرون ، يكفي انه محب للخير والسلام والعمل ، مؤمن في اعماقه ، صبور دؤوب متفائل قانع . ولنقرأ مثلاً ما كتبته عن الفلاحين المصريين الباحثة الانجليزية وينفريد بلاكان التي عاشت بينهم في الصعيد سنوات طويلة قبل أن تضع كتابها الممتاز المرير « فلاحو مصر العليا » ففيه تقول : « الفلاحون المصريون رغم فقرهم الشديد ومرضهم وقلة ما لديهم من ألوان التسلية التي يمكن ان تكسر رتابة حياتهم تراهم على الاجمال شعباً قنوعاً مبتهجاً ، يمتازون بسرعة الفهم ، ولديهم استعداد للفكاهة والمرح فهم يحبون النكتة حتى لو كانت ضد أنفسهم ، وهم عادة يتمتعون بذاكرة قوية ، وقلوب صافية ، حانون ، كرماء ، دءوبون على العمل ، عاطفيون للغاية»[1].

وهذه الرواسب الحضارية التي يتمتع بها الفلاحون المصريون تجعل لديهم استعداداً ثقافياً عالياً ، ومما يلفت النظر أن معظم علمائنا ومثقفينا وفنانينا نشأوا في الريف أو ينتمون الى أصول ريفية مباشرة ، ومعنى ذلك ان ابناء الفلاحين إذا كفلت لهم فرصة التعليم يمكن أن يبزوا ابناء المدن في القدرة على التحصيل والابداع رغم التسهيلات والامكانيات الثقافية الكبيرة المتاحة لهؤلاء . وان الشاب القروي — منذ عهد رفاعة الطهطاوي حتى الان — ليلتحق بأرقى معاهد العلم في عواصم أوربا وأمريكا ويتفوق على أقرانه من أبناء الحضارة الغربية في شتى فروع العلوم والفنون والآداب . والريف المصري كما يخرج المثقفين يخرج أيضاً مهرة العمال والصناع، فالأغلبية الساحقة من العمال في المصانع والمشروعات المختلفة هم فلاحون قدموا مباشرة من الريف واكتسبوا الخبرة والمهارة في أعمالهم بسرعة فائقة ، ومعنى ذلك ان الفلاحين المصريين لا ينقصهم

1) Blackman, W, The Fellahin of Upper Egypt P. 23.

الاستعداد التكنولوجي ، أعرف فلاحاً شبه أمي من إحـــدى القرى المنقطعة نسبياً عن المدينة يتمتع بمقدرة مذهلة في اصلاح الآلات الدقيقة كالساعات وآلات التصوير وسماعات الأطباء ، وكثيراً ما يلجأ اليه سكان « البندر » بآلات تعذر اصلاحها للاستفادة من مهارة أنامله !

ومن المؤكد أن رواسب الفلاح الحضارية ، وذكاءه الفطري ، واستعداده الطبيعي للتطور ، عوامل كفيلة باثمار أي جهد صادق للنهوض بالريف والفلاح إلى مستوى عصر الثورة التكنولوجية الحالي ، ولا شك ان الريف المصري قد قطع بعد ثورة ٢٣ يوليو أشواطاً هائلة إلى الأمام ، فقد عرف لأول مرة الاصلاح الزراعي وتخلص من عقبـــة الاقطاع ، واستفاد من الطاقة الكهربائية والمياه النقية ، وعرف جانباً من أساليب الزراعة الحديثة في الانتاج والتسويق ، ومع ذلك لا يزال هناك الكثير مما يجب عمله حتى يتطور الفلاح المصري الذين تخلف عند المرحلة الزراعية منـــذ آلاف السنين إلى إنسان يساير عصر التكنولوجيا والبحث العلمي . لا بد من القضاء نهائياً على الآفات التقليدية الثلاث التي تهدم فلاحينا هدماً وهي الفقر والجهل والمرض ، ولا بد من تغيير الأوضاع المادية في الريف باحداث ثورة عميقـة في أساليب الانتاج وعلاقاته ، وتصنيـع الريف ، وتخطيط القرى ، ولا بد من بذل جهد اكبر للنهوض بالفلاح ذاته نفسياً وعقلياً وسياسياً .

وعندما ينهار الستار الحديدي بـــين الريف والمدينة ، سوف يسقط معه الفاصم الوهمي بـين الحاضر والماضي ، وسوف يعود الفلاح المصري إلى المساهمة الايجابية في حضارة العصر الحديث كما كان يفعل أيام أمجاده التليدة .

القسم الثاني

عروبة مصر

[١]

علاقات قديمة

إذا كنا قد خلصنا في القسم الأول من هذا الكتاب إلى وجود اتصال بين مراحل التاريخ المصري رغم انقطاعه الظاهري، وإلى تقرير وحدة هذا التاريخ منذ أقدم العصور إلى الآن فان القول بذلك لا يمكن أن يستقيم نهائياً إلا إذا فهمنا تلك الظاهرة العميقة المعقدة في تاريخ مصر ألا وهي انتقالها بحكم الضرورة التاريخية وطبيعة الأشياء الى حوزة العروبة والاسلام .

ان تعريب مصر هو الحلقة التي تربط بين تاريخ مصر قبل الاسلام وبعده ، ولا بد لتقرير مبدأ وحدة التاريخ المصري من أن نتأكد من وجود هذه الحلقة ومن أنها تصل بين مرحلتين ولا تفصل بينهما .

أو بمعنى آخر، هل استبدل الاسلام بمصر مصراً أخرى أم أنه جدد شباب مصر وحيويتها ؟ هل الغطاء البشري في مصر العربية الاسلامية غطاء جديد تماماً أم أنه نفس الغطاء القديم بعد أن منح عقيدة جديدة وجرت في شرايينه دماء جديدة فحسب ؟ وماذا كان موقف المصريين من الفتح العربي : هل هو موقف الرضا والقبول أم موقف الرفض، والارغام ؟ وهل ظلت مصر تتمتع

بقدرة ذاتية على التأثير في الحياة الجديدة التي دخلتها أم أنها فقدت كل عناصرها الإيجابية وتحولت الى كم سلبي يتأثر ولا يؤثر ؟

قبل الاجابة على مثل هذه الاسئلة ينبغي القاء نظرة على العلاقـات المصرية العربية منذ أقدم العصور الى الفتح العربي الاسلامي عام ٦٤٠ م .

لقد ظلت مصر منذ أقدم العصور إلى الآن جزءاً لا يتجزأ مـن الوسط البشري المحيط بها ، فليس هناك بالتحديد ما يسمى بالجنس المصري وإنما هناك فحسب من يسمون بسكان مصر الذين هم فرع من سلالات البحر المتـوسط وكان سكان مصر دائمـاً على اتصال وثيق بالجنس السامي الذي موطنه شبه الجزيرة العربيـة ولكنه لا ينحصر فيها بل يفيض منها على الهـلال الخصيب وما حوله .

وقد أخذ هذا الاتصال ثلاثة أشكال رئيسية ..

الشكل الأول هو الاشتراك في أصل جنسي واحد يعد بمثابة الأب المشترك لكل من العرب والمصريين ، وقد رأينا فيما سبق رأي اليوت سميث وغيره من العلماء في أن المصريين والعرب يرجعون إلى أصل مشترك واحد كان يسكن كل منطقة الشرق الأدنى التي يفصلها البحر الأحمر ، ويـذهب فيليب حتى إلى أن الجنس السامي كان متحداً في عصور مـا قبل التاريخ مـع فرع آخر من الجنس الأبيض هو الفرع الحامي (الشائع خطأ أن بني حام هم الزنوج وهذا ليس صحيحاً) وكان الاثنان يكوّنان شعباً واحداً يقطن في بعض نواحي شرق أفريقيا وتفرع منه ما دعوناهم بعدئذ بالساميين وعبروا الى الجزيرة العربية عن طريـق باب المندب فيما يظن ، وهذا ما يجعل أفريقيا الموطن الأصلي المرجح للجنس السامي الحامي الذي ينتمي اليه العرب والمصريون على السواء ثم أصبحت الجزيرة العربية مهداً للشعب السامي وبعد ذلك أصبح الهلال الخصيب مرتعاً للحضارة السامية .

أما الفرع الآخر من ذلك الجنس وهم المصريون فقد جعلوا من وادي النيل مهداً ومرتعاً لحضارتهم[١].

والشكل الثاني هو تلك الهجرات الجماعية التي كانت تخرج من الجزيرة العربية مهد الجنس السامي الى أطراف الجزيرة ومنها مصر فتختلط بسكانها وتدخل في نسيجها البشري ، ومعروف أن شبه الجزيرة العربية بيئة طاردة وأن مؤشر الهجرة البشرية يتجه من البيئات الصحراوية القاحلة إلى البيئات الزراعية ، وقد لاحظ العلماء ظاهرة امتلاء شبه الجزيرة العربية مرة كل ألف سنة بسكانها على نحو لا تستطيع معه استيعابهم فيفيضون على جوانبها كما يفيض الماء من الوعاء الملآن .

وقد حدثت الموجة الأولى من الهجرة السامية – ان لم تكن ثمة هجرات أخرى حدثت قبلها في الماضي البعيد – في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد (حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م:) واتجهت إلى وادي النيل الذي يربطها بسكانه الاشتراك في أصل بعيد واحد كما رأينا، واستقرت هذه العناصر السامية الوفيرة العدد في مصر وامتزجت بسكانها وربما كانت هذه الهجرة من الأسباب التي عجلت بدخول الحضارة المصرية عصر التاريخ المكتوب . وفي نفس الوقت تقريباً اندفعت من الجزيرة العربية موجة سامية أخرى إلى الشمال واستقرت في وادي النهرين حيث امتزجت بالسومريين الذين هم ليسوا من الأصل السامي ونشأ نتيجة لهذا المزيج البابليون الذين واصلوا حضارة الرافدين .

وفي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد أي حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م. حدثت الموجة الثانية من الهجرات السامية الكبرى إلى غرب الهلال الخصيب ، وظهر

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) جـ ١ ص ١٤ طبعة دار الكشاف وفيه يشير الى:

George Barton : Semitic and Hamitic Origins

نتيجة لهذه الهجرة الكنعانيون الذين سكنوا الشام وفلسطين ، والفينيقيون الذين سكنوا ساحل البحر المتوسط .

وبعدمنتصف الألف الثاني قبل الميلاد بقليل فيما بين عامي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. حدثت الهجرة السامية الثالثة إلى جوف سوريا وتسرب فيها العبرانيون إلى فلسطين والآراميون (السريان) إلى سهل البقاع بجوف سوريا .

وفي منتصف الألف الأول قبل الميلاد حدثت الهجرة الرابعة وأدت إلى ظهور ممالك عربية على هامش الجزيرة أهمها مملكة الانباط الذين سكنوا الشمال الشرقي لشبه جزيرة سيناء ونحتوا عاصمتهم البتراء في الصخر ، ومملكة تدمر التي لمعت عالمياً في عصر ملكتها الشهيرة زنوبيا .

وحدثت الموجة الخامسة بعد منتصف الألف الاول الميلادي وهي التي حملت راية الاسلام إلى خارج الجزيرة واجتاحت الشام ومصر وأفريقيا الشمالية وفارس وآسيا الوسطى[١].

أما الشكل الثالث من المؤثرات فقد كان بطيئاً ولكنه حثيث ومستمر ، وأخذ أشكالاً شتى من هجرات فردية وجماعية ، إلى حروب وغزوات ، الى علاقات ود وتجارة وثقافة ، ولم ينقطع طيلة عصور التاريخ حتى الآن .

* * *

وإذا استعرضنا العلاقات المصرية العربية عبر التاريخ نجد انه ما من مرحلة تاريخية الا وقد عرفت اتصالاً من نوع أو آخر بين المصريين والعرب الساميين ،

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب جـ ١ ص ١٠ - ١٢ .

وسنحاول فيما يلي استعراض هذه العلاقات مع الاقتصار منها على ما كان قائماً بين مصر والبدو الساميين من سكان شبه الجزيرة العربية أو على هامشها ولن نتناول العلاقات بين مصر ودول الحضارات السامية كبابل وآشور لأنها علاقات مستقرة ومعروفة جيداً .

منذ عهد الأسرة الاولى وطوال العصر العتيق الذي سبق الدولة القديمة تسجل الآثار المصرية قيام ملوك الاسرتين الاولى والثانية بحملات تأديبية ضد البدو المقيمين على سواحل البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء والذين قدموا بالطبع من الجزيرة العربية مهد الجنس السامي وكانوا في طريقهم الى مصر كما فعلت موجات سالفة من أجدادهم ، وظهرت في اللغة المصرية منذ ذلك الحين كلمة « عامو » التي تطلق على البدو الاسيويين ، وكان هؤلاء العامو أو بدو سيناء الذين جاءوا أصلا من الجزيرة العربية يبيعون منتجات سيناء من النحاس والفيروز في أسواق وادي النيل ، وقد عثر الاثري سير فلندرز بتري في عام ١٩٠٠ على قطعة من العاج في ضريح أحد ملوك الاسرة الاولى في أبيدوس تحمل رسم رجل سامي كتب عليها « عامو » ويمثل الرسم رجلا ذا لحية مروسة حليق الشاربين ولعله من عرب الجنوب[١] .

وفي عهد الدولة القديمة زادت الاتصالات بمختلف أشكالها بين المصريين والعامو ، فكان سنفرو من الأسرة الثالثة وخوفو من الرابعة وأوسر كاف من الخامسة يصدون غارات القبائل الاسيوية ويقتفون أثرها إلى فلسطين ، وكان مصريو الدولة القديمة يستخرجون المعادن من سيناء ويجوبون بسفنهم موانيء البحرين الاحمر والمتوسط وينشئون أقوى العلاقات التجارية مع عرب سوريا وبونت وشبه الجزيرة العربية نفسها التي كانت غنية بالحاصلات الزراعية والمعدنية

(١) فيليب حتي : المرجع السابق : ص ٤١

التي يحتاجها المصريون كاللبان والطيوب والمر والبخور والصمـــغ والراتنج والاخشاب المعطرة والعاج والابنوس .

وعندما انهارت الدولة القديمة ، وحـــل بمصر التفسخ الحضاري والضعف السياسي والمنازعات الدامية انتهز البدو الاسيويون الفرصة ونزلوا بأعداد غفيرة في الدلتا كما تدل على ذلك الآثار القليلة المتبقية التي تصور أحوال ذلك العصر المضطرب ، ومنها « نبوءات الحكيم ايبور » التي جاء فيها أن أهل الصحراء حلوا محل « المصريين « وأصبحوا يحرمون البلاد حرفها » ولم تتخلص مصر من هؤلاء المستوطنين الآسيويـين إلا على ايدي ملوك اهناسيا الذين أقاموا الدولـة الوسطى وطاردوا بدو الدلتا[1].

وفي « التعاليم الموجهة إلى الملك مريكارع » من الاسرة العاشرة ، والاغلب انها موجهة اليه من ابيه الملك خيتي الرابع نجده يحذره من خطر الغزو الذي قد تتعرض له البلاد من حدودها الشرقية ، وهو يصف المحـارب الاسيوي أو السامي الذي يغير على البلاد لأعمال السلب والنهب وصفاً دقيقاً فيقول « انــه لا يستقر في مكان واحد ، ان ساقيه قد صنعتا كي تتجولا به بعيدا ، انـــه يحارب منذ أيام حورس (أي منذ الازل) وهو لا يقهر ولا يقهر ، ولا يحدد يوماً للقتال ، بل هو كاللص الذي يعمل في عصابة ، يهاجم الشخص إذا كان يسير بمفرده ، ولكنه لا يهاجم مدينة بها سكان كثيرون »[2].

وحين استردت مصر قوتها وتابعت سيرتها الاولى في عهـــد الدولة الوسطى عادت العلاقات المنتظمة بين مصر والاقوام السامية ، وقـد اهتم ملوك الاسرة الثانية عشرة باقامة التحصينات المنيعة على حدود الصحراء وأطلقوا عليها «حائط

---

(١) محمد الغرب موسى : اول ثورة على الاقطاع ص ٨٢

(٢) المرجع السابق : ص ٩٦ – ٩٧ .

الحاكم التي أقيمت لصد الاسيويين وسحق المسافرين في الرمـــال » وقامت علاقات تجارية واسعة بـين مصر وجاراتها في الشرق الادنى وكانت مراكز الحراسة المصرية منتشرة في رءوس الطرق ومنعطفاتها لتأمين خطوط القوافل ، وسهلت قناة سنوسرت بين النيل والبحر الاحمر الاتصال ببلاد بونت وسواحل العرب الجنوبية ، ونحن نعرف من قصة سنوحى التي ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة مدى الروابط القوية التي كانت قائمة بين مصر والشام ، وهناك كذلك شواهد كثيرة على زيارات جماعية وفردية كان يقوم بهـا الآسيويون إلى مصر ، ففي احدى مقابر بني حسن في زمن الدولة الوسطى نرى رسماً يصور جماعة من البدو الآسيويين تضم ٣٧ فرداً على رأسهم زعيم يدعى « ابشا » تهبط مصر حاملة هدايا طريفة منها طلاء أخضر اللون لتجميل العيون[1].

وفي التراث السامي القديم أن أبا الانبياء إبراهيم الذي عاصر الدولة الوسطى زار مصر هو وزوجته سارة لمحاجاة كهنتها في شئون العقيدة ، واقترن إبراهيم بهاجر المصرية وانجب منها ابنه الأكبر اسماعيل أب العرب العدنانيين وجـــد الرسول عليه السلام ، أي ان الجدة الكبرى لبني الاسلام مصرية .

وبعد انهيار الدولة الوسطى ، وقبل قيام الدولة الحديثـــة ، أي فيما يطلق عليه الفترة المتوسطة الثانيـــة ، تعرضت مصر لغزو الهكسوس ، وهي محـــاولة للاستعمار الاستيطاني بالمصطلح الحديث ، ويقول البعض اقتداء بالكاهن المصري مانيتون ان الهكسوس ربما كانوا عرباً وعلى هذا الرأي كثير من المؤرخين المحدثين غير ان الأرجح طبقاً للابحاث الحديثة ان غزوة الهكسوس كانت تضم عنصرين احدهما آري كانت له السيادة العليا والآخر سامي جاء في ركاب العنصر الآري ، فزعماء الهكسوس أو الطبقة العليا في الحملة الغازيـــة كانوا ينتمون إلى الجنس الآري ، فهم احدى التدفقات الهندية ـ الأوروبية التي بدأت تضغط على منطقة

---

(١) محمد العزب موسى : هزيمة الهكسوس . المكتبة الثقافية .

الهلال الخصيب في بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، وقد أدى هذا الضغط الآري إلى قلقلة شديدة بين الشعوب والأقوام المستقرة في المنطقة ، وكان الهكسوس إحدى هذه التدفقات أتوا في الأصل من آسيا الصغرى وفتحوا سوريا وفلسطين كخطوة نحو هدفهم النهائي مصر ، ومما يدل على أنهم فرع من الهجرات الهندية الأوروبية انهم جلبوا معهم الحصان والعربة وهما من مقومات الحضارة الآرية الشمالية ، كما كانوا يستخدمون أسلحة من البرونز والحديد مما يدل على انهم كانوا على اتصال بمناجم أرمينيا وطوروس من ناحية وبالمنطقة العشبية في روسيا وسيبيريا الوسطى من ناحية أخرى ، أما الأقوام السامية في المنطقة فلم تكن عندئذ تعرف العربة والحصان ولا البرونز والحديد ولكن من المرجح – ويكاد يكون من المؤكد – ان الهكسوس جلبوا في ركابهم عناصر سامية من سكان المنطقة ، وفتحوا مصر لمن شاء استيطانها من الساميين ، وكان من عادة القبائل الآرية أنها لا تغلق مجتمعاتها على نفسها بل تسمح للاجناس الأخرى بالدخول في زمرتها على شريطة أن تكون السيادة للعنصر الآري وتتمثل هذه السيادة في المحافظة على الشعارات الآرية كاسماء الالهة والملوك[1].

وعلى أية حال ، فقد ترك الهكسوس مسحة سامية على حضارة مصر وثقافتها في ذلك الحين ، والمعتقد أن مجيء يوسف واستقرار قبيلة يعقوب في مصر حدثا خلال فترة حكم الهكسوس[2].

وابتداء من عهد الدولة الحديثة التي قامت في أعقاب طرد الهكسوس وحتى نهاية العصر الفرعوني إزدادت العلاقات توثقاً بين مصر والشرق السامي في مختلف الميادين بل تجلت وحدة الشرق واضحة في ظل الامبراطورية المصرية التي كانت أول محاولة بشرية لتحقيق فكرة العالمية ، وفي عصر الرعامسة

---

(١) المرجع السابق .
(٢) محمد شفيق غربال : تكوين مصر ص ٥٣

بالذات كانت مصر تذخر بالعرب الساميين الذين جاءوا اليها كأسرى أو تجار أو مهاجرين ، ولم تكن هناك مدينة مصرية على درجة من الأهمية إلا وبها أحياء كاملة يسكنها الكنعانيون والفينيقيون وغيرهم من العناصر السامية ، وكانت قوافل التجارة تأتي من بلاد العرب وبونت وفينيقيا وسوريا والسودان وجزر المحيط لتصب في مصر ثراء جديداً ودماء جديدة ، حتى إذا ما آذنت شمس رع بالغروب ودخلت مصر الفرعونية صفحات كتابها الأخيرة إزداد التأثير الأجنبي فيها سواء كان هذا التأثير اغريقياً أو عربياً أو بربرياً أو زنجياً ، وتعرضت مصر لغزو واحتلال النوبيين واللوبيين والاشوريين وهم جميعاً من أقارب العرب وتجري في عروقهم الدماء السامية ، وزادت سطوة بدو الصحراء وأصبحت لهم اليد الطولى على حدود مصر الشرقية حتى أن قمبيز الفارسي تمكن من فتح مصر بمعونة عرب الصحراء الذين أمدوه بالأدلاء والجمال والمؤن[1].

وفي الوقت الذي اعتلى فيه البطالسة الاغريق عرش مصر كانت مجموعة من الممالك العربية الذاهبة قد بدأت تظهر في جنوب شبه الجزيرة وعلى أطرافها الشمالية منها دولة معان في سيناء والحجاز ، ودولة معين وسبأ في اليمن ، ومملكة الانباط في شرق الاردن التي مدت سلطانها إلى طور سيناء ثم تلتها تدمر ومملكة الغساسنة . وقامت بين مصر البطلسية وهذه الممالك العربية دما وثقافة علاقات متشعبة من تجارة وحروب وهجرات واتصالات شتى ، وكان العرب يقومون بدور الوسيط التجاري العالمي فهم يتحكمون في طرق التجارة البرية والبحرية القادمة من الصين والهند وفارس الى مصر والشام واليونان وروما ، وكانت حاصلات بلاد العرب الجنوبية كالمر واللبان والعطور والبهارات والعاج والارز والاصداف واللآلىء تصب في الاسواق المصرية ويتهافت عليها سكان وادي النيل ، وكانت هذه الحاصلات تصل بسهولة كبيرة إلى المدن المصرية بعد إعادة حفر القناة القديمة التي تربط النيل بالبحر الاحمر .

(١) د. عبدالله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر ص ١٧

وقد عثر الاستاذ أنولتان على نقوش نبطية في الصحراء الشرقية بين البحر الاحمر والنيل تبلغ حوالي ٨٣ نقشاً أو خربشة عثر عليها في ستة عشر موضعاً تمتد من من سيناء شمالاً وتتجه جنوبياً حتى الصعيد الأعلى مما يدل على أن الانبــاط وهم عرب صحراء لم يقصدوا مصر للتجارة فحسب وانما كانت لهم فيها محلات يهبطونها، ومعابد يتعبدون فيها[1].

وواصلت هذه العلاقات ازدهارها بعد أن انتقلت مصر من الحكم البطلمي إلى الحكم الروماني ، بل أن الأنباط هم الذين أعانوا يوليوس قيصر على فتــح الاسكندرية بكتيبة من الفرسان العرب أرسلها الملك النبطي مالك بن عبادة ، كما توغلت حملة رومانية مصرية في بلاد العرب حتى نجران[2].

كما نزلت مصر في مطلع العصر الروماني بطون من قضاعة وكهلان وهم من العرب القحطانيين الذين انتقلوا من سبأ واليمن في جنوب الجزيرة العربيــة إلى الشمال على أثر دمار سد مأرب ، ودخل بعضهم مصر[3].

وفي العصر الروماني حدثت ما يسميها بعض المؤرخين « بروفــــة » الفتح العربي الاسلامي حين غزت زنوبيا ملكة بالميرا [ويسميها العرب الزباء أو زينب ملكة تدمر] مصر واقتطعتها من الحكم الروماني فترة من الوقت ، ولأهمية هذا الحدث باعتباره نموذجاً مصغراً للفتح العربي يحسن أن تلقى عليــه بعض الأضواء .

كانت بالميرا إحدى المدن القديمة في شمال الصحراء العربية وأثرت ثراء بالغاً

---

(١) د. عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب للمقريزي ص ٨٢.

(٢) د. عبدالله خورشيد البري : المرجع السابق ص ٢٥

(٣) د. عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٨٥ - ٩١

نتيجة لوقوعهـا في واحة وارفة من النخيل والعيون كانت تمر بهـا – وتتوقف عليها – القوافل القادمة من اليمن وحضرموت في جنوب بلاد العرب إلى سوريا وفلسطين شمالاً ، وقد تسرب اليهـا النفوذ الهليني فأصبحت مركزاً لامـتزاج الثقافتين الاغريقية والسامية في قلب الصحراء ، وفي عهد أغسطس قيصر قبلت بالميرا السيادة الرومانية وعاملتها الدولة الرومانية برفق نادر وسمحت لهـــا بالاحتفاظ بجيش خاص حتى تكون مستعدة دائماً لحماية طرق التجارة وصد أي هجوم تتعرض له أطراف الامبراطورية من الشرق أو الصحراء .

ولكن بالميرا العربية لم تلبث أن واجهت تحدياً خطيراً بنمو قوة الفرس في المشرق ، وأخذوا يهددون تجارتها وثراءها ومركزها الممتاز ، وحاولت بالميرا التماس الحماية الرومانية فلم تجدها فقد كان الرومان أنفسهم يلقون الهزائم المذلة على أيدي الفرس ، وكان الضعف والتراخي قد دبا في قوات رومـا بالمشرق ، وعندما رأى البالميريون ان قوات الدولة الرومانية غير قادرة على حمايتهم أو تقديم أي عون جدي لهم أخذوا الزمام بأيديهم دفاعاً عن أرواحهم وامتيازاتهم ، ونجحوا في إيقاع الهزيمة بالجيش الفارسي وغزوا العراق ، وعندئذ أعلن زعيمهم نفسه ملكاً ولم تسع روما سوى الاعتراف بهذا « الاستقلال الذاتي » قانعة بأن تتولى بالميرا عنها عبء الحدود الشرقية للامبراطورية ، وبعد وفاة ملك بالميرا أمسكت أرملته زنوبيا بمقاليد الحكم كوصية على ابنها وهب اللات ، واعترف الامبراطور الروماني كلوديوس بهذا الوضع في عام ٢٦٨ م[١] .

وكانت زنوبيا امرأة على درجة عالية من الثقافة والطموح والذكاء ، ويقال انها كانت عربية صريحة وان كانت بعض الروايات تنسبها إلى أصل مصري ، وكانت هي نفسها تدعي إنها من نسل الملكة المصرية كليوباترا ، ويقـــال انها

---

1) Weech : History of the World

كانت تتقن الاغريقية واللاتينية كما كانت تتحدث المصرية بطلاقة ، ويقال أيضاً أنها وضعت مؤلفاً في تاريخ مصر ، وفي بلاطها ازدهرت الحضـارة الهللينية في في أرقى صورها ، ولم تكن عبقرية زنوبيا السياسية والحربية أقل من تفوقهـا الثقافي ، وقد اعتقدت انها أحق بحكم الشرق من القواد الرومان الجهلاء فشقت عصا الطاعة على الدولة الرومانية ، وضمت المدن والأقاليم المجاورة لها في يسر وسهولة لأن شعوب الشرق كانت ترحب بقوات بالميرا التي تحترم الحضارة ولا تدمرها كما تفعل الجحافل الرومانية ، وفي زمن قصير للغايـــة امتدت سيادة بالميرا من البوسفور الى النيل ، وكان استيلاؤها على مصر في عام ٢٧٠ م بعد أن هزمت قواتها الجيش الروماني بالقرب من بابليون ورحب المصريون بهـــذا الفتح العربي الذي خلصهم من نير رومـــا ، ولكن عندما تولى الامبراطور أورليانوس عرش الامبراطورية الرومانية قرر تحدي الزباء والحد من سلطانهـا ولا سيما بعد أن أبدت ميلا للتفاهم مع الفرس ، وشعرت زنوبيا بما تضمره لهـا الدولة الرومانيـــة فأقدمت على قطع آخر صلة تربطها بروما بأن محت صورة الامبراطور الروماني من عملتها الوطنية وهي الشعار الوحيد البـــاقي للسيادة الرومانية وسكت عملة جديدة عليهاصورة ابنها وهب اللات فحسب، واتصلت بمملكة الغال (فرنسا) التي كانت على عداء مع روما وتحالفت معهـا ، وبدأت بين روما وبالميرا حروب عنيفة انتهت بهزيمة جيوش الزباء وسيقت هي أسيرة الى روما وأبيحت مدينتها الجميلة للنهب والتدمير ، وبعد ذلك تمكنت رومـا من اخماد الثورات الوطنية التي قامت في بلاد الشرق وأعادت فرض سيطرتها على مصر [1].

وقبيل العصر الميلادي مباشرة زاد العرب زيادة كبيرة في مصر ، وقـد أشار إلى ذلك المؤرخون اليونانيون ومنهم سترابو وبلينيوس اللذان ذكرا أن

---

(١) د . عبدالله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر ص ٢٧

العرب تضاعف عددهم على الضفة الغربية من البحر الأحمر ، وكانوا يشغلون كل المنطقة بين البحر ونهر النيل في أعلى الصعيد ، ووصف سترابو مدينة قفط بأنها واقعة تحت حكم العرب ، ونصف سكانها من العرب[1].

وعندما دخلت مصر في حوزة الدولة البيزنطية الشرقية واعتنق المصريون المسيحية استمرت الاتصالات قائمـة وقوية بين الأقباط وعرب شبـه الجزيرة ، وتذخر كتب التاريخ بعشرات الأمثلة على هذه العلاقات ومنها ان رجال الدين المسيحي من المصريين كانوا يزورون بلاد العرب ونقلوا نظم الرهبنـة المسيحية المصرية إلى بلاد العرب والشام ، وعين الراهب المصري موسى أسقفاً للمسيحيين العرب عام ٣٧٢ م ، وفرنسطور صاحب المذهب النسطوري الذي وصم بالهرطقة في مصر الى بلاد العرب عام ٤٤٠ م وانتشر مذهبه هناك ، وتولى نجار قبطي كان يقيم في مكة اصلاح الكعبة عندما أضرت بها السيول في عـام ٦٠٦ م أي قبيل بعثة الرسول بخمس سنوات ، وكان جبر عبدالله القبطي أحد الصحابة الذين أخذوا دينهم عن النبي ، وكانت القبائل العربية تهاجر إلى مصر والشام فراراً من الجدب في بلادها وكمقدمة للفتوحات العربية القادمة ، وقبيل الفتح العربي كان يقيم في مصر وخاصة في المناطق الشرقية والاسكندرية والفيوم كثير من العرب كما كانوا يترددون عليها للزيارة والتجارة ومنهم عمرو بن العاص الذي زار مصر أكثر من مرة في الجاهلية وعرف مسالكها مما كان عوناً له على فتح مصر فيما بعد ، كما اشترك العرب في حمـلة كسرى لفتح مصر عام ٦١٨ م وسهل اشتراكهم في هذه الحملة تقبل المصريين لها[2].

* * *

---

(١) د . احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ١٢

(٢) د. عبدالله خورشيد البري : المرجع السابق ص ٣٢

من هذا العرض السريع يظهر واضحاً ان الاتصالات بين المصريين والعرب بدأت منذ زمن سحيق يعود إلى ما قبل التاريخ واستمرت على نحو منتظم تقريباً طيلة العصور التاريخية حتى الفتح الاسلامي وكانت تأخذ شتى الاشكال كالهجرات الجماعية والفردية ، والغزو المسلح للسلب والنهب أو للاستقرار والاستيطان إلى جانب مختلف أنواع العلاقات التجارية والسياسية والشخصية على كافة المستويات ابتداء من الرعاة والتجار والاتباع والجنود المرتزقة إلى الملوك والامراء والنبلاء ورجال الدين .

ولم يتوقف الدم العربي عن الامتزاج في عروق المصريين بكميات مؤثرة احياناً وقليلة احياناً ، ولا شك أن ذلك قد ساهم في تجديد دماء المصريين والحفاظ على حيويتهم بل وبقائهم نفسه ، فلو لم يكن المصريون على هذا الاتصال المستمر بالعالم الخارجي لكانوا قد بادوا أو انهاروا لدى أول طرقة خارجية يتعرضون لها كما حدث للهنود الحمر وسكان أمريكا الجنوبية الأصليين الذين انهارت حضارتهم كبيت العنكبوت وتقوض مجتمعهم رأساً على عقب عند أول اصطدام لهم بالعالم الخارجي بعد قرون طويلة من العزلة في قارتهم المجهولة فالامتزاج الجنسي والحضاري بين الشعوب شرط لبقاء الحضارة والمجتمعات وحصانتها أمام المؤثرات الخارجية .

* * *

على أن التأثير الأكبر للعرب الساميين في مصر الفرعونية لم يكن في المجال الجنسي بقدر ما كان في الميدان الحضاري والثقافي لا سيما فيما يتعلق باللغة والمعتقدات الدينية .

يقول الدكتور عبد العزيز صالح ان اللغة المصرية القديمة التي تكتب

بالهيروغليفية تضم كثيراً من الأصوات والصيغ والمفردات السامية ، وهـــذا لا يدل فقط على مجرد الاقتباس بل الأرجح وجود أصل مشترك بينهما . وقد عرفت اللغة المصرية في قواعدها النحوية كثيراً من الخواص الموجودة في اللغـة العربية من حيث وجود حروف العين والحاء والقاف وهي حروف اقتصر تداولها على اللغات السامية ، ثم من حيث شيوع الأفعال ذات المصدر الثلاثي فيهـا ، وغلبة الأفعال المعتلة الآخر بينها ، ومن حيث ما أخذت به في تركيب عباراتها من سبق الفعل على الفاعل ، وإلحاق الصفة بالموصوف ، أو تأكيد الجمل الاسمية ببدئها بحرف ، واستخدام صيغة المثنى ، وإضافة تاء التأنيث في نهايـــة بعض الاسماء والصفات المؤنثة ، واستخدام تمـيز البعض عن الكل ، واستخدام ياء النسبية وياء الاضافة للمتكلم ، وكاف المخاطب في حالة المضاف اليه والمعطى له ، وكذا نون الجمع وواو الجماعة ، وإضافة ميم المكان وميم الاداة لتكوين أسمـاء مركبة ، وكل ذلك مما لا يتأتى إلا عن طريق وحدة الأصل بين اللغتين[1].

وقد رأينا في الفصل الخاص بالرواسب الفولكلورية المتبقية في الحياة المصرية المعاصرة ان هناك كلمات قبطية أو مصرية قديمة لا تزال تستخدم إلى اليوم في لغتنا الدارجة ، ونضيف هنا أن هناك كذلك مفردات كثيرة مشتركة بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية الفصحى سواء المهجورة أو المستعملة إلى اليـوم ، وسواء كانت تنطق بنصها أو مع تغييرات طفيفة نتيجـــة لاختلاف اللهجات المكانية ، ومنها أفعال وأسماء مختلفة ، فمن الأفعال التي تستخدم في اللغتـــين بنصها ومعناهـا : حسب . فهم . ختم . خب . خر . شد . تم . تمم . بخر . وهي . وهن . هوى . زعق . عشق . حزن . نقم . نعى . قطف . بصق . ومن الاسماء : ذئب . جناح . قمح . سبى . قد . موت . منامة . يم . بركة . منحة . همهمة . حطمة . عين . صباع (اصبع) أيد (يد) ودن (أذن) .

---

(١) د. عبد العزيز صالح : مقال بالاهرام في ١٩٦٩/٨/٦ .

وهناك أيضاً مشابهات في الضمائر ، فضمير أنا العربي هو أنوك الفرعوني ، ومعي كان ينطقها المصريون القدماء (م . عـاي) ومعنا ينطقونها (م. عانا) ومعك ينطقونها (م. عاك)[1].

وقد لمس كثير من العلماء ذلك التشابه القوي بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية التي بلغت قمة رقيها في العربية الفصحى ، ومن هؤلاء برستيد في كتابه « تاريخ مصر منذ أقدم العصور » فقال » ان اللغة المصرية قد حافظت على ساميتها بمرور الزمن وبالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف باختلاط السكان» وأحمد كمال في كتابه « تاريخ السودان القديم » فقال « ان أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد وأن الاختلاف الظاهر بينهما ليس إلا نتيجة إسقاط بعض كلمات في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل أو العكس ثم نتيجة لما يعتري الكلمات من القلب والإبدال وما يطرأ على اللغات من تغير بمعاملة الأجانب » وأحمد نجيب في كتابه « الأثر الجليل لسكان وادي النيل » فقال » ان أصول اللغة المصرية مشتقة من اللغات العبرانية والأرامية وأن الضمائر المتصلة والمنفصلة متشابهة » والمؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه «التاريخ الكبير العام» فقال ان بين اللغة المصرية واللغات السامية في مفرداتها وصرفها ونحوها مشابهة كبيرة تسوغ القول انها من أصل واحد «وجوستاف لوبون في كتابه «الحضارة المصرية » فقال ان كل جذور اللغة المصرية القديمة ومعظم قاموسها يتركب من عناصر سامية حتى أجروميتها فيما يتصل بتركيب المؤنث والجمع « وأدولف ارمان وهرمان رانكة في كتابهما « مصر والحياة المصرية في العصور القديمة » فقالا « ان من الممكن ارجاع اللغة المصرية القديمة الى الافريقية الشرقية والشمالية التي امتزجت بها » ويؤثر عن العالم الاثري أحمد كمال انه وضع قاموساً يحوي

---

(١) المرجع السابق .

آلاف المفردات المصرية القديمة التي تشترك في المعنى أو المبنى مع المفردات العربية[1].

وفي مجال المعتقدات الدينية كذلك نجد تأثيراً كبيراً متبادلاً بين العقائد المصرية والعقائد السامية نتيجة لهذه الاتصالات الوثيقة بين الشعبين ، فنجد مصر تستضيف من الآلهة السامية بعل ورشف وكوثار وعنات من أرباب الطبيعة والحرب ، وعشتار وقدش من ربات الخصوبة والشفاء والحب . ونجد الساميين يشيدون المعابد لكثير من الآلهة المصرية مثل آمون وتياح وحتحور ، وكان لذلك أثر كبير في تخفيف حدة التعصب الديني وحلول روح التسامح بين الشعبين وقد بلغ التسامح الديني مداه في دعوة اخناتون التوحيدية التي تشمل جميع الشعوب والأجناس ، وكان اخناتون يذكر في أناشيده اسم مصر بعد البلاد الأخرى[2].

* * *

وعلى ذلك يمكن القول باطمئنان ان مصر لم تكن غريبة على العرب ، والعرب لم يكونوا غرباء على مصر عند الفتح الاسلامي ، وإنما جاء هذا الفتح قمة لتلك العلاقات العرقية والثقافية والحضارية الضاربة في أعماق تاريخ الشعبين ، وكان ذلك من أهم الأسباب التي مكنت للعرب الفاتحين في مصر وجعلت المصريين —

---

(١) عن محمد عزة دروزة: عروبة مصر قبل الاسلام وبعده ص ٨٣ - ٨٤ ويقرر دروزة ان وسيطا نقل اليه عن المؤرخ المصري سليم حسن ان ٦٥ ٪ على الاقل من مفردات اللغة المصرية القديمة سامية .

(٢) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق .

وهم الذين استعصوا على الرومان رغم جبروتهم – يرحبون بالعرب الفاتحين ويختلطون بهم في شعب واحد .

والواقع ان كل منطقة الشرق الأدنى القديم كانت مسرح صراع مزمن بين الجنسين السامي والآري ففي بداية الألف الثاني قبل الميلاد بدأت الأجناس الهندية – الأوروبية تتدفق على منطقة الهلال الخصيب مرتع الجنس السامي ، فنزل فرع من هذا الجنس الآري وهم الحيثيون إلى سوريا الشمالية واستولوا على جلجميش وحلب وضربوا بابل بعد عزها القديم في عهد حامورابي ، ونزل فرع آخر وهم الكاسيون جنوباً من تلالهم الشمالية الشرقية في زاجوراس إلى السهول البابلية الخصبة وحكموا بابل عدة قرون بعد أن ضربها أقاربهم الحيثيون ، وواصل فرع ثالث وهم الخوريون التقدم جنوباً نحو سهل خابور ووسط الفرات حيث انشأوا مملكة ميتاني ، وتقدم فرع رابع وهم الهكسوس إلى مصر[1].

وقد تمكنت الشعوب السامية بعد صراع مرير من ارغام هذه التدفقات الآرية على الانحسار والارتداد نحو الشمال ، ولكن لم يلبث أن أخذ الضغط الآري يتجدد بشدة مرة أخرى خلال الألف الأول قبل الميلاد حين وقعت منطقة الشرق الأدنى تحت حكم الفرس ثم الأغريق فالرومان وظلت هذه السيطرة الآرية قرابة ألف عام حتى ظهر الاسلام الذي أعاد السيادة إلى العنصر العربي السامي ، ولذلك فعندما أهلت رايات الاسلام تحملها ثلة صغيرة من الفرسان العرب الفاتحين رحب بها المصريون رغم اختلاف الدين بينهم وبين العرب ووحدته بينهم وبين البيزنطيين الآريين ، أو كما يقول فيليب حتي « كان سكان

---

1) Glanville : The legacy of Egypt : the political approach to the classical World.

مصر يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بني جنسهم تربطهم بهم ما لا يربطهم بحكامهم البيزنطيين الأجانب الغاصبين، فالفتوحات الاسلامية من هذه الوجهة هي عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الأدنى مجده السامي الغابر، وجاء الاسلام مهيباً بالشرق الى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب »[1].

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب جـ ١ ص ١٩٤ .

[٢]

مصر ترحب بالفتح العربي

خلال القرنين الأخيرين من الحكم البيزنطي أي من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الميلاديين تدهورت أحـــوال مصر تدهوراً بالغاً لم يسبق له مثيل حتى في قمة عصر الاضطهـادات الوثنية . ولم تكن نظرة الحكام البيزنطيين المسيحيين إلى مصر تختلف في شيء عن نظرة أسلافهم الرومان الوثنيين ، فمصر في نظرهم ليست سوى أهراء قمح تمد القسطنطينية بالغذاء كما كانت تمد روما من قبل، ولا يهم بعد ذلك ما إذا استقر فيها الأمن أو اضطرب، سادت الرفاهية أو الشقاء ، وانما كل ما يهم الدولة وعمالها في مصر أن ينتزعوا آخر حفنة من القمح من قبضة الفلاحين المصريين الذين يقـــع على عاتقهم عبء الضرائب كاملاً بينما يعفى منه كلياً أو جزئياً الأجانب المقيمون في البلاد الناعمون بخيراتها من بيزانطيين ويونانيين ورومان ويهود .

وأخذت الكوارث تتوالى تباعـاً على مصر ، فاختل الأمن ، واضطربت الأحوال ، وأنتشرت عصابات اللصوص وقطاع الطرق ، وأغارت قبائل البدو والنوبة على أطراف البلاد ثم تناوشت قلبها ، وأدى ذلك إلى توقف الكثير من مظاهر الحياة المصرية المألوفة منذ آلاف السنين ابتداء من فلاحـة الأرض إلى زيارة المعابد والكنائس .

وفي عهد الامبراطور انستاسيوس (٤٩١ – ٥١٨ م) أغار الفرس على مصر ، وأحرقوا أرباض الاسكندرية ، وتحولت البلاد إلى ساحة دائمة للحرب والصراع .

وازدادت الامور سوءاً باشتداد الصراع في مصر بين الحزبين الأخضر والأزرق ، ولم يكن الخلاف بينهما على أي أسس مذهبية أو دينية أو مبدئية ، وانما هو مجرد صراع شخصي للحصول على المكاسب والامتيازات، وكان أنصار الحزبين يقتتلون في الشوارع ويرتكبون شتى أنواع الجرائم وهم بمنأى من العقاب .

غير أن أسوأ ما تعرض له المصريون في ظل الحكم البيزنطي تلك المظالم والاضطهادات التي كانت ترتكب في حقهم باسم الدين ، فقد كان المصريون يختلفون عن حكامهم البيزنطيين في المذهب الديني حول طبيعة المسيح هل هي إلهية وناسوتية كما يقرر مذهب الدولة الرسمي أم الهية فقط كما استقرت عليه الكنيسة المصرية منذ مجمع نيقية عام ٣٢٥ م ؟

هكذا أصبحت مصر خلال القرنين السابقين للفتح العربي ساحة للمعارك الدامية بين الأحزاب والمذاهب السياسية والدينية ، ومرتعاً للصوص وقطاع الطرق والمغيرين البرابرة، وأصبحت جرائم القتل شيئاً مألوفاً في شوارع المدن وأزقة القرى ، وانتشرت الأوبئة والمجاعات ، وما أن أهلّ القرن السابع الميلادي حتى كان أقباط مصر قد وصلوا إلى حالة تستحق أعمق الرثاء ، فقد انهارت قواهم الذاتية ، وتفرقت صفوفهم ، ودب فيها الفناء ، وبادت زراعتهم وتجارتهم وصناعتهم ، وحل بهم الجهل والقحط والوباء ، وفقدوا كل أمل في الخلاص ، وأصبحوا يرحبون بكل ما يمكن أن يخلصهم من هذه الشدة

المقيمة ، فرحبـوا أولاً بانقلاب هرقل ، ثم بالغزو الفـارسي ، وأخيراً بالفتح العربي .

* * *

عند مطلع القرن السابع الميـلادي كان يجلس على عرش القسطنطينية امبراطور فاسد كريه يدعى فوكاس ، كان قائداً للجند واستطاع بعد سلسلة من المؤامرات والمذابح أن يمتلي العرش عنوة واغتصاباً ثم صب جام ظلمه وبلاءه على الناس ، وبادله الناس في جميع أنحاء الامبراطورية كراهية بكراهية .

دفعت هذه الأحوال القـائد الشاب هرقل قائد حامية بنطابوس بشمال أفريقيا إلى شق عصا الطاعة على الامبراطور فوكاس وقـرر الزحف على القسطنطينية لاسقاطه . وقسم هرقل قواته إلى جيشين تولى هو قيادة أحدهما بحراً نحو القسطنطينية ، وتولى قيادة الجيش الآخر القائد نيسيتاس الذي اتبع طريق البر نحو مصر فالشام فآسيا الصغرى لتطويق قوات فوكاس البرية .

وعندما وصل جيش نيسيتاس إلى مصر قادماً من الغرب في عام ٦١٠ م رحب به المصريون وأعانوه على جند فوكاس بينما كان هرقل قد تمكن من اقتحام القسطنطينية والتغلب على فوكاس الذي لقي شر ميتة على يد جماهير الشعب في مذبح الثيران .

واستقر الأمر لهرقل على عرش الامبراطورية فأقر نيستياس في حكم مصر ، وأراد نيسيتاس أن يرد جميل المصريين الذين أعانوه على النصر فأحسن معاملتهم واطلق سراح سجنائهم ، وأبدى كثيراً من التسامح نحو مذهبهم الديني، وسمح

---

(١) المرجع الاساسي للاحداث السابقة على الفتح العربي : بتلر : فتح العرب لمصر ترجمة فريد أبو حديد .

لهم ببناء الكنائس ومزاولة عبادتهم بأمن من الاضطهاد ، كما عقد صلحاً بين الحزبين الأخضر والأزرق، وأدت هذه الاجراءات إلى استتباب الأمن والنظام، وتنفس المصريون الصعداء .

وخلال حكم نيسيتاس تولى أمر الكنيسة الملكانية البيزنطية في مصر البطريرك حنا الرحوم الذي اشتهر بطيبته وعدله فأحل روح الوفاق بين الكنيستين الملكانية واليعقوبية وأحبه المصريون حتى لقد رفعته الكنيسة القبطية إلى مرتبة قديسيها ، وكان الود بين حنا الرحوم بطريرك الملكانيين وانستاسيوس بطريرك القبط اليعقوبيين مضرباً للأمثال .

ولكن هذه البحبوحة السياسية والدينية لم تستمر سوى سنوات قليلة ، وسرعان ما هبت تلك العاصفة الجائحة من الشرق .. غزو الفرس .

ففي أوائل العقد الثاني من القرن السابع الميلادي خرجت جيوش كسرى امبراطور الفرس تجتاح أملاك الامبراطورية البيزنطية غرباً ، وكان العداء بين الامبراطوريتين قديماً مستحكماً يثور أحياناً ويخمد أحياناً ويتبادل الطرفان الهزائم والانتصارات ، ولكن في هذه المرة كان الفرس يضمرون توجيه الضربة القاضية للامبراطورية البيزنطية ، فجهز كسرى قوات غفيرة العدد وافرة العدة وخرج من عاصمته المدائن قاصداً تحطيم خصمه في عقر داره ، واكتسحت القوات الفارسية كل شيء في طريقها حتى وصلت إلى أرمينيا فانقسمت إلى جيشين واصل أحدهما الاندفاع غرباً متوغلاً في آسيا الصغرى نحو القسطنطينية واتجه الآخر جنوباً نحو الشام ومصر .

واستطاع هرقل بعد جهد كبير أن يوقف تقدم الجيش الفارسي عن أسوار القسطنطينية ، ولكنه لم يستطع أن يرده على أعقابه ، وبقي هرقل محاصراً داخل أسوار عاصمته لا يتعداها بينما اجتاحت القوات الفارسية كل أملاك

الامبراطورية البيزنطية جنوباً دون مقاومة ، فاستولت على الشام واقتحمت بيت المقدس واستولى الفرس على الصليب المقدس من مستقره بكنيسة القيامة وأعملوا المذابح في المسيحيين ففر الكثيرون منهم إلى مصر والجزيرة العربية هرباً من الفرس عبدة النار .

وبعد استيلاء الفرس على الشام في عام ٦١٧ م تقدم جيش فارس بقيادة القائد شاهين إلى مصر فاستولى بلا مقاومة على العريش والفرما وممفيس والدلتا ثم وقف عاجزاً أمام اسوار الاسكندرية المنيعة فانتقم بتدمير كل المناطق المحيطة بالمدينة وكانت ذاخرة بالكنائس والاديرة القبطية ، وبعد حصار طويل تمكن الفرس من اقتحام المدينة عن طريق البحر بفضل خيانة يهودي أجنبي مقيم بها ، وعندما اقتحم الفرس الاسكندرية وكانت عاصمة البلاد فر الحاكم نيسيتاس والبطريرك حنسا الرحوم على ظهر سفينة قاصدين القسطنطينية ، وانتهى بذلك عصر قصير استنشق فيه المصريون نسيم العدل والتسامح .

ويؤكد بتلر استناداً إلى ادلة كثيرة ان القبط لم يساعدوا الفرس على غزو بلادهم ولم يرحبوا بهم في أول عهدهم خلافاً لما يشاع ، وقد رد الفرس على مقابلة المصريين لهم باضطهاد رجال الدين الاقباط اضطهاداً بالغاً فاشبعوهم قتلاً ونكالاً ، وخربوا كنائسهم وأديرتهم ، وصعدوا في النيل جنوباً ينشرون الدمار حولهم فلم تكد تنجو من شرهم بلدة أو قرية على ضفتي النيل حتى أسوان .

ولكن الامور تحسنت بعض الشيء مع استقرار الحكم الفارسي في مصر ، والغريب ان الفرس الذين اشتهروا بالوحشية في الحرب اشتهروا بالتسامح في زمن السلم ، وكان كسرى رغم عدائه للدولة البيزنطية يكن احتراماً للدين المسيحي وبخاصة المذهب المونوفيسي الذي يعتنقه الاقباط المصريون والطوائف الشرقية المسيحية حتى انه حاول أن يفرضه كمذهب أوحد لجميع المسيحيين في

امبراطوريته ولذلك لم يحاول الفرس ارغام المصريين على التخلي عن عقـائدهم بل أمنوهم إلى حد بعيد على دينهم ودنياهم واتسم حكمهم بالتسامح والرحمـــة وسمحوا للمصريين بتولي الوظائف العامة في ادارة بلادهم بعد رحيل البيزنطيين عنها ، وفي عهدهم ارتقى كرسي المكرازة المرقسية الانبا بنيامين الشهير الذي شهد احداث الفتح العربي فيما بعد .

وما كاد المصريون يلتقطون أنفاسهم خلال الحكم الفارسي الذي استمر عشر او اثني عشر عاماً حتى ردوا مرة اخرى إلى ابشع الشقاء عندما استعاد الروم البيزنطيون مصر من أيدي الفرس .

وقد كان انتصار الروم على الفرس آخر الأمر شيئاً أشبه بالمعجزة ، فقـد رأينا كيف اجتاحت الجيوش الفارسية الامبراطورية البيزنطية واختصرتها إلى حدود عاصمتها مما أسقط في يد الامبراطور هرقل وظـل عاجزاً عن التصرف زهاء عشر سنوات ، وحاول هرقل أن يحصل على السلم بأي ثمن، فبعث رسولاً إلى كسرى يعرض عليـــه الصلح ، ولكن كسرى رد على رسول هرقل رداً خشناً بقوله « قـل لمولاك أن دولة الروم من أرضي ، وما هو إلا عاص ثائر ، وعبد آبق ، ولن أمنحه سلاماً حتى يترك عبادة الصليب ويسجد للنار » وفكر هرقل في الفرار أو في نقل مقر حكمه إلى شمال أفريقيا . ولكن سرجيوس بطريرك القسطنطينية استطاع أن يثنيه عن عزمه ويحضه على الجهاد ، وبعد تردد وتخاذل طويلين قرر هرقل الامتثال لرأي البطريرك ، ورفع راية الجهاد ضد الفرس ، وانتشرت الحمية الدينية في نفوس المسيحيين ، فتقاطروا على حمل السلاح ، واستطاع هرقل بخبرته وحنكته في تنظيم الجيوش اعداد جيش قوي يضم ١٢٠ الف مقاتل بدأ به مسيرة الجهاد يوم عيد الفصح عام ٦٢٢ م .

دامت الحرب سجالاً بين الفريقين ست سنوات متعاقبة وانتهت بانتصار

الروم نصراً مبيناً ، وتقهقرت فلول جيش كسرى إلى مدينة وستجرد الفارسية التي لا تبعد عن العاصمة المدائن بأكثر من ثمانين ميلاً ، وعندئذ حاول كسرى الهرب لنجاة بنفسه ، ولكن خليفته شيرويه قبض عليه وقتله وأحرق قصره ودخل في الصلح مع الروم ، وعاد هرقل حاملاً الصليب المقدس فدخل القسطنطينية مظفراً منصوراً وأعلن النصر المؤزر على منبر كنيسة أيا صوفيا .

وبعد كسر شوكة الفرس بعث هرقل جيشاً إلى مصر في شتاء عام ٦٩٢ م أعاد فتحها بسهولة .

وهكذا تحققت تلك النبوءة العجيبة التي خرجت من أقصى الجنوب ، من بلاد العرب القاحلة ، قبل بضع سنوات عندما نزل الوحي على الرسول العربي محمد بالآية الكريمة « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » ، ومن اعجاز القرآن أن تنزل هذه الآية والفرس في ذروة انتصارهم وبينما كان العرب الوثنيون في قمة شماتتهم بالمسلمين لهزيمة الروم وهم أصحاب كتاب أمام الفرس وهم عبدة أوثان !

وعزم هرقل على أن يكلل نصره الخارجي بتحقيق وحدة الامبراطورية في الداخل ، وقرر أن يضع حداً للانقسامات الدينية التي تمزق امبراطوريته فطلب من كبار رجال الاكليروس ايجاد صيغة توفيقية بين مذهب الطبيعة الواحدة ومذهب الطبيعتين ، وتوصل هؤلاء إلى صيغة توفيقية تعرف بالمذهب « المونوتيلي » تقوم على الاعتراف بأن للمسيح ارادة واحدة ومنع الخوض في ماهية طبيعته نفسها وهل هي واحدة أم ثنائية .

لقد أريد بهذه الصيغة أن تكون مخرجاً عملياً من تيه الخلاف المذهبي حول طبيعة المسيح وما يرتبط بها من تخريجات ميتافيزيقية وفلسفية لا نهاية لها ولا

جدوى من ورائها ، ثم هي تقدم في نفس الوقت حلاً يرضي أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة الذي يعتنقه أقباط مصر ، بـــل هي في الواقع تنطوي على تنازل واضح لهم ، فما دامت للمسيح ارادة واحدة – كما يقول المذهب المقترح – فلا بد أن تكون هـــذه الإرادة إلهية لأنها لا يمكن أن تكون إرادة إنسانية فحسب لأن القول بذلك ينفي ألوهية المسيح ، وفي هذا انهيار للفكرة الرئيسية التي تقوم عليها المسيحية .

وبعث هرقـــل بأسقف فاسيس المدعو قيرش وهو من كبار رجال الدين الملكانيين وأحد الذين اشتركوا في وضع صيغة التوفيق إلى مصر ليتـــولى بطريركية الاسكندرية وزوده كذلك بالسلطة الزمنية ، وأمره بأن يسعى إلى تحقيق وحدة المذهبين المونوفيسي والملكاني في المذهب المونوثيلي الواحد .

تولى قيرش أسقف فاسيس كرسي البطريركيـة الملكانية بالاسكندرية في خريف ٦٣١ م وكله ثقة وأمل في انجاز مهمته ، ولكن سرعان ما اتضح ان مهمته كانت أصعب مما يتصور ولم تلبث ان اسفرت عن نتيجة عكسية تماماً ، فبدلاً من أن تكون وسيلة لتوحيد الكنائس المسيحية زادت من هوة الخلاف بينها ، وقطعت آخر خيط واه يصل بين المصريين وحكامهم البيزنطيين .

لقد خيل لقيرش في البداية انه يحرز نجاحاً مطرداً في مهمته التوفيقية التي توسل لتحقيقها بكافة سبل الاقناع والخداع والشدة ، وكان يبالغ في وصف هذا النجاح لهرقـــل ويصور له أن حلمه على وشك أن يتحقق وان الوئام سرعان ما سوف يحل بالكنيسة المنشقة ، ولكن الأمور كانت في الواقع تسير على عكس ما يشتهي ويتوقع .

لقد كان المذهب المونوثيلي الجديد يعد في جوهره تنازلاً للكنيسة القبطية لأنه في التحليل الأخير يعترف بالوهية المسيح حين ينفي ان ارادته ناسوتية ،

ولم يكن المطلوب من المصريين سوى أن يكفوا عن البحث في طبيعة المسيح وكنهه غير أن أقباط مصر بما درجوا عليه من صلابة وعناد رفضوا أن يفعلوا ذلك بل قالوا ما دام هذا المذهب يعترف بأن إرادة المسيح إلهية واحدة فلماذا لا يعترف كذلك بأن طبيعته إلهية واحدة ؟ لا بد أن في الأمر خديعة ما !

ويقول بتلر ان هذا الموقف لم يكن مرجعه أسباباً دينية أو منطقية بقدر ما يرجع إلى أسباب قومية ، فقد كان الهدف اللاشعوري للمصريين التمسك باستقلالهم الديني أو المذهبي عوضاً عن الاستقلال القومي الذي فقـــدوه منذ قرون .

كان يــــلي كرسي الكرازة المرقسية في ذلك الحين الانبا بنيامين وهو من أقوى آباء الكنيسة القبطية في كل العصور وكان شخصية شعبية محبوبة بقدر ما كان صلباً في الحق لا تلين له قناة ، وعقد الانبا بنيامين مجمعاً لرجال الدين والشعب بالاسكندرية حثهم فيه على الثبات على عقيدتهم إلى أن توافيهم المنية ، وتنبأ بموجة قاسية من المحن والاضطهادات تستمر عشر سنوات وبعدها ينجلي الغم ، وكتب بنيامين إلى جميع الأساقفة والقسس يأمرهم أن يلوذوا بالصحارى والجبال حفاظاً على عقيدتهم الدينية ، وخرج هو إلى الصحراء الغربية ومنهـا إلى الصعيد حيث استقر في دير صغير بالقرب من قوص .

وأطلق قيرش آخر سهم في جعبته ، فوضع صيغة توفيقية أخرى للمذهب المونوثيلي الجديد ، ولكن المصريين لم يروا فيها إلا أنهـا أكثر كفراً وقبحاً من الصيغة الأولى . وهنـا استشاط قيرش غضباً ، وفقـد كل المقدرة على الصبر والملاينة ، فرمى المصريين بأقبح الصفات ، وتخلى عن محاولة اقناعهم بالمذهب الجديد في أية صورة من صوره وأمرهم باعتناق مذهب الطبيعتين نفسه كما أقره

بجمع خلقدونيا بدون قيد أو شرط .. وبدأت الاضطهادات التي تنبأ بها الانبا بليامين .

وكانت هذه الموجة من الاضطهادات أشد وأنكى من أية اضطهادات شهدها المصريون من قبل ، فقد سالت دماء القسس والرهبان ، وغصت بهم السجون ، وهدمت الكنائس والبيع وتعرض المصريون عموماً لشر النكال .

ومن صور هذه الاضطهادات التي تزخر بها كتب التاريخ أن الجند البيزنطيين القوا القبض على ميناس شقيق الانبا بليامين في الاسكندرية ، وأخذوا يلسعونه بنيران المشاعل « حتى سال الدهن من جنبيه على الأرض » ثم نزعوا أسنانه واحدة وراء الأخرى ، ولكنه لم يتزحزح عن عقيدته فوضعوه في زكيبة مثقلة بالرمل وتوغلوا بـه في البحر ، وعرضوا عليه النجاة ثلاثاً ان هو أقر بمذهب خلقدونيا ، فرفض ، فألقوا به حيث استقر في قاع البحر .

وسيق الراهب صمويل القلموني – بعد أن تزعم تمرداً قام به رهبان دير قلمون – إلى قيرش وهو مقيد اليدين من خلاف وقد وضعوا في عنقه طوقاً من الحديد يسحبونه منه ، وأمر قيرش جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ، وسأله لماذا يحرض الرهبان وينكر مذهب الطبيعتين ، فرد عليه الراهب قائلاً وهـو يعرف أن مصيره هو الموت : « ان البر في طاعة الله والبطريرك بنيامين وليس في طاعة قيرش والدخول في مذهبه الشيطاني، يا سلالة الشيطان ! يا أيها المسخ الدجال ! » .

ودبر المصريون مرة مؤامرة للتخلص من قيرش نسجوا خيوطها في كنيسة دفاشير بالقرب من مريوط ، ولكن خبر المؤامرة نمى إلى السلطات فهاجم جند

قيرش كنيسة دفاشير ، وساقوا المتآمرين إلى التنكيل والقتل الجماعي بدون محاكمة أو تحقيق .

وبلغ من قسوة الاضطهادات ان كان الاقباط يلقى بهم أحياناً في الحمامات العامة لتكون لحومهم وعظامهم وقوداً لنيرانها .

ولكن كل ألوان العقاب والنكال من قتل واحراق وسجن وتعريض للسع العقارب لم تزد المصريين كعادتهم إلا صلابة وعناداً ، فجاهروا بالعداء لقيرش وهرقل ، وصبوا عليهما الشتائم واللعنات ، ولعن قيرش في وثائق الكنيسة القبطية بأنه كافر وزنديق ومسيخ دجال ، وكان بنيامين – وقد بث قيرش حوله العيون والأرصاد – يتنقل في الخفاء من دير إلى دير في الصعيد وفيما في الصحراء يشد أزر شعبه ، ويحث على المقاومة والصمود ، واستمرت موجة الاضطهادات عشر سنوات – كما تنبأ بنيامين – قتل خلالها خلق كثيرون ، وارتد البعض عن عقيدتهم تحت الوعد والوعيد ، وهدمت معظم الكنائس القبطية ونهبت كنوزها وذخائرها ، واستحكمت العداوة والبغضاء استحكاماً تاماً في نفوس المصريين تجاه جلاديهم البيزنطيين ، وصاروا يتطلعون إلى أية قوة تنقذهم من هذا البلاء المقيم .

وفجأة ، وفي قمة اليأس القاتل فتح باب الخلاص على مصراعيه بمقدم الفاتح العربي عمرو بن العاص ..

* * *

لم تكن هناك قوة واحدة في مصر راضية عن الوضع القائم أو تستطيع الدفاع عنه ان هو حاز رضاها ، فجميع القوى اما مؤيدة للفتح العربي ، أو غير قادرة على صده ، أو تقف منه موقف الحياد .

فالمصريون – كما رأينا – وهم اصحاب البلاد الحقيقيون والشرعيون والسواد الأعظم من سكانها كانوا يكرهون حكامهم البيزنظيين كراهية لا حد لها ويتوقون للخلاص منهم بأي ثمن وهم لا ينقمون فحسب على رؤساء الدولة في القسطنطينية وممثليها وجندها في مصر بل ينقمون كذلك على المستوطنين الروم المحليين الذين يستأثرون دونهم بمناصب البلاد وخيراتها ويقفون منهم موقف الغطرسة والغرور .

ويقال ان الانبا بنيامين رأى في منامه قبيل الفتح ان مصر ستفتح لأناس مختونين تجد خلاصها على أيديهم ، وذكر ابن عبد الحكم صاحب أقدم كتاب عن فتح مصر أن الانبا بنيامين عندما بلغه مقدم عمرو بن العاص جمع أساقفته وأبلغهم انه لا تكون للروم دولة في مصر ، وأن ملكهم قد انقطع وأمرهم بتلقي عمرو . والثابت ان القبط كانوا عوناً للعرب في فتح بلادهم خاصة عندما زحف عمرو إلى الاسكندرية فكانوا يرممون لهم القناطر والجسور ، ويحضرون لهم المؤن والمعلومات المفيدة ، ويحاصرون معهم قلاع البيزنطيين ويحولون دون اتصالها سوياً . وفي هذا يقول ابن عبد الحكم « فخرج معه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الطرق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم [١] » .

وإلى جانب المصريين كان يسكن البلاد زمن الفتح العربي عدد كبير من اليهود يقدر بنحو مائتي الف وهؤلاء أيضاً كانوا من القوى المناوئة للسلطة البيزنطية فهم يحملون لها غلاً قديماً بسبب ما لقوه من اضطهادات وتشريد على

---

(١) الرافعي وعاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٣٦ .

يدها ويد سابقتها الدولة الرومانية الغربية ، وفي عهـــد فوكاس الذي انتقض عليه هرقل تعرض اليهود في مختلف أنحاء الامبراطورية البيزنطية لموجة جديدة من الاضطهاد ، وكان فوكاس يأمر بتعميدهم كمسيحيين كرهــاً وقتل كل من رفض منهم الدخول في المسيحية ، وعندما اعتلى هرقــل عرش القسطنطينية أمل اليهود في الراحة واستقبلوه عند مقدمه إلى بيت المقدس واستطاعوا أن يستخلصوا منه عهداً بالأمــان ، ولكن اليهود لم يلبثوا أن ظاهروا الفرس في حربهم ضد هرقل ، وعندما استرد هرقل بيت المقدس وعرف ما فعله اليهود بالمسيحيين أثناء الاحتلال الفارسي أوغر صدره ضدهم ، واقنعه رجــال الدين المسيحي بانتقاض عهده لهم على أساس أنه منحهم إياه قبل أن يعرف بجرائمهم ، وتعهدوا له بالصوم نيابة عنه اسبوعاً كل سنة تكفيراً عن ذنبه ، فأعلن هرقل انتقاض عهده لليهود ، وأعمل فيهم مذبحة كبرى أبادتهم في فلسطين ، ومن نجا منهم إلى مصر وغيرها من بـــلاد المنطقة فكانوا عند الفتوحات الإسلامية يحملون سخيمة كبرى للروم [1] .

وكانت ثمة قوة ثالثــة تقطن مصر زمن الفتح العربي وأصبحت عوناً للعرب الفاتحين وهي قوة البدو المنحدرين من أصول عربية قديمة أو حديثة ، وهؤلاء كانوا يسمون بالبشموريين ويقيمون في الحوف الشرقي على اتساع المراعي الواسعة على تخوم الصحراء الممتدة بين البحيرات الشمالية وأودية الجنوب ، وقد عاونوا العرب الفاتحين كما عاونهم بدو الشام ، ويقول الاستاذ العقاد : وإذا لاحظنا أن بادية الفيوم كان يسكنها أناس يتكلمون بلهجة بشمورية علمنا أن أقسام البادية

---

(١) عباس العقاد : عمرو بن العاص ص ١٣٠ - ١٣٣

العربية لم تتغير كثيراً من قديم الزمن وأن عمرو بن العاص قصد الفيوم قبل منف على علم بأصول هذه السلالة [١] .

أما القوة الرابعـــة فكانت قوة المستوطنين الروم وهؤلاء لم تكن تربطهم بالدولة البيزنطية وحدة الوطنية أو القومية بل رباط المصلحة في المحل الأول والمذهب الديني في المحل الثاني ، فهم لم يكونوا من جنس واحد ، بـــل كانوا مزيجاً من الروم واليونان والسريان ومختلف العناصر ذات الثقافة الهللينية المسيحية التي تقاطرت على مصر في أزمنـــة مختلفة ، وكانوا يعتمدون على القسطنطينية وجندها للمحافظة على مصالحم المحلية في مصر وللتغلب على أية مقاومة يبديها المصريون ولذلك كانوا القوة الوحيدة التي أبدت إلى جانب الجنـــد البيزنطي مقاومة ضئيلة للفتح العربي ، ولكنهم في الواقـــع كانوا قد خسروا الحرب قبل أن تبدأ ، فقد استقر في أعماقهم أن الهزيمة لا محالة من نصيبهم ، وان النصر لا جدال في صالح العرب ، كان اعتقادهم الراسخ أن العرب لا يقهرون ، فها هم قد انتصروا على هرقل في الشام وهو في أوج قوته وانتصاراته الفارسية فكيف يمكنه الصمود الآن في مصر وهو في شيخوخته وهزيمته وضعفه ؟

والواقع انه قد وقر في أذهان الروم جميعاً في شتى أنحاء الامبراطورية انهم خطاة آثمون ، وأن العرب سوط عـــذاب به يقتص الله منهم جزاء اثمهم وخطاياهم ، ولقد قيلت هذه العبارة صراحة في مؤتمر انطاكية وعلى مسمع من هرقل الذي كان يشعر شخصياً بأنه غارق في الخطيئة بسبب علاقته المحرمـــة بابنة اخته مارتينا .

وفي نفس الوقت كانت أخبار الفتوح الإسلامية تصل إلى أسماع المصريين

---

(١) المرجع السابق : ص ١٣٤ .

أولا بأول ، ها هم العرب يهزمون الروم والفرس ، ويقوضون الامبراطوريات العاتية ،وينتصرون في السهل والجبل دون أن تستطيع قوة أن تقف في وجههم ، وهم إلى جانب ذلك حملة عقيدة سمحاء ، ويسيرون بين الناس بالرحمة والعدل ، ان الخليفة العربي عمر بن الخطاب يرفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لايطالب بها المسلمون من بعده ، ويعطي عهداً بالامان لبطريرك بيت المقدس ، ثم أن العرب من قبل ومن بعـــد أبناء عمومة المصريين فهم ابناء اسماعيل من هاجر المصرية ، وأقرب اليهم من أي جنس آخر ، وها هو النبي العربي يستوصي بأقباط مصر خيراً فان لهم ذمة ورحمة .. وهكذا كان المصريين مهيأين تماماً لاستقبال الفتح العربي والتعاون مع الفاتحين .

تعريب مصر

[٣]

عندما استتب الأمر لعمرو بن العاص في مصر ودانت له البلاد حتى الاسكندرية استهل عهده بأن أرسل يستدعي الانبا بنيامين من صومعته في البرية ، وبعث اليه عهداً يؤمنه فيه على حياته وحياة القبط ويطلب منه العـــودة إلى كرسيه ومباشرة شئون كنائسه ، ثم أعلن عمرو على رءوس الاشهاد بعد ان التقى بالبطريرك بنيامين انه لم يشاهد في حياته كلها كاهناً مسيحياً أطهر ذيلا وأنقى صحيفة وأجل منظراً منه[١].

هذا الموقف يذكرنا على الفور بموقف الاسكندر الأكبر بعد فتح مصر عام ٣٢٣ ق.م. فقد كان المصريون عند دخول الأسكندر يئنون تحت النير الفارسي الذي أذلهم وقضى على كرامتهم وقوميتهم وسحق ثوراتهم بدون رحمة ، ولذلك استقبل المصريون الاسكندر كمنقـــذ ورسموه فرعوناً بهذه الصفة ، واحترم الاسكندر تقاليد المصريين عرفاناً منه بحضارتهم العريقة التي كانت ماثلة بقوة

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب جـ ١ ص ٢٢٠

د. حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبانية والديرية المصرية ص ٢٦٥ .

في ذهنه الأغريقي رغم مظاهر اضمحلالهم المتأخر . وكذلك كان دخول عمرو بن العاص مصر بعد قصة اضطهاد مرير على أيدي البيزنطيين ، فقد وجـــد المصريون في الفتح العربي خلاصاً لهم ، وكان عمرو - مثلما كان الاسكندر - يذكر ما لمصر من شهرة أسطورية ، ويذكر الكلمات الطيبة التي قالها الرسول عن القبط وتوصيته بهم خيراً ، فأحسن معاملتهم ، ونعم المصريون في عهـده بحالة من الحرية الدينية والمدنية لم يألفوها من زمن طويـــل ، فارتفع عنهم اضطهاد البيزنطيين، وسمح لهم ببناء الكنائس وخصصت دخول سنوية لأديرتهم، ويعترف المـؤرخ سيرتوماس أرنولد بأن أقباط مصر الذين ذاقـوا الأمرين في العصر البيزنطي وجدوا في الاسلام حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان[1].

وسار عمرو في سياسته بمصر بالعدل راعياً العهد الذي قطعه لأهلها ، وكان يعرف جيداً ماذا تصلح به هذه البلاد التي يسمى فيها القيراط كا قال رسول الله ، فهو القائل في خطاب بعث به الى الخليفة عمر بن الخطاب « والذي يصلح هذه البلاد وينميها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال »[2].

وحرم عمرو أن يؤذى المصريون في أجسامهم استيفاء للضرائب ، وتعهد بأن لا يزيد عليهم الضرائب وهي جنيهان للرأس فيما عدا الشيخ والمرأة والطفل، واتبع عمرو هذه السياسة بدقة حتى لقد حاسبه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان على قلة خراج مصر وعزله الثاني لهذا السبب ، وعندما قال له عثمان بعد أن ولى عبدالله بن ابي سرح على مصر وبعث هذا مزيداً من الخراج « أرى اللقاح

---

(١) الرافعي وعاشور ص ٣١

(٢) عباس العقاد : عمر بن العاص .

(البقرة) قد درت من بعدك يا عمرو » أجابه قائلاً « حين أعجفتم فصالهـا » وفي رواية أخرى «ولكنها أضرت ببنيها » وحين عزل عمرو بعد ولايته الأولى لم يتخلف عنده من المال ما يغنيه لفرط عدله وعفة يده وإلا ما قال لـه عثمان « أرى جبتك قملت منذ عزلناك »[1].

ولا شك أن هذه السياسة العادلة فتحت قلب المصريين للقادمين بعقيدتهم الجديدة وأسلوبهم الجديد .

ولأول مرة منذ زمن طويل أصبح للمصريين دور في ادارة بلادهم رغم انعقاد السيادة لحكام جدد ، فقد استخدم العرب الفاتحون القبط في كثير من الوظائف والشئون وبخاصة في جمع الضرائب والأعمـال الحسابية ، وأحلوهم في إدارة بلادهم محل الروم الذين غادروا البلاد تباعاً ، وأبقـوا من كان منهم في وظائف عامة قبل الفتح العربي في نفس وظائفهم وأعمالهم ، فكان منهم حكام للكور ورؤساء للدواوين بالاضافة إلى شتى الوظائف الصغيرة، ومن هؤلاء عامل يدعى ميناس استبقاه المسلمون في عمله كحاكم للمنطقة الشماليـة ، وآخر يدعى شنودة وكلت اليه حكومة الريف ، وثالث تولى حكومة الفيوم ، وكان بالحكومـة المركزية في الفسطاط كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ومصر السفلى ، وبرز في عهد مروان بن عبد الحكم كاتب قبطي يدعى اثناسيوس الرهاوي بلغ درجة الرئاسة على ديوان الاسكندرية ، وتلقب في المكاتبات الرسمية بلقب الكاتب الافخم وكان بديوانه تحت رئاسته عشرون كاتباً زيدوا الى أربعـة وأربعين ، وفي عهد عبد العزيز بن مروان كان والي الصعيد قبطياً اسمه بطرس ، وحاكم

* * *

(١) المرجع السابق

مريوط قبطياً اسمه تاوفانس[1].

تلك هي الخلفية العامة التي صحبت دخول المصريين في الاسلام بعد الفتح العربي ، ولا جدال في ان الاسلام لم ينتشر سواء في مصر أو غيرها بالقـــوة والارهاب، وكما يقول بتلر إذا كانت ثمة ظاهرة انتشرت بقوة السلاح فهي سيطرة العرب السياسية وليست عقيدتهم الدينيه .

وقد بدأ دخول المصريين في الاسلام في وقت مبكر يعود الى زمن الفتـــح نفسه ، لقد أسلم فريق من أسرى الاسكندرية عندما خيروا بين الاسلام وإداء الجزية ، كما أسلم عدد من الأقباط وصحبوا الجيش العربي في تحركاته ، وما ان استقر الوضع الجديد حتى اطردت حركة الدخول في الإسلام ولم تنقطـــع أو تتوقف الى أن أصبح للاسلام الاغلبية الساحقة في مصر .

ولقد حاول بعض المستشرقين تفسير هذه الحركة برغبة القبط في الخلاص من الجزية، ولكن هذا التفسير ليس له ما يؤيده، وقد حدث أن الوالي الأموي بشر بن صفوان استعظم تناقص الخراج بسبب كثرة الخارجين عن النصرانية الى الى الاسلام واراد أن يضع حداً لهذه الظاهرة وأنبأ الخليفة عمر بن عبد العزيز بذلك ، فأغلظ له عمر القول والمعاملة ، وقال له مؤنباً ان الله قد بعث محمـداً هادياً لا جابياً. وإذا كان الاسلام يعفي المسلم من الجزية فانه يفرض عليه الزكاة— وهي ضريبة لا تكاد تقل عن الجزية وقد تفوقها — كما أنه لا يعطيه من خراج الأرض ، ويوجب عليه الجهاد أو التجنيد بينما يعفى منه الذمي ، ومعنى ذلك انه لم يكن هناك تخفيف ذو بال يدفع الذميين الى دخـــول في الاسلام ، ثم ان الاقبال على الاسلام لم يقتصر على فقراء القبط وحدهم بل انتشر بنفس القوة بين

---

(١) الرافعي وعاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٣٧ .

د . احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ٣١ - ٣٢ .

سراتهم ووجهائهم ، وقد كانت الجزية دينارين في العام ولا يعقل أن يترك أحد دينه ومعتقداته تهرباً من إداء هذا المبلغ الضئيل لا سيما ان المصريين الأقباط قد عرفت عنهم الصلابة في العقيدة والعناد في الرأي زمن الاضطهادات البيزنطية، وهم إذ يدفعون الآن دينارين كجزية بعد الفتح العربي فقد أعفـوا من ضرائب ثقيلة متعددة كانوا يدفعونها من قبل للبيزنطيين .

والحقيقة ان سر اقبال المصريين على الاسلام تابع مما يتمتع به هذا الدين من قوة استقطاب كبرى نظراً لبساطته وتقدميته واحكامه لا سيما وقد اقترن بعدل الفاتحين ونظرتهم الإنسانية الواسعة، لقد بدا الاسلام في ذلك العصر أشبه بسراج وهاج يخلب نوره الابصار وتهفو اليه الافئدة هرباً من ظلمات تلك العصور الى نور المستقبل ، فالاسلام لم ينتشر في مصر أو غيرها من الاقطار المفتوحة أو في بلاد العرب نفسها نتيجة للضغط والارهاب، والتسامح الديني في الاسلام وشعاره « لا اكراه في الدين » فوق الشبهات ، والذي حدث ان النفوس تاقت للاسلام تنسماً لعبير الحرية والكرامة والانسانية كما تتوق الزهرة إلى الضوء الذي ينميها، ولنذكر مثلاً تلك القصة التي أصبحت مثلاً وعنواناً على عدل المسلمين في مصر وهي قصة المصري الذي ضربه محمد بن عمرو بن العاص لأن فرسه فازت في سباق دون فرسه ، وكيف اقتص الخليفة عمر بن الخطاب المصري من عمرو بن العاص وابنه ، ثم قال عبارته الخالدة « أيا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقـــد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » هذه القصة لا بد أن كان لها وقع السحر حين شاعت بـين المصريين وهي كفيلة دون شك أن يكون لها أثر في تحبيب الناس في الاسلام ودفعهم اليه أكبر من أثر عشرات الدعاة والمبشرين في الوقت الذي لم يعرف فيه الاسلام نظام التبشير .

ويعتقد كثير من المؤرخين أن من بـــين العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام في مصر ضيق المصريين والمسيحيين الشرقيين عموماً بالخلافات المذهبية في

المسيحية وشدة المظالم التي صحبتها ، فقد زعزعت هذه الخلافات ثقة المسيحيين في عقائدهم ، وإذا كان المصريون قد تمسكوا حتى الموت بالمذهب الارثوذكسي اليعقوبي في مواجهة الروم فقد كان هدفهم الخفي التمسك بوطنيتهم والحفاظ على كيانهم من الضياع والآن وقد زال هذا المبرر بزوال الاضطهاد الروماني فقد ضعف بالتالي مبرر تمسكهم بالمسيحية أصلاً ، وأقبلوا على العقيدة الجديدة السهلة المبرأة من الجدل السقيم .

ويقول المستشرق الايطالي كيتاني واصفاً اقبال المسيحيين الشرقيين على الاسلام : « فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية وتزعزعت قواعدها الأساسية واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك الحالة قادرة على مقاومة اغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل وحينئذ ترك الشرق المسيحية وارتمى في احضان نبي بلاد العرب »[1].

وظل الاسلام ينتشر في مصر باطراد لا سيا بعد أن استوطن المهاجرون العرب الريف واختلطوا بالمصريين على نطاق واسع ، ولكن انتشاره لم يكن بمعدل منتظم بل كان يسرع أحياناً ويبطيء أخرى تبعاً لعوامل مختلفة ، ومن الفترات التي سجل فيها التاريخ زيادة كبيرة في معدل الدخول في الاسلام السنوات الأربع بين عامي ١٢٤ – ١٢٨ هـ [٧٤١ – ٧٤٥ م] إذ اعتنق الاسلام في هذه الفترة أربعة وعشرون الف قبطي[2]. وكذلك سنة ١٣٨ هـ [٧٥٥ م]

---

(١) مقتبسة في كتاب « الدين العالمي » للشيخ عطية صقر ص ٦٦

(٢) د . احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ٤٣ .

فقد شهدت اسلام الكثيرين من أهل الذمة في مصر حتى لقد أسلم منهم في قليوب وحدها ٤٥٠ شخصاً في يوم واحد[١]، ومنذ القرن الثالث الهجري أخذ عدد المسيحيين في مصر يتناقص ولم تعد لهم الأغلبية العددية ويعتبر عصر الحاكم بأمر الله [٨٦ - ٤١١ هـ] نهاية للنفوذ المسيحى في مصر[٢]، وتبدو ظاهرة التحول إلى الاسلام واضحة من استقراء أوراق البردي المصرية في صدر الاسلام، فأوراق القرن الأول الهجري تكثر فيها أسماء المسيحيين في العقود الرسمية والمعاملات المختلفة ، ثم تقل أسماء المسيحيين تدريجاً في أوراق البردي خلال القرن الثاني حتى تصبح الغلبة الساحقة لأسماء المسلمين في أوراق القرن الثالث الهجري [٣].

* * *

لم يكن تحول غالبية المصريين إلى الاسلام هو ما دفع مصر نهائياً إلى كنف العروبة ، فقد أسلمت شعوب كثيرة في مختلف انحاء المعمورة ودخلت في حكم العرب دون ان تصبح عربية ، ولنضرب مثلاً بفارس التي لم تعرب رغم دخولها في السيطرة الدينية والسياسة العربية ، وفي ذلك يقول فيليب حتي « ان روح الفرس الدفينة لم تمت رغم الحكم العربي ورغم دخولهم الاسلام لقد غلبوا على أمرهم سياسياً ، وأطيح بكثير أو معظم نظمهم ، واحتلت العربية المركز الاسمى في بلادهم ، وصارت لغة الأدب والثقافة ، وتغلغلت إلى الحياة اليومية وتكلم بها الشعب واستمر الحال كذلك حوالي ثلاثة قرون ، ثم استفاق الفرس وأحيوا لغتهم وآدابهم القديمة ، وعادوا إلى طابعهم القومي أو الشعوبي ، بل ان استقلاليتهم لم تقتصر على الفن والأدب والفلسفة فحسب بل تركت بصماتها حتى

---

(١) الرافعى وعاشور ص ٣٢ .

(٢) د . احمد مختار عمر : المرجع السابق ص ٤٦

(٣) الرافعي وعاشور : ص ٣٣ .

في المجال الديني، يثبت ذلك ظهور مذهب الشيعة فيما بينهم وهو الانقسام الأكبر في الاسلام ، ودفعهم بحركة القرامطة الى الامـــام ، وهي الحركة التي سهلت العبث بالخلافة العربية والتآمر على سلطة الدولة الاسلامية العربية »[1] .

أما في مصر فلم يحدث شيء من ذلك بل تشربت مصر الروح العربية حتى النخاع وكأنها كانت عطشى إلى هذه الحضارة الجديدة ، صالحة التربة لامتصاصها، فحذت بذلك حذو الشام والعراق حيث كانت سلالات الاشوريين والسريان والآراميين يشعرون بأن الفاتحين العرب قوم من بني جلسهم أنقذوهم من عبودية البيزنطيين والفرس ، والواقع ان تعريب مصر في هذا الأمـد القصير ظاهرة فريدة ليس لهـا مثيل في تاريخ مصر الطويل ، فبينما لم تستطـع ألف سنة من السيطرة اليونانية الرومانية المصحوبة بانتشار الثقافة الهللينية والدين المسيحي « رومنة » مصر نجد أن الفتح العربي استطاع في فترة وجيزة أن يعرب مصر قلباً وقالباً .

* * *

ومن العوامل الحاسمة التي أدت إلى تعريب مصر تحولها الى اللسان العربي وانتصار اللغة العربية فيها انتصاراً ساحقاً على اللغة القبطية أو أية لغة أجنبية أخرى كانت مستخدمة في مصر كاليونانية والسريانية ، ومعروف ان اللغـــة العربية هي أهم أركان القومية العربية .

ولقد كان للغة العربية من الثراء والجرس والدقة ما جعلها أداة متقدمـــة للتعامل في مصر وكثير من البلاد التي فتحها العرب ، فهي أكثر نضجـاً من كل

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ج ١ ص ٢١٤ .

اللغات القديمة المعاصرة لها ، وقد وصل بها القرآن الى قمة التطور الذي بدأته خلال عشرات القرون من الجاهلية بينما كانت معظم اللغات الأخرى قد جمدت أو تدهورت مما جعل العربية تبرز كلغة للحضارة العالمية والثقافة المتقدمة حين انتشرت خارج بلاد العرب تحت راية الاسلام ، وساعد على انتشارها في نفس الوقت فقد كانت في حالة بالغة من الضعف والتدهور فهي قد ابتعدت كثيراً عن اللغة المصرية القديمة وان كانت تعتبر المرحلة الأخيرة المحتضرة لهـــا ، وهي من حيث الشكل صارت تكتب بحروف يونانية ، وخضعت لقواعد الحركة في اللغة اليونانية بعـــد أن كانت اللغة المصرية القديمة (الديموطيقية) لا تعرف سوى الحروف الساكنة ، ومن حيث المحتوى دخلها كثير من الألفاظ والتعبيرات الأجنبية خاصة من اليونانية والسريانيــة ، وهجرت في نفس الوقت كثيراً من الكلمات المصرية القديمة[1] وهي لم تفعل ذلك من مركز تطور وقوة وانمـا من مركز ضعف وخضوع أي أنها سحقت في الواقع تحت وطأة اللغة اليونانية التي كانت في ذلك الوقت لغة السيادة والثقافة العالمية ، وكانت اللغة الرسمية في مصر وبها يكتب ويتحدث علية المصريين تاركين اللغة الوطنية للجهلاء والعوام .

وهكذا كانت اللغة العربية في أوج قوتها وتألقها واللغة القبطية في منحدر أفولها وتدهورها عندما ارتطمتا في مصر ، واستمر الصراع بينهما زهاء أربعة قرون الى أن انتهى بانتصار العربية الساحق .

ولا شك أن على رأس العوامل التي أدت الى انتشار العربية وغلبتها تحول معظم المصريين الى الاسلام وحاجتهم إلى الالمام بأصول دينهم الجديـــد وإداء فرائضه ، والملاحظ أن انتشار العربية اطرد سلباً وإيجابـاً بانتشار الدين فكان أسرع وقعـــاً في المناطق التي دخلت الاسلام وأبطأ في المناطق النائية التي تأخر اسلامها .

(١) د. مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى .

وإلى جانب ذلك كانت اللغة العربية هي لغة الحكام مما جعل كثيراً من القبط حتى قبل اسلامهم يقبلون على دراستها لنيل الحظوة والصدارة في المجتمع والتقرب من الحكام وشغل الوظائف العامة ولا سيما بعد أن حلت اللغة العربية محل اللغتين اليونانية والقبطية في الدواوين والمكاتبات الرسمية سنة ٨٧ هـ [٧٠٦ م] في زمن عبدالله بن عبد الملك بن مروان ، وحلول المسلمين تدريجياً محـل الأقباط في الوظائف العامة .

وفي نفس الوقت كان نزول العرب الوافدين إلى الريف المصري واختلاطهم بالمصريين في المعيشة والمعاملات والتزاوج من أسباب انتشار اللغة العربية أيضاً، فقد صارت لغة تطارد الأذن المصرية في كل مكان وأصبحت مألوفة لعوام القبط بعد ان كانت لغة الدين والثقافة والدواوين فحسب .

ويرى الدكتور أحمد مختار عمر ان حلول العربية محل القبطية وانتصارهـا النهائي عليها كان وفقاً للترتيب الزمني التالي(١).

● خلال القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة التي تكتب بها الوثائق وتسجل المكاتبات الرسميـة وتعمل الدواوين .

● في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أصبحت اللغة العربيـة هي لغة العلم والثقافة لكل المصريين على السواء مسلمين واقباط، وأصبح رجال الدين الاقباط يستخدمونها في مراسمهم وكتاباتهم الدينية بل ويشرحون بهـا قواعد اللغة القبطية والدين المسيحي .

---

(١) د : احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ٥١ – ٥٥ .

● في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أصبحت اللغة العربية لغــة التخاطب العامة لكل المصريــين على السواء وأصبح رجال الدين المسيحي يعظون بها كي يفهمهم سامعوهم .

● ربما تأخرت غلبة العامية العربية على القبطية عن ذلك قليلاً أو كثيراً في بعض الأماكن النائية من الصعيد ولكن هـــذا التأخر لا يتجاوز قرناً أو قرنين بأية حال .

● ظلت اللغة القبطية حية مــــدة أطول من ذلك داخل الاديرة وبين الرهبان ، وربما ظل بعض أناس يتكلمون القبطية حتى عصر متأخر (ربمــا إلى اليوم) ولكن هذه حالات فردية لا يبنى عليها حكم .

ويقول الدكتور أحمد مختار عمر « ولكن لا تعني هزائم اللغة القبطية المتتالية أمام هجمات العربية انها لم تثبت وجودها في أي فترة من فترات الصراع ، فقد فرضت نفسها لفترة ما كلغة حديث حتى على العرب أنفسهم وتعلمها الكثيرون منهم وممن عرفوا باجادتهم للقبطية القاضي خير بن نعيم الذي كان يكلم الخصوم الأقباط ويستمع لشهادة شهودهم باللغة القبطية ».

وقد كان انتصار العربية على هذا النحو الحاسم هو العامــــل الرئيسي في مصر بأكثر من أي عامل آخر بما في ذلك الاسلام والهجرات العربيــة — التي سنبحثها في الفصل التالي — وهكذا اكتسبت مصر قوميتها العربية مع احتفاظها بكل خصائصها الذاتية الأخرى ، ولا يمكن أن تكون هذه الخصائص الذاتية مطعناً في عروبة مصر وقوميتها ما دامت مصر ناطقة بالعربية مساهمة فيهـــا فكراً وعملاً ، وأية محاولة للحكم على عروبة مصر بمعيار الدين أو الجنس هي محاولة خاطئة وغير علمية أو تقدمية .

والواقع كما يقول الدكتور أحمد مختار عمر «ان قصة اللغة العربية واستقرارها

في مصر من القصص الفريدة التي لا تتكرر كثيراً في التاريخ ، ويكفي أن نعلم ان مصر قد تتابع عليها حكام أجانب على امتداد تاريخها الطويل من هكسوس وآشوريين وفارسيين ويونان ورومان دون أن يتمكن أحد منهم من فرض لغته على مصر والقضاء على اللغة الوطنية المصرية تماماً، إلى أن جاء العرب فتمكنوا من فرض لغتهم واحلالها محل القبطية ، وما أن تمكنت اللغة العربية في مصر حتى رسخت رسوخ الجبال ، وقاومت هجمات الاستعمار المتنوعة واستطاعت أن تصمد أمام تيار الغزو الأجنبي سواء كان تركياً أو فرنسياً أو انجليزياً ، وظلت – ولن تزال – لغة مصر رائدة القومية العربية »[1].

* * *

درج معظم المؤرخين على النظر إلى هذه الفترة من تاريخ مصر من زاوية الفاتحين العرب وحدهم وكأن كل ما فعلوه كان حقاً وعدلا بل وكأن له قداسة دينية تحول دون مناقشته وهم يتغاضون تماماً عن النظر من زاوية أقباط مصر كما لو كانوا قد صاروا فجأة كما مهملاً بعد الفتح لا يقبل منهم سوى الاسلام أو الخضوع مع أن هؤلاء المؤرخين أنفسهم حين يتناولون الحقبة التي سبقت الفتح العربي مباشرة ينظرون من زاوية القبط لا من زاوية مستعبديهم البيزنطيين ، فيصفون المظالم التي حاقت بهم والتي سهلت قبول الفتح العربي ثم ما أن يحدث الفتح حتى يسقط هذا العنصر المصري الاصيل من الحساب أو يكاد وتقص بقية التاريخ المصري الأصيل من الزاوية العربية الاسلامية فحسب ، فتجد وصفاً رقيقاً للنظم المختلفة التي أدخلها العرب والولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر وما شجر بينهم من حروب ومنازعات ومدى تأثيرهم في دولة الخلافة العربية الكبرى بينما لا تجد كلاماً كثيراً عن أحوال القبط وطريقة معاملتهم وثوراتهم

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٧ – ١٥٨ .

وكيفة تأثيرهم في الاسلام وتأثرهم به بل ان مثل هذه الموضوعات يكاد تكون لها حساسية شبه دينية .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن التأريخ الكنسي وبعض كتابات المؤرخين الاقباط تبالغ أحياناً في تسليط الأضواء على المظالم التي تعرض لها القبط في أعقاب الفتح العربي وعلى طول العصور الاسلامية ويغفلون أو يقللون من شأن التغييرات العميقة التي أحدثها الاسلام في الحياة المصرية وفي أحوال القبط أنفسهم.

وأسوأ من هذين الموقفين موقف بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين الحاملين على الاسلام والعروبة ومصر معاً وهؤلاء تراهم يأخذون جانب البيزنطيين قبل الفتح العربي ويحملون على القبط بحجة أن موقفهم المناوىء للكنيسة العالمية أدى إلى ضياع مصر من حوزة المسيحية في حين ان الخلافات المذهبية بينهم وبين الكنيسة الامبراطورية كانت جزئية ومن الممكن حلها في نطاق الوحدة المسيحية، ثم تراهم بعد الفتح يعطفون على موقف القبط ويأسون لحالهم ويحملون على سيرة العرب في مصر عموماً .

واعتقد ان هذه المواقف الثلاثة ليست سليمة وإنما تدفع اليها اتجاهات سلبية غير موضوعية لدى بعض المؤرخين سواء كانوا مسلمين أو أقباطاً أو غربيين مثل التعصب الديني وضيق الأفق والاحن والخصومات ، والواقع انه لا تكاد تكون هناك مرحلة من مراحل التاريخ المصري تعمل فيها هذه الاتجاهات السلبية أكثر من مرحلة الفتح العربي ، وبالتالي فان هذه المرحلة في حاجة ماسة لأن تكتب من جديد بروح وطنية خالية من التعصب لا تنظر إلى الحكام العرب نظرة مبرأة من كل نقص ، ولا تحمل عليهم حملة نكراء رغم كل شيء ، وكذلك لا تبخس المصريين الأصلاء حقهم سواء من بقى منهم على دينه أو تحول الى الاسلام وأيضاً لا تتعصب لهم وتنظر إلى الفتح العربي ككارثة حلت بهم ولم يكن في مقدورهم دفعها .

ولست أنوي بالطبع أن أقوم بهـــذه المحاولة ؟ فهي من واجب المؤرخين المتخصصين في تلك الحقبة من التاريخ ولكن ذلك لا يمنـع من محاولة الاشارة هنا الى بعض الجوانب السلبية في سلوك دولة العرب في مصر حين كانت مصر تحكم بواسطة الولاة العرب بـــين عامي ٢٠ – ٢٥٤ هـ [٦٤٠ – ٨٧٤ م] وهي المرحلة التي تم فيها التحول الكبير ونضجت تلك الظاهرة التاريخية المعروفة بتعريب مصر .

إذا كان عمرو بن العاص قد سار في أول عهده بمصر سيرة عادلة وكذلك فعل بعض الولاة الآخرين فليس معنى ذلك أن جميع الولاة العرب نهجوا نفس النهج بل ان الكثيرين من هؤلاء الولاة جانبوا في حكمهم أبسط قواعـد العدل إزاء مواليهم المصريين مسلمين كانوا أو أقباطاً ، وحتى عمرو بن العـــاص نفسه نكص في فترة ولايته الثانية عن سيرته الأولى فاشتط على القبط ، وصادر أموالهم ، وكان يقول لهم « من كتمني كنزاً عنده ، فقدرت عليـه ، قتلته » وتحكى كتب التاريخ الاسلامي قصة قبطي يدعى بطرس أمر عمرو بقتله أمام باب المسجد لأنه أخفى عنه أمواله الوفيرة التي قدرت باثنين وخمسين أروبا ذهباً مصرياً ، والمعروف أن عمرو توفي عن ثروة طائلة قدرهـا ابنه عبدالله بسبعين جراباً من جـلد ثور مملوءة بالدنانير ، ولا شك أنه جمع هـذه الثروة خلال فترة ولايته الثانية بدليل أن عثمان بن عفان قال له عندمـا عزله بعد ولايته الأولى « أرى جبتك قملت منذ خلعناك »[1].

ولم تلبث أن زيدت الجزية على الاقباط في خلافة عمر بن الخطاب نفسه ثم في ولاية عبدالله بن أبي سرح ثم في خلافة معاوية بن أبي سفيان إلى حد أن معاوية عزل وردان واليه على مصر عندما راجعه في أمر زيادة الجزية على القبط مذكراً إياه بأن « في عهدهم الا يزداد عليهم شيء » .

---

(١) الياس الايوبي : دولة العرب في مصر .

وقد بدأت انتكاسة معاملة القبط في عهد بني أمية حين اشتدت الحاجة إلى الانفاق ، فطلب الأمراء من ولاتهم في الأمصار مزيداً من الأموال ، وكان أن لجأ والي مصر عبد العزيز بن مروان إلى فرض الجزية على الرهبان لأول مرة ، وكذلك تشدد عبدالله بن عبد الملك بن مروان في جمع الأموال والزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار كما زاد الجزية المفروضة على الأقباط وبلغت هذه السياسة التعسفية ذروتها في ولاية قرة بين شريك الذي قال عنه المقريزي انـــه « انزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها » ومن ذلك انه فرض على البلاد مائة الف دينار زيادة عن خراجها المقرر(١).

وفي العهد الأموي ظهرت أشكال جديدة من الجزية على القبط منهـا جزية الجملة التي تكون على أهل القرية كلها مهما نقص عددهم وجزية موتى القبط على احيائهم ، إلى جانب اشتطاط بعض الولاة في الجور على الأقباط رغبة في الأثراء السريع خلال فترة ولايتهم القصيرة ، ويكفي أن نعرف أن عـدد ولاة مصر بلغ في عهد الأمويين ٣١ والياً أي بمعدل وال كل ثلاث سنوات تقريباً ، وبلغ في عهد العباسيين حتى أحمد بن طولون ٧٤ واليـــاً أي بمعدل وال كل سنة ونصف وإذا كان بعض الولاة قد عرفوا بالعدل والنزاهة كالوليد ابن رفاعة الفهمي إلا أن معظمهم كان همهم الأكبر الاثراء بأسرع الطرق وأقصرها لا سيما بعد أن بردت ثورية الإسلام الأولى في عهد الخلفاء الأمويين الذين تشبهوا بالاباطرة ولا سبيل إلى هذا الثراء سوى أموال الذميين لأن الجور على المسلمين لم يكن مما تحمد عقباه لأنهم أقدر على توصيل صوتهم الى الخليفة في دمشق أو بغداد وأجرأ على الثورة في وجه الولاة الظالمين(٢) .

وإذا اضفنا إلى ذلك سوء الإدارة التي شابت الحكم العربي نتيجة للحروب

---

(١) الرافعي وعاشور : ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) الياس الايوبي : دولة العرب في مصر . المقريزي : الخطط .

والمنازعات والفتن الدامية التي حدثت في صدر الدولة الاسلامية وما أدت اليه من مظالم لم يكن ينجو منها المسلمون أنفسهم أمكننا أن نتوقع ونفهم انتفاضات الاقباط على الحكم الاسلامي في أول عهده بمصر، ومن واجبنا كمصريين محدثين– مسلمين واقباط –– أن نضع هذه الانتفاضات في اطارها التاريخي الصحيح فلا نستنكرها ابتداء ولا نتحمس لها أو نأسى لفشلها بل ينبغي أن ننظر اليها كنوع من آلام المخاض التي سبقت مولد الوحدة الوطنية المصرية .

ويحدثنا تقي الدين المقريزي بأن القبط قاموا بعدة ثورات أولاها في عام ١٠٧ هـ حين انتفضت كورة تنوديي وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقي فبعث اليهم الوالي الحر بن يوسف بأهل الديوان – أي العرب المرابطين – ثم خرج اليهم الحر بنفسه ، وقام قتال بين الجانبين قتل فيه بشر كثيرون قبل أن تخمد الفتنة بعد ثلاثة أشهر .

وفي عام ١٢١ هـ انتفض أهل الصعيد فبعث اليهم الوالي الأموي حنظلة ابن صفوان بأهل الديوان فقتلوا من القبط ناساً كثيرين وظفروا بهم .

وفي عام ١٣٢ هـ قام قبطي يدعى بحنسى بثورة في سمنور فبعث اليه عبد الملك بن مروان بموسى بن نصير أمير مصر فقتل بحنسى في كثير من أصحابه .

وفي عام ١٤٢ هـ خالفت القبط في رشيد متشجعين باختلال أحوال الخلافة الأموية فبعث اليهم مروان بن محمد الجعدي لما دخل مصر فارا من بني العباس بعثمان بن ابي قسيمة فهزمهم .

وفي عام ١٥٠ هـ خرج القبط في سخا في ولاية يزيد بن حاتم بن أبي صفوة وطردوا عمالهم العرب وساروا الى شبرا سنباط وانضم اليهم سكان البشرور والاريسية والنجوم فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان ووجوه مصر فخرجوا اليهم فبيتهم القبط وقتلوا من المسلمين ، فألقى المسلمون النار في عسكر القبط وانصرف المسلمون الى مصر منهزمين .

وفي عام ١٥٦ هـ انتفض القبط ببلهيب في ولاية موسى بن علي بن رباح فخرج اليهم عسكر المسلمين وهزمهم .

ثم خلد القبط الى الهدوء فترة طويلة حتى هبوا هبتهم الأخيرة عام ٢١٦ هـ متشجعين بانتفاضات المسلمين في الدولة العباسية وقامت حروب مريرة بين الثائرين وعسكر المسلمين حتى قدم الخليفة المأمون بنفسه إلى مصر في العام التالي وأخمد فتنتهم الكبرى التي كان قد اتسع نطاقها من الصعيد الى سخا وحكم عليهم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال . يقول المقريزي « ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر وخذل شوكتهم »[١].

وبغض النظر عن أسباب هذه الانتفاضات التي قام بها القبط في وجه حكامهم العرب المسلمين وعن طبيعة هذه الأنتفاضات نفسها وهل كانت « تقدمية » تتفق مع حركة التاريخ أم « رجعية » تتناقض مع اتجاه المستقبل .. بغض النظر عن كل ذلك فان هذه الانتفاضات التي تعيد إلى الأذهان انتفاضات المصريين ضد الفرس واليونان والروم دليل على استمرارية شعب مصر وعلى أن شوكته ظلت قائمة حتى بعد دخول مصر في حوزة العروبة والاسلام ، أي أن مصر الأصيلة ظلت مستمرة بل ومتمردة على استوعبها تماماً العهد العربي الجديد فانتقلت إلى كنف العروبة نهائياً بمسلميها واقباطها الذين نجحوا في نسج وحدتهم الوطنية رغم ما بينهم من اختلاف ديني .

(١) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٧٨.

[٤]

دمـــاء جديدة

لقد أنقذ الفتح العربي المصريين من أحد مصيرين لا ثالث لهما : اما الابادة والذوبان في العناصر الغريبة الوافدة من روم ونوب ولوبيين وآسيويين عـــلى اختلاف انتماءاتهم العنصرية ، ومعنى ذلك أن تفقد مصر قدرتهـا التاريخية على التمصير وبدلا من أن تكون بوتقة لصهر الأجناس تصبح معتركاً لمختلف الأجناس ويختفي عنصرها الوطني الأصيل بعد أن يفقد تماماً مقوماته الحياتية الخاصة . واما البقاء كحفرية بشرية متقوقعة كما حدث لليهود والبارسيين والنساطرة الذين تخلفوا عن المجتمع السرياني القديم واستمروا كجماعات بشرية مغلقة بعد أن أطاح الاشوريون بدولهم واستقلالهم القومي وسكنت بلادهم عناصر أخرى فاستعاضوا عن الدولة بالمحافظة على الشخصية عن طريق التمسك بالتراث الديني والاندماج في الحياة العملية والاقتصادية للشعوب الأخرى[1].

وكان المصريون أقرب بالفعل الى المصير الثاني ، تدل على ذلك استماتة القبط في العصر البيزنطي في المحافظة على شخصيتهم القومية واستقلالهم الديني رغم

---

1) Toynbee : Study of History vol. 8 P. 275

أن الخلافات المذهبية بينهم وبين حكامهم البيزنطيين لم تكن كبيرة جداً في الناحية الموضوعية .

وجاء الفتح العربي بمثابة طوق نجاة ينقذ المصريين من هذين المصيرين .. من مصير الابادة لأنه درأ عنهم غزوات العناصر الغربية المعادية ، وطرد الجاليات الاجنبية التي كانت تستوطن مصر كالطفيليات ، وأتاح للمصريين الامتزاج – أو على وجه التحديد التطعيم – بالعنصر العربي القريب والحليف والذي يتصلون معه بالأصل البعيد الواحد وبالعلاقات القديمة المتشعبة . كما أنقذهم من مصير التحجر والتقوقع لانه أتاح لهم الدخول في مجتمع جديد وحمل رسالة جديدة سواء تحولوا الى الإسلام أو ظلوا على المسيحية .

وليس أدل على شعور المصريين بالخلاص بالفتح العربي من أنهم أقبلوا على الاسلام والعربية بسهولة وبدون ارغام وهم الذين قاوموا بشدة المذاهب والتفسيرات المسيحية التي لا تتفق مع عقائدهم ، وليس أدل على ذلك ايضاً من انهم فتحوا صدورهم – لا بلادهم فحسب – للعرب الوافدين وسمحوا لهم بالنفاذ الى صميم النسيج المصري ابتداء من اكبر المدن إلى اعماق الريف .

ولا شك ان الهجرة العربية الى مصر كانت من العوامل الحاسمة التي ادت إلى تعريب مصر وحصولها على ذلك المجتمع الجديد وتلك الرسالة الجديدة .

وقد بدأت الهجرة العربية إلى مصر بعد الإسلام بالقوات العربية التي قامت بالفتح تحت قيادة عمرو بن العاص والزبير بن العوام وبلغ عددها خلال ربع قرن (١٨ – ٤٣ هـ) بضع عشرات من الالوف نظمت لهم خطط في مدينة الفسطاط ، ثم استمر العرب يتوافدون على الفسطاط حتى بلغ عددهم في عهد معاوية اربعين الفاً بينما كان عدد الحامية العربية بالاسكندرية ١٢ الفا في عام ٤٣ هـ زيدت الى ٢٧ الفا في عهد معاوية . اما الصعيد فقد قصده ٢٠ الفاً تحت قيادة

عبدالله بن أبي سرح في بداية الفتح بالاضافة إلى جماعات عربية أخرى لم تكن من قوام الجيش العامل ولكنها نزلت مصر في ظله[١].

ثم تتابعت الهجرات العربية إلى مصر في العهد الأموي ، وكان معظمها من عرب الجنوب (القحطانين) الذين قصدوا عـــدم الامتزاج بالمصريين فسكنوا أطراف البـلاد أو في أحياء خاصة بهم في المدن الكبرى ، أمـا عرب الشمال (المدنانيون) فقد كان عددهم محدوداً جداً في أوائل الفتح إلى درجة ان احتوتهم جميعاً خطة واحدة في الفسطاط ، ولكن في عهد عبد العزيز بن مروان بدأ التفكير في هجرة العدنانيين بوفرة الى مصر فقدموا في أول الأمر في آلاف قليلة ثم تزايدوا وتكاثروا حتى تكافأوا من الناحية العددية مـع القحطانيين ، وهبطوا الريف ، واشتغلوا بالزراعة واختلطوا بالأهالي المصريين مما كان له أكبر الأثر في زيادة حركة دخول المصريين في الاسلام في القرن الثاني الهجري ، وفي نفس الوقت بدأت الكتل القحطانية تتفتت وتنتشر أيضاً مما أدى الى ترجيح كفة العدنانيين مع مرور الزمن[٢].

وقد أخذت الاتصالات الأولى بين العرب الفاتحـين وسكان البلاد المصريين صوراً شتى كانت وسطاً بين الانعزال والاندمـاج حتى انتهي الأمر بالاختلاط التام بين العنصرين ثم انصهارهما في بوتقة واحدة .

ومن هذه الصور ما عرف بالارتباع ، إذ لم يكن الجنـــد العرب يلتزمون الفسطاط طوال العام بل كان يؤذن لهم عندما يجيء الربيع بالتحرك داخل البلاد للاصابة من خيراتها بالصيد وشرب اللبن واطلاق خيولهم للرعي في حقول البرسيم

---

(١) د. عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب للمقريزي ص ٩٥ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٩ وما بعدها .

للسمن، وكان يراعي أن ترتبع كل قبيلة في مكان مخصص لها كل عام، كما يراعى في اختيار هذه الأماكن درجة خصوبتها وقربها من الحوف الشرقي، وكان عمرو يوصي جنوده بأن يحسنوا معاملة سكان البلاد خلال الارتباع ، وأن يكفوا أيديهم عن أموالهم وأبدانهم ويعفوا فروجهم عن أعراضهم ، وكان موسم الارتباع يستمر حوالي ثلاثة أشهر وهي شهور الربيع حتى إذا دخل الصيف انسحبت القبائل العربية مرة أخرى الى الفسطاط، وهكذا كان الارتباع فرصة للاتصال المباشر بين العرب والمصريين ، وشيئاً فشيئاً بدأت القبائل العربية تستقر في أماكن ارتباعها [1] .

ولم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين العرب والمصريين، بل اقتضت ضرورات الأمن مرابطة جزء من القوات العربية في الثغور والسواحل بصفة دائمة ، وهو ما يعرف في الاصطلاح العسكري العربي بالرباط ، وكان ربع القوات العربية يرابط في الاسكندرية وحدها ، وربع آخر يرابط في سائر السواحل المصرية ، والنصف يستبقى في الفسطاط ولم تكن القوات المرابطة في الثغور تقيم في معسكرات خاصة بها كالفسطاط بل تقيم بين الأهالي، وهكذا كان الرباط وسيلة أخرى لتحقيق الاختلاط[2].

وبمقتضى اتفاقيات الصلح كان للعرب الفاتحين حق الضيافة على سكان البلاد الأصليين إذا نزلوا قراهم وأحياءهم ، ويستمر هذا الحق ثلاثة أيام يجب على المصريين خلالها القيام بكافة واجبات الضيافة للعرب، ولذلك أقيمت في القرى المصرية مبان أو قاعات خاصة للضيافة تسمى بالليوان أو الإيوان ، ولا يزال بعضها قائماً في القرى حتى اليوم بالقرب من الكنائس ، وفي هذه المباني كان

---

(١) د. عبدالله خورشيد البري : ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق : ٤٩ .

ينزل موظفو الدولة وجنودهـا والمهاجرون العرب ، وتتحمل القرية بأكملهـا نفقات ضيافتهم ، وهكذا كانت الضيافة شكلا آخر من أشكال الاتصال[1].

وإلى جانب ذلك كان العرب الفاتحون يعتمدون على أهل البلاد اعتماداً كلياً في الزراعة وفي كثير من الأمور الأخرى كأعمال الديوان والطب ومسح الأراضي وبناء البيوت وصناعة السفن والمنسوجات ، وفتح ذلـــك باباً آخر للاتصال والاختلاط بين الفريقين .

وفي خلافة المعتصم العبـاسي (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) سقطت دولة العرب في مصر ، وحرمت القوات العربية العاملة من مرتبات الدولة ، واستبدل بهـــا الخليفة أجناد من الاتراك أثبتوا مكان العرب في الديوان فتفرق العرب في الريف المصري سعياً وراء الرزق من موارد أخرى غير الجهاد والحرب فمارسوا الزراعة والتجارة ومختلف الحرف التي كانت وقفاً حتى ذلك الحين على سكان البلاد الأصليين وجماعات من العدنانيين[2] .

وبذلك انتهت الموجة الأولى من الهجرة العربية الاسلامية بانتشار العرب في جميع أنحاء مصر ابتداء من الاسكندرية شمالاً إلى أسوان جنوباً ، وأدى هذا الانتشار وما تبعه من اختلاط وعلاقات وزيجات بين العرب والمصريين إلى ظهور بوادر المجتمع المصري العربي الاسلامي الجديد الذي حمل رسالة العروبة والاسلام فيما بعد وحتى وقتنا الحاضر ، وفي هذا المجتمع تم الامتزاج بين العرب والمصريين اجتماعياً وثقافياً وسياسياً واقتصاديـاً وذاب العرب القادمـون في محيط الشعب المصري ، واصبحوا ينتسبون إلى البلد الذي يسكنونه أو الحرفة التي يشتغلون بها وليس إلى قبيلتهم الأصلية التي جاءوا في كنفها من شبه الجزيرة العربية ، وهذا

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٠ .

(٢) د . عبد المجيد عابدين : ص ١٠٤ – ١٠٥ .

ما عناه المقريزي في مقدمة رسالته « البيان والاعراب » بقوله « اعلم ان العرب الذين شهدوا فتح مصر أبادهم الدهر وجهلت أحوال اكثر أعقابهم » .

وهكذا أدت قوة الجذب المصرية الى عكس السياسة التي كان يختطهـا الخليفة عمر بن الخطاب في أول الأمر وهي محاولة الحفاظ على الارستقراطيـة العسكرية العربية حتى انه حرم على القوات العربيـة الاستقرار في الريف والاشتغال بالزراعة ، وفي الواقع كانت العملية قوة استقطاب ضخمـة ذات محورين : فالمصريون يستقطبون العرب اجتماعياً وجنسياً وحضارياً والعرب يستقطبون المصريين ثقافياً ودينياً وروحياً وكانت المحصلة النهائية تعريب مصر وتجديد دماء المصريين دون أن يتعرضوا للفناء أو التلاشي ، وبذلك استمروا كأمة متصلة الحلقات .

يصف الدكتور جمال حمدان هذه العملية قائلاً « من المسلم به أنها (الهجرة العربية) بدأت بأعداد محدودة كغزوة ذكرية ولكنها سرعان ما تحولت الى هجرة واسعة النطاق مختلطة النـوع وهي الأخرى بدأت كشبه استقرار على أطراف الصحراء وحواف المدن – خاصة الحوف الشرقي أي شرق الدلتا – وكشبه معسكرات في المدن ، ولكنها لم تلبث أن استقرت في بطن الحوف أي داخل الأراضي الزراعية والريف وانتثرت في المدن ، وهكذا تم الاختلاط لا في بؤرات المدن وحدها كما في حالة اليونان والرومان من قبل ، وإنما في تضاعيف الريف ، ولهذا كتب للتعريب أن يكون تحولاً خالداً لا ظاهرة عابرة كالهلينية »[1]

وكثير من علماء الاجناس يؤكدون ان التكوين الجنسي للمصريين لم يتأثر تأثراً اكيداً بموجة الهجرة العربية بعد الفتح الاسلامي نتيجة لقلة العرب الوافدين نسبياً بالمقارنة بمجموع الشعب المصري ، وهذا يقودنا إلى ضرورة محاولة تقدير

---

(١) د . جمال حمدان : شخصية مصر – كتاب الهلال ص ٣٠ .

حجم الهجرة العربية التي تمت بعد الفتح، وهي محاولة لا يمكن أن تكون دقيقة ان لم تكن مستحيلة تماماً لأنها محاولة تقوم على التقدير الجزافي البحت .

ويمكن أن نشير هنا إلى ثلاثة تقديرات .. فقد قدرها البروفيسور فلندرز بترى بحوالي ١٥٠ الفاً وهو تقدير مسرف في التقليل من شأنها[١] ، بينما يذهب نعوم شقير في كتابه « تاريخ سيناء » الى أن ثلثي المسلمين الذين أحصاهم التعداد الرسمي في مصر عام ١٩٠٧ وعددهم ٣٥٩ و٢٨٧ و١١ يرجعون إلى أصل قبطي، والثلث الباقي من أصل عربي وتركي وعجمي[٢]. أما عبدالله خورشيد البري فقد أحصى القبائل والبطون العربية التي وفدت إلى مصر وأقامت بها خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح العربي فوجد مجموعها ٢٤٤ ، ونضيف إلى ذلك اننا إذا افترضنا أن كلا منها كانت تضم في المتوسط ثلاثة آلاف شخص يكون معنى ذلك أن عدد العرب الوافدين يبلغ في مجموعه ٧٣٢ ألفاً أي حوالي سبع عدد المصريين الأصلاء إذا افترضنا أن عدد سكان مصر في هذه المرحلة كان في حدود خمسة ملايين نسمة .

وينبغي أن نلاحظ ان الهجرات العربية التي أفادت مصر وجددت دماءها حقاً هي التي اندمجت في بحر الحياة المصري وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من النسيج البشري المصري بحيث لم تعد قائمة بذاتها أو كما يصفها المقريزي « أبادها الدهر »، أما القبائل العربية البدوية التي لم تندمج في الحياة المصرية بل ظلت تحيا حياتها البدوية القبلية في صحاري مصر وعلى هامشها فلم تسهم في تلك النتيجة بل كانت عنصر هدم ولم تكن عنصر بناء حضاري، فقد كانت تقوم بأعمال السلب والنهب والتمرد والاغارة على الحضارة والتجارة، وكانت السلطة المركزية في كل العصور تحاول قمعها بكل شدة ، وظلت على هذه الحال طيلة تاريخها ، وتذخر كتب

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٢) محمد عزة دروزة : عروبة مصر ص ١٧٧

التاريخ المصري كالمقريزي وابن تغري بردي والجبرتي بأمثلة لا حصر لها على النشاط التخريبي لتلك القبائل البدوية على امتداد مئات السنين ، ونحن نفهم من ذلك أن العبرة في الحضارة الاسلامية في مصر لم تكن بهجرة القبائل العربية في حد ذاتها ، وإنما بقدرة مصر على تمصير هذه القبائل وامتصاصها وتمثلها في دمها وسداها وتهذيبها وتمدينها وتحويلها من الرعي إلى الزراعة ، ومن التحول إلى الاستقرار ، ومن القبلية إلى الوطنية ، وفي هذا دليل آخر على استمرارية مصر ووحدة تاريخها وعلى ان انتقالها إلى العروبة والإسلام لم يؤثر في خصائصها الذاتية وشخصيتها المتحضرة ، وانما صبغها فحسب بلون حضاري جديد لم تكن بدونه تستطيع أن تواصل الحياة .

* * *

رأينا فيما سبق ان الهجرة العربية إلى مصر كانت مؤثرة كيفا أكثر منها كما ، ورأينا ان الأصل المشترك بين المصريين القدماء والعرب القدامى وما بينهم من علاقات قديمة متشعبة مما يفسر تقبل مصر للمهاجرين الجدد بسهولة ويسر ، وقدرة هؤلاء على تغيرها بشمول وعمق .

ولكن مصر في مرحلتها الاسلامية الجديدة لم تعرف السيادة العربية فحسب ، وانما خضعت خلال الشطر الأكبر من تاريخها الاسلامي لحكم عناصر غير عربية كالترك والشركس والارناؤوط والديلم والفراعنة والصقالبة وغيرهم ، ووصلت اليها أعداد غفيرة من هذه الأجناس في صورة أسياد وعبيد وأجناد وصعاليك ، فهل تأثرت في تكوينها الجنسي بهذه الدماء الغريبة ؟ والى أي مدى كان هذا التأثر ؟ أو بمعني آخر هل أدت هذه العناصر إلى احداث تغيير جوهري أو حتى ملحوظ في تكوين المصريين الجنسي كما استقر عليه خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة أي خلال فترة الحكم العربي لمصر ؟

حتى تمكن الاجابة على هـــذه التساؤلات يحسن استعراض الفترات التي خضعت مصر فيها لحكم هذه العناصر الأجنبية وتقدير تأثيرات كل مرحلة على حدة [1].

في عام ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) تمكن الواليالتركي أحمد بن طولون من الاستقلال بمصر عن الدولة العباسية منتهزاً فرصة الارتباك في الخلافـــة العباسية نتيجة لمؤامرات القواد الترك ، وانشأ الدولة الطولونية التي حكمت مصر ٣٧ عامــاً خضعت فيها البلاد لأول مرة في تاريخها الاسلامي لأسرة تركية حاكمة ، ولكن هذا الحكم لم يؤثر أدنى تأثير في عروبة مصر التي توطدت أركانها في المرحلة السابقة وظل الطابع العربي هو الغالب فيها ، وإلى جانب ذلك كان احمد بن طولون نفسه مستعرباً عالماً بالعربية والحديث والقرآن بليغ البيان وكان يعتمد في جيشه وحكومته على الآرومات العربية الصريحة والمستعربة ، وكذلك كان خلفاؤه خمارويه وهارون وشيبان مستعربين مندمجين في العروبة إندماجاً تاماً .

وفي عام ٢٩١ هـ (٩٠٥ م) اندحرت الأسرة الطولونية في القتال مع العباسيين، وعادت مصر إلى الحكم العباسي المباشر فترة وجيزة لا تتعدىالثلاثين عاماً ، ثم استقل بها مرة أخرى الوالي التركي محمـــد طفج المعروف بالأخشيد وأسس الدولة الأخشيدية التي حكمت ٣٤ عاماً ، وكان حكم الأخشيد وخلفائه شبيهاً بحكم الطولونيين من حيث كونهم مستعربين ومندمجين في العروبة فلم يكن لهم تأثير سلبي على طابع مصر العربي وتكوينها الجنسي .

وفي عام ٣٥٧ هـ (٩٦٩ م) استولى الفاطميون على مصر وانشأوا دولتهم

---

(١) سأعتمد في هذا التقدير على محمد عزة دروزة في كتابه « عروبة مصر قبـــل الاسلام وبعده » الفصل السادس تحت عنوان « السلطان في مصر وأثره في عروبة مصر ».

الزاهرة التي دامت ٢٠٢ سنة ومدوا حكمهم إلى الاقطار المجاورة ، ولما كان الفاطميون عرباً صرحاء لذلك عادت مصر إلى حكم العناصر العربية المباشر ولم تلبث أن أصبحت العاصمة التي أنشأها الفاطميون وهي القاهرة من أزهى مراكز العروبة والاسلام .

وفي عهد الفاطميين استؤنفت الموجة الثانية الكبرى من هجرة القبائل العربية إلى مصر ، فقد استجلب الفاطميون قبائل بني هلال وحلفائهم إلى مصر حيث استقروا زمناً في المناطق الشرقية قبل ان يستنفروا لمحاربة بني باديس خصوم الفاطميين في المغرب كما استجلب الفاطميون جموعاً من سنبس طيء وكلب من مستقرها بفلسطين لمحاربة بني قرة الذين شقوا عصا الطاعة على الفاطميين في شمال الدلتا[1] ولا شك في ان هجرة هذه القبائل اكدت رسوخ الطابع العربي في مصر ، وإذا كان الفاطميون قد طعموا جيشهم ايضاً بكتائب سودانية وتركية وبربرية إلا ان هذه العناصر الذكرية المحاربة لم يكن لها تأثير يذكر في في الطابع العام للمصريين .

ولكن مصر لم تلبث ان خضعت مرة اخرى لحكم العناصر غير العربية ، وامتد حكمها هذه المرة طويلاً جداً الى ان استخلص المصريون حكم انفسهم في العصر الحديث ، ففي عام ١١٧١ م اسس صلاح الدين الايوبي دولته الايوبية التي حكمت ٧٩ عاماً ، وتلتها دولة المماليك البحرية التي حكمت ١٣٢ عاماً (١٢٥٠ – ١٣٨٢ م) ثم دولة المماليك الجراكسة وحكمت ١٣٥ عاماً (١٣٨٢ ١٥١٧ م) ثم اصبحت مصر ولاية عثمانية تحكم من استانبول نظرياً وتخضع لمختلف اجناس المماليك عملياً لمدة ٣٩٩ عاماً (١٥١٧ – ١٥١٧ م) ويدخل من

---

(١) د . عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب ص ١١٦ .

هذه المرحلة الشطر الاكبر من حكم أسرة محمد علي الالبانيـــة الارناؤوطية التي حكمت ١٤٧ عاماً (١٨٠٥ – ١٩٥٢ م) .

على امتداد هذه الفترة الطويلة التي تبلغ ٧٨١ عاماً ميلادياً أو أكثر من ثمانية قرون هجرية خضعت مصر لحكم مختلف العناصر التركية والمستتركة التي سيطرتا على الجيش والادارة والاقتصاد وأدخلتا كثيراً من المؤثرات التركية والأعجمية واستجلبنا أعداداً هائلة من الرقيق من مختلف الأجناس والألوان من بني جلدتهم وابتداء من الجراكسة والاسبان والسلاف إلى الأفارقة والآسيويين، وهذه الفترة الطويلة هي التي يخشى أن تكون قد تركت أثراً في الطابع العربي بمصر .

يميل معظم الباحثين إلى التقليل من قوة هذا الأثر الذي تركته فترة الحكم غير العربي في مصر لعدة أسباب منها ان العناصر الجديدة الوافدة كانت تشكل في الغالب طبقة السادة ولم تندمج في سواد الشعب وغالباً ما اضطرت إلى النزوح خارج مصر مرة أخرى أو انقضت دون أن تترك أخلافاً نظراً لطبيعة الصراع الدموي والقلق السياسي في تلك الفترة أما الجزء الأكبر الذي اندمج في المصريين وهو جزء ضئيل في حد ذاته فقد تم تمصيره تماماً كغيره من العناصر الوفيرة على طول التاريخ المصري .

يقول عزة دروزة مشيراً الى تلك العناصر الغريبة الوافدة «ان هذا الأمر لم يكن ليؤثر في الطابع العربي الشامل الموطد أي تأثير لأن هذه العناصر كانت محدودة جداً وكان معظمها مستعرباً بل كان كثيرون منهم علماء وأدباء وشعراء ومؤلفين بالعربية ، وكان المماليك – الذين هم أصحاب النشاط والحيز الكبيرين في عهد الدولة العثمانية قبل ولاية محمد علي – مندمجين في العروبة والوطنية المصرية اندماجاً تاماً حتى كانوا يعتبرون أنفسهم مصريين ، وينعتهم المصريون بنعت المصريين والمصرلية تمييزاً لهم عن عمال وجنود الدولة العثمانية ، وقد كان معظم قبائل العربان الذين كانوا يحوزون عدة القتال ويعيشون كتلاً متكاثفة يناصرونهم على

هذا الاعتبار ، وهذا فضلاً عن أن لغة الدولة في هذه المدة الطويلة كانت اللغة العربية بالاضافة إلى الآلاف المؤلفة من العرب الصرحاء وغير الصرحاء المستعربين الذين كانوا يعملون في مصالح الحكومة ودواوينها ويشغلون فيها مناصب رئيسية وثانوية »[1].

ويعبر الدكتور جمال حمدان عن نفس الرأي قائلاً « وبعد الموجة العربية عادت الحركات الداخلة فاقتصرت على الغزوات لا الهجرات ، وهذا يصدق على اتراك الطولونية والأخشيدية واكراد الايوبية وجراكسة المماليك كما يصدق على اتراك والبان وانكشارية العثمانية .. وفي كل تلك الحالات كانت الاعداد الوافدة محدودة مهما بلغت ، وكانت مذكرة غالباً تتركز أساساً في المدن ، وتمثل مستعمرات مغلقة تتزاوج غالباً من الداخل inbreeding ، وفي هذه الحالة كانت – كما لوحظ كثيراً – عقيمة لا تعقب في مناخ مصر مما كان يلزم معه لكي لا تنقرض أن تستورد دفعات جديدة منها من الخارج كما كان يحدث بين المماليك خاصة .. ويرى البعض أن سبب انقراض هذه المستعمرات الدخيلة انما هو التزاوج الداخلي الضيق أولاً ، ثم ثانياً وظيفتها الحربية التي كانت تعني الوفاة المبكرة للغالبية في الميدان قبل أن تكون اية أسرة، هذا وإلا فانها كانت تتزاوج من المصريين ، وفي هذه الحالة كانت تذوب في الجسم الكبير دون أن تنسخ لونه الأساسي ، وفي هذا المعنى يمكن أن نقرر أن مصر لم تكن مقبرة للغزاة بالمعنى السياسي فحسب بل وبالمعنى الجنسي أيضاً .. انه مهما بلغت المؤثرات الجنسية الوافدة من قوة فان ضخامة المحيط المصري ديموغرافياً كانت كفيلة بابتلاعها وامتصاصها دون أن تحرف النمط الأصيل تحريفاً جوهرياً أو مبالغاً فيه»[2].

وفي العصر الحديث تعرضت مصر لوفود عناصر أجنبية مختلفة ، فمنذ حملة

---

(١) محمد عزة دروزة : المرجع السابق ص ١٨٥ .

(٢) د . جمال حمدان . شخصية مصر – كتاب الهلال ص ٣٣ .

نابليون عام ١٧٩٨ م وما تلاها من أحداث القرن التاسع عشر توافدت عناصر تركية وجركسية والبانية وأوروبية على مصر واحتلت فيها مكان الصدارة وتعد ثورة عرابي رد فعل مباشر لهذا الوضع ، ثم جاء الاحتلال البريطاني وفي أذياله عدد غفير من المرابين والتجار والموظفين من كل جنس ولون ، وكان رد الفعل المصري على هذه الموجة الأخيرة تصاعد الحركة الوطنية التي أدت إلى ثورة ١٩١٩ وانتهت باستخلاص الاستقلال وتمكين المصريين من حكم أنفسهم ، ولم تؤثر هذه الموجة الجديدة من الوفود الأجنبي أي تأثير على تكوين المصريين .

وخلاصة القول ، ان مصر رغم انها كانت دائماً معبراً ومستقراً لمختلف الأجناس ولم تكن في وقت من الأوقات – حتى من أنقى العصور الفرعونية – وحدة اجتماعية مغلقة على نفسها كالمجتمع اليهودي مثلاً إلا أن تركيبها الجنسي لم يشهد أي انقطاع انثربولوجي مفاجىء ، وباستثناء موجة الهجرة العربية التي هبطت مصر على رحب وسعة وكأنها هدية القدر لتجديد دماء المصريين ورسالة مصر الحضارية ، لم يكن لأية هجرة أخرى أثراً يذكر بما في ذلك الهجرات الكبرى نسبياً وهي الهكسوس واليونان واليهود والرومان واتراك العصور الوسطى ، وظل المصريون في مجموعهم محتفظين بسماتهم الأساسية كشعب واحد متجانس رغم عدم وحدة الدين بين المسلمين والأقباط ، ورغم عدم وحدة الأصل المباشر بين العرب والمستعربين ، وذلك يرجع إلى قدرة مصر الخارقة على التمصير ، وعلى نبذ العناصر الغريبة التي لا تلائم نسيجها الخاص .

[٥]

شخصية مصر الاسلامية

من الأدلة على استمرارية مصر ووحدة تاريخها ما فعلته بتلك القبائل العربية البدوية التي نزلت ساحتها بعد الفتح الاسلامي ، فهي قد هضمت هذه القبائل وقضت على الروح القبلية لدى المهاجرين العرب ، وأدمجتهم في مجتمع مدني موحد .

ظلت القبيلة فترة من الزمن وحدة المجتمع العربي بمصر بعد الفتح الاسلامي، فإن موجة الهجرة العربية الى مصر لم تكن في شكل مجيء أفراد أو جماعات متفرقة وإنما في شكل نزوح قبائل بأكملها أو بطون متماسكة منها ، وكانت الروح القبلية – بالرغم مما فعله الاسلام لتلطيفها – هي القوية السائدة ولا أدل على ذلك من أن كل مجموعة متآلفة من القبائل أو البطون استقرت في جزء معين من البلاد ، كما كانت وحدات الجيش العربي عبارة عن قبائل ، وخططت المدن والأحياء والقرى على أساس قبلي ، وقد سادت الروح والقيم ومظاهر السلوك القبلية في الحياة والسياسة وانعكست بأوضح ما تكون على مرآة الشعر العربي المصري في تلك الفترة فكان يعكس روح العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب واعلاء أفكار الحلف والجوار ، فالذي يقرأ شعر تلك الفترة في مصر يخيل إليه انه انتقل الى البادية أو أن البادية بكل قيمها قد انتقلت الى مصر ، فلا يكاد

هذا الشعر يعكس شيئاً من سمات البيئة المصرية الجديدة وإنما يدور حول نفس الموضوعات والأشكال والأغراض العربية التقليدية .

ولكن عوامل التوحيد المصرية لم تلبث أن اثبتت أنها أقوى من عوامل القبلية البدوية ، فمصر هى استاذة العالم في فن الحكم المركزي ، وقد عرفت مصر الوحدة منذ أقدم العصور لأن طبيعتها الجغرافية تحتم قيام حكومة مركزية قوية تسيطر على النيل وتنظم الزراعة ، والنيل يربط بين أجزائها وقراها ويساهم بدوره في خلق الوحدة الزراعية والاجتماعية ، والزراعة الفيضية – على العكس من زراعة الري والمطر – تستدعي قيام التعاون والتبادل ، فالحضارة المصرية بطبيعتها حضارة وحدة مدنية وليست حضارة فرقة قبلية ، وقد حققت مصر وحدتها الوطنية في عصور موغلة في القدم تسبق التاريخ المكتوب بمئات السنين ، فلم تكن وحدة الوجهين على يد مينا حوالي عام ٣٢٠٠ ق. م. سوى استعارة لوحدة مفقودة سبقها في تقدير الأثريين بأكثر من ألف من ألف عام حين كانت مصر – طبقاً للأساطير القديمة – تحت الحكم المباشر للآلهة من اسرة أوزيريس .

وهكذا لم تلبث عوامل التوحيد المصرية العريقة أن عملت عملها، فلم تنقض ثلاثة قرون على الفتح العربي حتى كانت الروح القبلية قد ذابت في بحر المدنية المصرية في حين تأخرت وحدة القبائل العربية المهاجرة الى أقطار اسلامية اخرى عن الظهور فترة طويلة بعد تحقيق الوحدة العربية المصرية ، بل أن أخلاف هذه القبائل لا زالت قائمة ومميزة الى اليوم في كثير من أنحاء العالم العربي.

ان القضاء على القبلية في مصر خلال هذه الفترة الوجيزة وظهور المجتمع المدني الموحد من أكبر الأدلة على استمرارية مصر ووحدة تاريخها بحيث لا يمكن القول أن مصر العربية الاسلامية تختلف في هذا المضمار عن مصر التاريخية التي امتدت قبل الفتح العربي بآلاف السنين .

* * *

ولقد فرضت مصر احترام شخصيتها على فاتحيها منذ البداية ، ولذا نراهم لا يعاملون ابناءها معاملة طيبـــة فحسب بل يبقون كذلك كثيراً في النظم والأوضاع التي كانت قائمة قبل الفتح على عهدها .

يقول الرافعي وعاشور « كانت مصر عندما فتحها العرب من البـلاد ذات الماضي العريق والتاريخ الأصيل والحضارة الشامخة التي لمس العرب صورة واضحة لها من كل ركن من أركان البلاد. وما كاد يتم الفتح العربي لمصر حتى أدرك العرب أنهم أمام شعب أصيل جدير بالاحترام والتقدير ، فتعهدوا البذور الحضارية التي صادفوها في مصر بالرعاية والعناية بعد أن اعتراهـــا الذبول في أواخر العصر الروماني ، واختار العرب الا يحدثوا تغييراً في النظم السائدة في البلاد إلا مـا تعارض منها مع أحكام الشريعة والدين ، وتركوا لأهل الذمة في مصر مواصلة نشاطهم الحضاري في جو من التسامح والمودة لم يألفوه منذ فترة طويلة وكان أن شهدت مصر في ظـل الحكم العربي ازدهاراً في الحضارة واستقراراً في النظـم وانتعاشاً في الحياة الاقتصادية ونشاطاً في الحياة العلمية والثقافية » [١].

وهكذا احتفظ العرب بالتقسيم الاداري الذي كان سائداً في عصر الرومان والذي تمتد جذوره إلى فجر التاريـخ ويقوم على تقسيم مصر إلى قسمين كبيرين هما مصر العليا ومصر السفلى وكل منهما ينقسم إلى عدد من الكور أو الأقاليـم يبلغ مجموعها ٨٠ اقليماً في الوجهين ، وكل منها تنقسم الى مراكز وقرى .

وكذلك اتبع العرب نفس النظام السائـــد في جباية الضرائب القائم على مسئولية كل قرية بالتضامن عن اداء قدر معين من الضريبة ، فان عمرت القريـة وكثر أهلها زيد عليهم ، وان خربت وقل أهلها انتقص لهم .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي و د . سعيد عاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٦٣ - ٦٤ وهو المرجع الاساسي للصفحات التالية من تاريخ مصر الاسلامية .

واعتبر العرب ان مصر فتحت صلحاً وليس عنوة ولذا لم يغتصبوا الأرض من أصحابها بل أبقوها في أيدي أبنائها الأصليين نظير تأدية ما عليها من خراج حسب جودتها وما تدره من محصول .

ونتيجة لاحترام الفاتحين العرب لشخصية مصر واتباعهم العدل والتسامح إزاء سكانها الاصليين شهدت مصر تحت حكم الولاة العرب ازدهاراً اقتصادياً وصناعياً كبيراً وشعر المصريون بجو من الطمأنينة ساعدهم على التقاط أنفاسهم التي تقطعت لهثاً منذ سقطت آخر أسرة مصرية كانت تحكم البلاد .

وفي نفس الوقت اندمجت مصر بسرعة فائقة في كيان الدولة العربية الجديدة وكان لها دائماً دور في مسائل العصر الكبرى مثل الفتنة ضد عثمان ، والنزاع بين علي ومعاوية ، وحركة ابن الزبير ، والنزاع بين اليمنية والمضرية ، وبين الأمين والمأمون ، ومحنة خلق القرآن .

ولا خلاف على ان المصريين ذوي الأصل العربي المباشر هم الذين كانوا يلعبون الدور الرئيسي في السياسة المصرية في ذلك الحين ، ولكن المصريين الأصليين أيضاً ممن انتقلوا حديثاً الى الاسلام بل والقبط الذين بقوا على دينهم شاركوا كذلك بدور لا يمكن اغفاله ، يدل على ذلك ، مثلاً ، ان القبط لعبوا دوراً في التمكين للدولة العباسية انتقاماً لما أصابهم على يد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وكان مروان قد تحصن في مصر كآخر معقل له بعد هزائمه في العراق والشام أمام العباسيين ، ولكنه عامل المصريين معاملة سيئة ، فأمر باحراق المدن الكبرى على الضفة الشرقية للنيل وعلى رأسها الفسطاط حتى لا يتمكن العباسيون من عبور النهر اليه ، واستثار مروان القبط بصفة خاصة وكانوا لا يزالون الأغلبية في البلاد ، وقبض على بطريقهم الانبا ميخائيل وزج به مع عدد كبير من القساوسة في السجون الأمر الذي جعل القبط يرحبون بالعباسيين ويرشدونهم إلى مسالك البلاد، وكافأ العباسيون أقباط مصر بأن أظهروا مرونة

في معاملتهم ، وأفرجوا عن بطريقهم السجين ، وتعهدوا بحماية ممتلكات الكنيسة وتخفيف الخراج ·

لقد أبرزت مصر الاسلامية شخصيتها في العالم الاسلامي المحيط بها بحكم قوتها الذاتية وتراثها الخاص ومواردها الوفيرة وبحكم عوامل الجغرافيا السياسية التي حبت مصر بموقع ممتاز مؤثر في المنطقة ، ولذا نراها بصفة خاصة تجنح إلى الاستقلال الذاتي في نطاق العالم الاسلامي رغم خضوعها لحكام أغراب ، ولم يكن في ذلك ما يشين تمشياً مع روح العصر بل ان المستوطنين العرب أنفسهم الذين استقروا في مصر زمناً لم يقفوا في طريق جنوحها نحو ذلك الاستقلال الخاص بل ساعدوا عليه بحكم اتحاد مصلحتهم فيه مع صالح المجموع .

وكانت الدولة الطولونية [٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م] هي أول دولة مستقلة في تاريخ مصر الاسلامية ، وقد أسسها أحمد بن طولون التركي الذي استطاع أن يلعب بمهارة على توازن القوى وصراع الانداد داخل مصر والدولة العباسية على السواء ، غير أن العامل الحاسم الذي مكنه من الاستقلال بمصر كان حب الشعب المصري له والتفافه حوله ، ولم ينس ابن طولون فضل المصريين في ولايته فكان عهده عهد رخاء وأمن ونهضة شاملة ، وعرف بصفة خاصة باحسانه إلى فقراء المصريين وتخفيف الاعباء عن الفلاحين ومحاولةالنهوض بالريف ، ويقال ان احمد بن طولون كان يتصدق كل شهر بألف دينار على الضعفاء والفقراء ، وعندما اشتد عليه مرض الموت ، كما يقول أبو المحاسن بن تغرى بردي — خرج المسلمون بالمصاحف ، واليهود بالتوراة ، والنصارى بالانجيل ، والمعلمون بالصبيان إلى الصحراء ودعوا له ، وكان ألمهم عظيماً بوفاته .

واستغل احمد بن طولون مركز مصر الاستراتيجي للتوسع في الشام حتى حمص شمالا ثم واصل زحفه حتى انطاكية وطرسوس وهما أكثر الثغور الاسلامية تطرفاً بالقرب من بلاد الروم وبذلك أثبتت مصر مرة أخرى دورها الاستراتيجي

في المنطقة ، وهو دور أكدته طوال تاريخها السابق ، وستؤكده دائمـاً في تاريخها اللاحق .

وفي عهد الدولة الطولونية ظهرت شخصية مصر المستقلة لأول مرة منذالفتح العربي أو بالأحرى منذ انتهاءعهد البطالسة ومن الواضحلقارىء التاريخالمصري ان رخاء مصر يقترندائماً باستقلالها وبوارها يقترن بتبعيتها. وفي عهدالطولونيين بلغت مصر درجة كبيرة من الرخاء والثراء ظهرت في المشروعات العمرانيـة الضخمة التي قام بها مؤسس الدولة مثل القطائع والجامع والقصر والبيمارستان ، كما ظهرت كأسوأ ما يكون الظهور في مظاهر البذخ والاسراف التي انغمسفيها ابنه وخليفته خمارويه وخلفاؤه الضعاف ممن بذروا ثراء مصر عـلى ملذاتهم ونزواتهم الخاصة وكان ذلك إيذاناً بزوال دولتهم .

وقد تحمل الشعب المصري صنوفاً من العذاب والنكال جزاء تأييـده للحكم الطولوني بعد عودة مصر الى حوزة العباسيين عام ٩٠٥ م ، فيقول ابن تغرى بردى عن القائد العباسي محمد بن سليمان الذي قضى على دولة الطولونيين ابن « حكمه في أهل مصر كان بضرب أعناقهم ، وبقطع أيديهم وأرجلهم جوراً ، وتمزيق ظهورهم بالسياط ، وصلبهم على جذوع النخيل ، ونحو ذلك من أصناف النكال[1].

ولذلك كان من الطبيعي أن يرحب المصريون بأي حكم يخلصهم من إسار دولة الخلافة ويعود بهم إلى الاستقلال مرة أخرى ، فنجدهم يؤيدون حركة محمد بن علي الخلنجي المعروف بابن الخليج بالفعل وبفضل تأييد الشعب المصري من فرض سيطرته زمناً على الدلتا بأكملها حتى الفسطاط ولكنه هزم بالقرب بني سويف وأعدم ، وبعد ذلك التف المصريون حول محمد بن طفج الأخشيد

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٩

وسهلوا له الاستقلال بمصر فقامت الدولة الأخشيدية المستقلة [٩٣٣ - ٩٦٩م] بعد جيل واحد من سقوط الدولة الطولونية ، وبالرغم من ابقاء الاخشيديين على التبعية الشكلية للخلافة العباسية إلا انهم استقلوا بمصر استقلالاً فعلياً ومدوا نفوذهم الى الشام مع شد وجذب مع الحمدانيين .

وفي عهد الاخشيديين عادت مصر تتمتع بالازدهار الذي عرفته في عهد الطولونيين ولكنها لم تلبث ان وقعت فريسة للاضطرابات والمتاعب الداخلية والخارجية ، فاشتد الغلاء نتيجة لانخفاض النيل ، وأصبحت البلاد هدفاً لضغط الحمدانيين والقرامطة في الشرق ، والروم البيزنطيين في الشمال ، والفاطميين في الغرب ، والنوبيين في الجنوب ، ومع ذلك صمدت مصر في مواجهة كل هذه الضغوط ، واستطاعت أن تستعيض عن القوة بالدهاء السياسي ، وهو ما تحلى به الاخشيد وخليفته كافور على السواء .

وفي العصر الأخشيدي ظل المصريون - مسلمون ومسيحيون - يحتفلون بأعيادهم الخاصة التي لا يشاركهم فيها بقية العرب والمسلمين والتي هي ميراث العصور الفرعونية مثل عيد وفاء النيل وعيد النيروز (شم النسيم) ، وقد أشار المسعودي الى مدى اهتمام المصريين بالاحتفال بعيد الغطاس حيث كان الناس يهرعون بعشرات الألوف الى النيل ومعهم المأكل والمشرب وآلات الطرب والموسيقى فيقضون ليلة هي « أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً »[1]

ولم تكن الدولتان الطولونية والأخشيدية سوى ارهاصتين لظهور قدرة مصر الاستقلالية الكبرى التي تجلت فيما بعد في دولة الخلافة الفاطمية وفي حكم سلاطين المماليك البحرية والبرجية على السواء .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٤.

وقد بدأت الخلافة الفاطمية في المغرب في أوائـــل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ولكنها لم تصبح قوة مؤثرة في العـــالم الاسلامي إلا بعد انتقالها الى مصر واستغلالها امكانيات مصر الضخمة للتوسيع والازدهار وكان الفاطميون قد قاموا بأكثر من محاولة لفتح مصر ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك إلا بعد زوال الحكم الاخشيدي، وقد مهد الفاطميون لفتح مصر بإرسال دعاتهم إليها سراً لنشر الدعوة بين طبقات الشعب ، فالفاطميون كانوا أذكى من أن يقيموا اسس دولتهم في مصر على حـق الفتح وحده ، وكانوا منذ البداية وحتى النهاية يقدرون قوة الرأي العام المصري حق قدرها ، ونحن نجد جوهر الصقلي القائد الفاطمي الفاتح يفعل نفس ما فعله الاسكندر من قبل ونابوليون من بعد حين يصدر أماناً للشعب المصري يزعم فيه أنه ما جاء البلاد إلا محرراً ، فيقول « إن أمير المؤمنين لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد تخطتفكم الايدي واستطال عليكم المستذل ... الخ. » ويضيف متحدثاً عن أهداف الفتح الفاطمي لمصر من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطـع العدوان ، ونفي الأذى ، ودفـع المؤن ، والقيام في الحق ، واغاثة المظلوم مع الشفقة والاحسان وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة ... الخ [1]

وبالرغم من أن الحكم الفاطمي كان يعتمد على رجاله وقواته الذين جاءوا معه من المغرب كقبيلة كتامة والصقالبة الروم إلا أن الفاطميين لم يدخروا وسعـاً في سبيل بث دعوتهم بين الشعب المصري وتأصيلهـا بين الجماهير وتراوحت أساليب الدعاية الفاطمية بين مختلف المستويات لتناسب الخاصة والعامة ابتداء من العمل الفكري الرفيـع الى الموالد والأعياد ، ومن القصور ودور الحكمة الى المساجد والشوارع والقرى ، مما يدل في حد ذاتة على خطورة مصر وشعبهـا

---

(١) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية الطبعة الثانية ص ٣٠.

في نظر حكامها الفاطميين، وعلى اضطرارهم الى اصطناع طريق الاقناع مع الشعب المصري المتمرس بالمدنية والحضارة خلافاً لسكان شمال أفريقيا الذين بدأت فيهم الخلافة الفاطمية بحد السيف دون تجشم طريق الاقناع ، ومع ذلك فقد ثبتت أغلبية المصريين على اتباع المذهب السني حتى أن الدولة الفاطمية لم تجرؤ على تعيين شيعي في منصب قاضي القضاة وبقي القضاء في أيدي القضاة السنيين إلى النهاية وكان في ذلك دليل آخر على مقاومة المصريين الفكرية وعدم امكان فرض مذاهب لم يألفوها عليهم رغم تأييدهم للخلافة الفاطمية سياسياً ، وقد ترتب على ثبات المصريين على المذهب السني سوء معاملتهم على يد طائفة المغاربة التي كان يعتمد عليها الحكم الفاطمي واستبعادهم من مناصب الحكم والنفوذ التي أصبحت مشاعاً لطوائف المغاربة والاتراك والسودانيين وأهل الذمة من نصارى ويهود وأرمن .

وعلى الرغم من استبعاد المصريين من الحكم إلا ان شخصية مصر وموقعها الاستراتيجي مكنا الخلفاء الفاطميين من بسط نفوذهم بعيداً في جوف شبه الجزيرة العربية والاستيلاء على الشام ومناجزة العراق نفسها وهي مقر الخلافة العباسية الوطيد . وفي عهد العزيز بن المعز اتسعت مساحة الدولة الفاطمية من مقرها مصر الى بلاد العرب شرقاً ، والمحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً ، وصارت مصر الفاطمية هي القوة الكبرى في حوض البحر المتوسط ، كما انعكس ثراء مصر — وهو نتاج جهد ابنائها — على العصر الفاطمي الذي اشتهر بثرائه وترفه .

وحتى الدولة الأيوبية التي اغتصبت مصر اغتصاباً من أيدي الفاطميين في أواخر عهد انحطاطهم ، تلك الدولة التي قامت على اكتاف صلاح الدين ورجاله بلا فضل لأحد عليهم ، إنما قامت أيضاً بتأييد المصريين ، ولعبت مصر الدور الأساسي في مكافحة الخطر الصليبي تحت راية الأيوبيين ، وقد كان واضحاً

للمسلمين والصليبيين منذ البداية ان الاستيلاء على مصر هو العامل الحاسم في الصراع ، وهذا هو سر الحملات المتكررة التي قام بها الصليبيون على مصر منذ أواخر العهد الفاطمي حتى حملة لويس التاسع أسير المنصورة .

يقول الرافعي وعاشور « ولا يخفى علينا ان مصر كانت المركز الذي استمد منه صلاح الدين قوته وموارده والتي اعتمد عليها في جهوده الحربية التي انتهت بالاطاحة بالصليبيين في موقعة حطين ثم الاستيلاء على بيت المقدس وغيرها من مدنهم ومعاقلهم في بلاد الشام لذلك لا عجب إذا أفاق الغرب الأوربي في أوائل القرن الثالث عشر أمام حقيقة كبرى هي أن مفتاح بيت المقدس موجود في مصر وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام فعليهم أن يسيطروا على مصر أولاً ».

وبعد الدولة الأيوبية خضعت مصر قروناً طويلة لحكم المماليك سواء كسلاطين مستقلين في عهد دولة المماليك البحرية [١٢٥٠ – ١٣٨٢ م] ودولة المماليك الجراكسة [١٣٨٢ – ١٥١٧م] أو تابعين للخلافة العثمانية في تركيا [١٥١٧– ١٨٠٠ م] وطيلة هذا العصر وخاصة في نصفه الأخير توارى الشعب المصري عن الميدان السياسي كلية تقريباً تاركاً إياه لصراع الأمراء المماليك المستجلبين من الخارج ، ومع ذلك كان موجوداً في الخلفية دائماً وكان يرغم السلاطين والامراء على تملقه والتقرب منه ، كما أفصح عن نفسه فيما تخلف عن هذا العصر من الفنون والآداب وفي مواقف قادة الفكر فيه من القضاة والشعراء ورجال الدين كما واصل الأزهر رسالته التنويرية في العالم الاسلامي حتى إذا ما كانت نهاية القرن الثامن عشر وقبيل مقدم الحملة الفرنسية برزت شخصية الشعب المصري بوضوح ، رغم ضعفه وتهالكه ، على النحو الذي صوره الجبرتي في هبات المصريين ضد الامراء المماليك ثم ثوراتهم ضد الاحتلال الفرنسي ثم في تمكين محمد علي من تحدى الباب

العالي وانشاء امبراطورية كبرى في زمن وجيز تمتد الى الحجاز ونجـــد واليمن وسواحل الخليج العربي شرقاً والى الشام وكريت شمالاً والسودان جنوباً .

* * *

على أن أبرز ما قدمته مصر على الاطلاق دفاعاً عن العروبـة والاسلام كان تصديها للأخطار الخارجية التي أحدقت بالمنطقة والتي كان من الممكن أن تقضي نهائياً على الحضارة العربية الاسلامية أو تصيبها بنكسة خطيرة ، وهي بالتحديد الخطران الصليبي والمغولي ، فهنا عادت مصر تمارس رسالتها التاريخيـة وتلعب دورها الاستراتيجي دفاعاً عن المنطقة ، وبعد جهاد مرير تحمـــل فيه الشعب المصري العبء الأكـبر عسكرياً واقتصاديـاً ونفسياً كسرت شوكة الصليبيين وطردوا من ديار العروبة والاسلام ، وصدت موجة المغول ومنعوا من تدمـير حضارة المنطقة .

ويلخص الدكتور جمال حمـدان دور مصر في التصدي للخطر الصليبي في فقرة قوية واحدة ، فيقول « تصدت مصر لثلاث غزوات صليبية بريـة خلال القرن الثاني عشر هلكت أولاها في بيئة الصحراء والمستنقعات بشمال الدلتا عند سبخة البردويل ، ونجحت ثانيتها في التسلل بطريق الصحراء شرقي الدلتـا إلى القاهرة ، أما الثالثة فقد انسحبت في مواجهة المقاومة الشعبية التي تفجرت في شكل حرب عصابات مرهقة في شمال الدلتا حول بحيرة المنزلة ، وعندها تقدمت مصر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر لتسجل حطين صلاح الـدين التي ستكون بداية النهاية . عندئذ اتجهت الصليبيات إلى مصر مباشرة باعتبارهـا مركز الخط الرئيسي عليها وجردت حملات بحرية مباشرة عليها ، وهنا نجـد أيضاً ثلاث غزوات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تركزت جميعها حـول دمياط . الأولى جاءت على أساطيل بيزنطه وصقلية ونزلت دمياط ليتصدى لها صلاح الدين بالحصار المحكم حتى أرغمت على الانسحاب ، والثانية أيام الكامـــل

نجحت في اقتحام دمياط وتخريبها ثم اختراق الريف المحيط بها ولكن لتسقط وشيكا في مصيدة فيضان النيل وشبكة الري الكثيفة التي قطعت عليها فحوصرت وأرغمت على الانسحاب ، والثالثة حملة لويس التاسع في منتصف القرن تماماً حوصرت في طريقها إلى المنصورة وهزمت في فارسكور وأسر قائدها في دار ابن لقمان ، وعادت الشام من جديد أرض المعركة مع الصليبيات فتقدمت مصر المملوكية الى أقصى شمال الشام حتى تخوم الاناضول وأرمينيا والفرات ولتسحق الصليبيات نهائياً مع نهاية القرن الثالث عشر على يد بيبرس ولكن الصليبية اتخذت من قبرص لوحة للقفز من جديد فشهد القرن الرابع عشر غارة قرصنة مخربة على الاسكندرية ردتها مقاومة سكان المدينة ، ولكن كان لا بد من حرمان العدو من قاعدة تهديده فجردت مصر المملوكية عليها في القرن الخامس عشر ثلاث حملات بحرية حتى ضمتها إلى أملاكها ، وهكذا – على البر والبحر – كانت مصر حجر الزاوية في صد القوى الصليبية »[1].

وعن الخطر المغولي يقول الدكتور حمدان « أما الخطر المغولي فقد بدأ منذ القرن الحادي عشر فاكتسح السلاجقة العراق وسوريا ولكن أنفاسهم تقطعت دون مصر ، ولكن القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانا عصر المغوليات الوثنية الرهيبة حقاً ، وذلك في وقت كان فيه الشرق الاسلامي يواجه على جبهته الغربية الغزو الصليبي فشهد القرن الثالث عشر موجـة جنكيزخان ثم هولاكو التي ختمت على مصير العراق الى الأبد ثم اكتسحت شمال سوريا في طريقهـا إلى الهدف الأكبر مصر ، ورغم أن الخطر الصليبي كان لا يزال يستوعب كل المقاومة المصرية إلا ان مصر المملوكية تقدمت تحت قيادة قطز لتعطي المغول أول وآخر انكسار لهم في عين جالوت التاريخية التي حددت - بلا مغالاة – مصير الاسلام جميعاً ، وبعدها وصلوا في مطاردة فلولهم إلى الفرات الذي حدد بذلك نفـوذ

---

(١) د . جمال حمدان : شخصية مصر (المطول) ص ١٧٣ - ٢٧٤ .

مصر الجديد ودورتها التوسعية النادرة ، ولكن الموجة الثالثة عادت مع تيمورلنك في القرن الرابع عشر لتكتسح العراق وشمال سوريا حتى دمشق ولكنها تعجز دون جنوبها اذ تتكسر على صخرة المقاومة المصرية مرة أخرى »[1].

ولا يقلل من أهمية هذا الدور الذي قامت به مصر دفاعاً عن العروبة والاسلام ضد الخطرين الصليبي والمغولي انها كانت عندئذ تحت حكم عناصر أجنبية عنها ، فان طبيعة العصر الاسلامي في ذلك الحين لم تكن تعرف الوطنيات المحلية بل كانت السيادة السياسية الاسلامية تنتقل بين مختلف عواصم العالم الاسلامي في سيولة كاملة، ولم يكن ينظر الى جنسية الحاكم أو موطنه الأصلي نظرة اعتبار، يكفي انه حاكم مسلم تتوافر فيه قليلا أو كثيراً الشروط التي يتطلبها الاسلام في الحاكم ، ولم تكن مصر تحت حكم هذه العناصر الأجنبية — سواء كانت تركية أو جركسية أو كردية أو غيرها — فريدة ذاتها بل كانت نفس الظاهرة موجودة في جميع الأقطار العربية الاسلامية الأخرى ، ان العامل الحاسم في ذلك الدور الذي قامت به مصر دفاعاً عن حضارة المنطقة ومستقبلها لم يكن في شخصية حكامها على الاطلاق وانما يكمن فقط في قوتها الذاتية وثقلها الاستراتيجي والحضاري في المنطقة ، فهذه الامكانيات التي تتمتع بها مصر منذ أبعد عصور التاريخ هي التي مكنت حكامها رغم عدم مصريتهم من القيام بدورهم التاريخي أو كما يقول الدكتور جمال حمدان مع عدم التقليل من عبقرية قادة من أمثال صلاح الدين وبيبرس وقطز إلا أنهم ما كانوا ليحرزوا انتصاراتهم ما لم يكونوا قد اعتمدوا على قوة مصر ، ولو لم يكن صلاح الدين قد تزعم القوة المصرية لما كان قدره قد فاق قدر نور الدين ولو كان قطز أو بيبرس قد ظهرا في بغداد زمن الغزو المغولي لما استطاعا أيضاً انقاذ عاصمة الخلافة .

* * *

---

(١) المرجع السابق : ص ١٧٤ - ١٧٥ .

يمكننا كذلك أن نلمس استمرار الشخصية المصرية في العصر الاسلامي فيما ساهمت به مصر في الجوانب الروحية والثقافيه والفنية من حضارة العصر ، فهذه المساهمات دليل على شخصية مصر المتفتحة وعلى الرواسب الحضارية لدى المصريين فلو لم تكن روح مصر الاصيلة مستمرة تحت السطح لما أمكن لمصر والمصريين القيام بهذا الدور الايجابي في الحضارة الاسلامية .

وأول ما يلفت النظر فيما نحن بصدده تلك المساهمات القيمة التي قدمتها مصر في الناحية الروحية للاسلام واعني بها التصوف ، إذ يؤكد كثير من المؤرخين أن مصر هي التي أوحت بنظام التصوف في الاسلام ، يقول أ. ج . أربرى إن تأثر العرب المسلمين بالرهبنة المصرية المزدهرة في الصحراء الغربية وسيناء أمر مؤكد وان لم يكن هناك سبيل الى اثباته على وجه اليقين ، ويمكن على الأقل القول بأن ظهور حركة التصوف الاسلامية خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين قد أوحى بها الرهبان المسيحيون المنتشرون في صحارى مصر(١).

ومن أوائل الصوفية المسلمين العظام ذو النون المصري (ت٨٦٠ م) الاخميمي النوبي الأصل ، ويؤثر عنه شيء ذو دلالة هو انه كان قادراً على قراءة وفهم النقوش الفرعونية مما يدل على انه كان لا يزال على علاقة بالتراث المصري القديم ، وتعزى اليه مساهمات خاصة في نظرية المعرفة في الاسلام ، وقيل انه وضع أيضاً مؤلفات في الكيمياء وهي كما هو معروف علم مصري قديم .

وليس عجباً أن تزدهر في مصر – وهي أرض الروحانيات العريقة – الطرق الصوفية الاسلامية وأن تساهم مصر بعديد من الصوفيين البارزين أمثال عمر بن الفارض الشاعر الصوفي المصري الكبير (١١٨١ – ٢١٣٤ م) والامام

---

1) Glanville : Legacy of Egypt, The Contribution to Islam P. 351 .

البوصيري (١٢١٣ م) صاحب قصيدة البردة أشهر المدائح النبوية ، وعطاء الله الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية الذي ولد في مراكش ولكنه قضى معظم حياته العملية في مصر وتأثر بمدارسها الفكرية وتوفى بها عام ١٢٥٨ م ، وابن الوفاء الشاعر الصوفي المصري الذي ولد بالقاهرة عام ١٣٥٧ م ، والمؤلف الصوفي الشهير الشعراني الذي ولد بالفسطاط عام ١٤٩٢ م وله أكثر من خمسين مؤلفاً .

أما في مجال الفن الاسلامي فمن الصعب تحديد ما هو مصري لحماً ودماً لأن أهل الحرف والصناعات في الدولة الاسلامية كانوا ينقلون من قطر الى آخر مما يجعل من الصعب تحديد الملامح القومية في الفن الاسلامي ، ومع ذلك فمن السهل العثور على أثر كبير للحرفيين القبط في كثير من الفنون الاسلامية وخاصة في فنون السيراميك والخط وتكفيت المعادن والتطعيم بالفضة على الخشب المحفور وصناعة التحف من العظام والعاج والفضة ، وقد كشفت الحفريات في الفسطاط عن مجموعات كبيرة من السيراميك والنسيج والفخار والتحف يبدو فيها تأثير الفن القبطي واضحاً مما يدل على ان المصريين ساهموا في تطوير الفن الاسلامي منذ أول عهده ، وكذلك فقد برع المصريون في فنون الخط العربي (لا سيما مصاحف العصر المملوكي). أما هندسة المساجد فقد تخلفت مصر فيها حتى العهد الفاطمي ثم لحقت بالتطور في هذا الفن وأبدعت فيه .

أما في المجال الفكري فان مساهمات مصر والمصريين في كافة نواحيه لا تدخل تحت حصر ، فقد قدمت مصر للثقافة العربية مئات بل ألوفاً من أبرز الشعراء والكتاب والمؤرخين والفقهاء والعلماء الذين أثروا لغة الضاد وعقل الاسلام بعبقرياتهم الخلاقة وانتاجهم الخالد على مدى العصور .

ومن هؤلاء على سبيل المثال[١] اللغوي ابن الحاجب (ت ١٢٤٨م) وابن

---

(١) المرجع السابق .

هشام صاحب الدراسات القرآنية واللغوية (ت ١٣٦٠ م) والدماميني في علم العروض (ت ١٤٢٤ م) والزبيدي صاحب تاج العروس (ت ١٧٩١) وجلال الدين السيوطي الموسوعي الثقافة (ت ١٥٠٥ م) وقد نسب اليه المستشرق بروكلمان قائمة من المؤلفات تبلغ ٣٣٣عدداً والمحتمل أنها ناقصة. والدميري صاحب حياة الحيوان (ت ١٤٠٥ م) والجدكي الكيماوي (ت ١٣٤٢ م) . وفي الطب نجد الاسرائيلي (ت ٩٣٢م)وابن رضوان (ت ١٠٦٨م) وفي الفقه المندهيري (ت ١٢٥٨ م)والمناوى (ت ١٦٢٢م) وفي الانتربولوجيا النواجي(ت١٤٥٥م) وابن سيد الناس (ت ١٣٣٤ م) صاحب ترجمة معروفة عن حياة محمد ، وفي الفقه المالكي الجندي (ت١٣٦٥م) وفي الشافعي تقي الدين السبكي (ت ١٣٥٥م) وتاج الدين السبكي (ت ١٣٧٠ م) وفي الحنفي ابن نجيم (ت ١٥٦٣ م) والدمرداشي (ت ١٥٩٥ م) ومن الشافعية أيضاً البلقيني (ت ١٤٠٣ م) والاقفشي (ت ١٤٠٥م) والانصاري (ت ١٥٩٥ م) والخفاجي (توفي ١٦٥٩م)

وفي مجال التاريخ بالذات برز عدد كبير من المصريين أو من اتخذوا من مصر وطنهم الأول ، وفي مقدمتهم ابن عبد الحكم صاحب أقدم تاريخ لفتح مصر المسمى « فتوح مصر والمغرب » وتوفي بالفسطاط عام ٨٧١ م ، وأبوتنحيوس بطريق الملكانية بالاسكندرية (ت ٩٦٠ م) ويعرفه العرب باسم سعيد بن بطريق وله عدة مؤلفات في التاريخ أشهرها « نظم الجوهر » ، والمسبحي (ت ١٠٢٩ م) صاحب التاريخ المتعدد الاجزاء « أخبار مصر وفضائلها »وقد بقي منه جزء واحد فقط هو الرابع عشر ، والمماتى (ت ١٢٠٩ م) مؤلف « قوانين الدواوين » ويضم شرحاً مفصلاً لأحكام أجهزة الدولة في عهد صلاح الدين الايوبي . ومن أشهر المؤرخين المصريين بل عمدتهم جميعاً تقي الدين المقريزي الذي ولد في القاهرة عام ١٣٦٤ م صاحب « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » واستفاد فيه من سابقه الأوحدي ، وكتب أيضاً تاريخ الفاطميين في « اتعاظ الحنفا » كما كتب تاريخ الايوبيين والمماليك في « السلوك

لمعرفة دول الملوك » وكان المقريزي ينوي وضع عمل موسوعي ضخم من ٨٠ مجلداً عن مشاهير المصريين انجز منه ١٦ جزءاً فقطقبل أن تواتيه منيته، وكذلك كتب عن معاصريه « درر العقود » ولم يتمه وبقيت منه شذرات فحسب ، وله « شذور العقور »ومساهمات أخرى في الجغرافيا والعقيدة وعلم الحديث وتوفي بالقاهرة عام ١٤٤٢ م .

ويكاد يقترب من المقريزي في شهرته وأهميته تلميذه ابو المحاسن بن تغرى بردى (١٤١١ـ ١٤٦٩ م) وقد وضع سبعة أعمال في التاريخ المصري أشهرها « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ويحوي تاريخ مصر من الفتح العربي الى عام ١٤٥٣ م، وهناك مؤلف شهير آخر هو ابن دقماق (١٣٥٠ ـ ١٤٠٦م) وكتب أيضاً تاريخاً لمصر بعنوان « نزهة الأنام » اكمله عام ١٣٨٢م وتاريخاً لحكام مصر حتى عام ١٤٠٢م بعنوان «الجوهر الثمين»وذلك بوحي من السلطان برقوق، كما كتب وصفاً لأشهر عشرة مدن في الاسلام بعنوان « الدرات المودعة ».

وهناك كذلك ابن الفرات الذي ولد بالقاهرة عام ١٣٣٤ م وشرع في كتابة موسوعة ضخمة لتاريخ الاسلام بعنوان « تاريخ الدول والملوك » وكان ينوي به تغطيـــة كل التاريخ الاسلامي وبدأه من الحاضر متوغلا في الماضي فتناول أحداث القرن الرابع عشر أولا ولكن وافته منيته عام ١٤٠٥ م بعد أن كتب تسعة أجزاء وصل فيها الى القرن العاشر .

ويأتي بعد ذلك من المؤرخين المصريين السيوطي الذي كتب ثلاثة أعمال في التاريخ أهمها تاريخه عن مصر «حسن المحاضرة» ثم تلميذه ابن أياس (ت١٥٢٤م) الذي وضع واحداً من أهم المؤلفات في تاريخ مصر بعنوان « بدائــع الزهور » وكتب أيضاً تاريخاً للعالم بعنوان « مرج الزهور » ومؤلفاً في الجغرافيا العالميـة مع تركيز خاص على مصر بعنوان « نشق الزهور » ، وفي القرن التاسع عشر كتب الشيخ الشرقاوي (ت ١٨١٢ م) عن تاريخ مصر حتى حملة نابليون ،

وكتب زميله الشيخ الجبرتي مؤلفه الهام « عجائب الاخبار » الذي يعد آخر الأعمال الكلاسيكية الكبرى في الأدب العربي ، ثم كتب علي باشا مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣ م) الخطط الجديدة الذي قصد به اتمام خطط المقريزي في عشرين جزءاً .

وعندما بدأت الطباعة في الشرق العربي كانت مصر في مقدمة الدول التي استغلت هذه الوسيلة الحديثة لتطوير الثقافة العربية والاسلامية ، وسبقت غيرها من الدول الشرقية بمراحل في المادة المطبوعة كما وكيفا ، وانتجت عديداً من كبار المفكرين المحدثين الذين انجزوا الثورة الكبرى في الفكر العربي الحديث ابتداء من رفاعة الطهطاوي إلى المازني وهيكل وطه حسين والعقاد وحسين فوزي ، بالاضافة الى ما أنشأته من مؤسسات ثقافية كبرى أثرت الحضارة العربية المعاصرة اثراء كبيراً وفي مقدمتها الجامعات المصرية .

* * *

من هذا العرض الموجز لمساهمات مصر الاسلامية يمكن أن نخلص الى عدة نتائج ..

النتيجة الأولى ان مصر لم تفقد شخصيتها الذاتية بعد الفتح العربي الاسلامي بالرغم من التغيرات الأساسية التي طرأت عليها بل كانت دائماً ترغم حكامها على احترام شخصيتها .

والنتيجة الثانية ان دور مصر الاستراتيجي في المنطقة ظل مستمراً منذ اقدم العصور الى الوقت الحاضر وأتاح لحكام مصر المسلمين رغم انهم ليسوا من أبنائها أن يستقلوا بها معظم الوقت وان يجعلوا منها نواة لامبراطوريات كبرى.

والنتيجة الثالثة ان امكانيات مصر البشرية والاقتصادية كانت العامل الأول

في دفـع الاخطار الخارجية الجسيمة التي حاقت بالعروبة والاسلام وهددت مصير المنطقة في العصور الوسطى .

والنتيجة الرابعة ان مصر ساهمت بسخاء في الفكر العربي الاسلامي بمـــا قدمته من ثمار قرائح ابنائها ، وبما أتاحته من أمن وطمأنينة للمفكرين المسلمين الذين استقروا فيها، وهي لا تزال تضطلع بدور القيادة الفكرية والسياسية في العالم العربي الى اليوم .

والخلاصة التي لا نمل تكرارها ان الحقبة العربية الاسلامية لم تبتر تاريخ مصر ، وهي ليست أكثر من حلقة في تاريخ مصر المتماسك الحلقات ، الأمر الذي يستقيم في ظله تأكيد مبدأ وحدة التاريخ المصري في كل العصور .

القسم الثالث

بين الوطنية والقومية

مصر والابعاد الثلاثة

تنازعت مصر في تاريخها الحديث ثلاثة أبعاد قومية هي البعد الإسلامي ، والبعد الوطني المصري، والبعد القومي العربي. هذه الأبعاد تعد انعكاساً طبيعياً لشعور المصريين بحقيقتهم المركبة من مزيج من المشاعر الإسلامية والإقليمية والعربية ولكنها للأسف لم تعرف التصالح فيما بينها إلا في مرحلة متأخرة جداً ، بل يمكن القول بأن التصالح التام لم يتبلور فيما بينها بعد .

والمؤكد ان المنازعات التي قامت بين هذه الأبعاد الثلاثة ووصلت إلى حد انكار كل منها للأخرى انكاراً تاماً انما تعبر عن عدم نضج كاف ، ومن طبيعة الأفكار غير الناضجة انها تميل للتعصب لذاتها وانكار غيرها .

وسوف نرى فيما بعد كيف أن هذه الأبعاد الثلاثة انعكاسات لحقيقة واحدة، ولذلك فهي متكاملة وليست متناقضة ، كأن يقال مثلا في وصف رجل ما انه اسمر وفارع وقوي ، ولا يمكن أن تجب إحدى هذه الصفات الصفتين الاخريتين ، ولكن قبل أن نصل إلى هذه النتيجة لا بد من القاء نظرة على تلك الأبعاد الثلاثة ، وكيفية نشأتها، وأثرها في تاريخ مصر الحديث ، والمنازعات التي شجرت فيما بينها [1] .

---

(١) المرجع الاساسي لهذا البحث كتاب « الفكرة العربية في مصر » لأنيس صايغ ولن نشير اليه في الجزئيات الكثيرة المقتبسة منه ، وانما ستكون الاشارة الى المراجع الاضافية الاخرى .

أقدم هذه الأبعاد جميعاً في تاريخ الفكر المصري الحديث هو البعد الإسلامي، فهو ميراث الحضارة الإسلامية التي تأصلت في مصر ، وقد رأينا فيما سبق عند الحديث عن الموجة العالمية التي تقلبت فيها مصر منذ أواخر العصور الفرعونية والتي تقوم على أساس العقيدة لا الوطن كيف أن الموجة الإسلامية كانت من القوة بحيث قضت من فترة وجيزة على أية مشاعر غيرها وفي مقدمتها مشاعر الانتماء القومي الإقليمي . ورأينا كيف تقوم النظرية الإسلامية على انقسام العالم إلى دار سلام هي التي يحكمها الإسلام بغض النظر عن حدودها الجغرافية وتقسيماتها الإدارية والإقليمية ، ودار حرب وهي التي لا تخضع لحكم الإسلام ، والعلاقة بينهما هي الجهاد ، فلا محل مطلقاً لأية مشاعر قومية أو وطنية وانما الشعور الوحيد هو الشعور الإنساني العام القائم على وحدة العقيدة ، بل كان هذا الشعور يستنكر أية مشاعر من هذا النوع باعتبارها نزعات شعوبية ضارة بوحدة العالم الإسلامي .

وهكذا لم يعرف المصريون أو العرب عموماً أو غيرهم من شعوب الامبراطورية الإسلامية أية مشاعر قومية قائمة على المواطن المحلية والحدود الجغرافية والتاريخ الخاص ، وكانت النزعة الشعوبية الفارسية التي تنكرت لذلك بمثابة انتكاسة خطيرة لوحدة العالم الإسلامي ، فكراً وعملاً ، وهوجمت بشدة من مفكري الإسلام وقادته .

هذا الشعور بالاخاء الإسلامي وانتفاء الأحاسيس القومية هو ما أتاح للمصريين والشعوب العربية الأخرى قبول حكام ليسوا عرباً ولا ينطقون العربية ما داموا مسلمين يدافعون عن دار السلام والإسلام ، وقد بدأت ظاهرة حكم العناصر غير العربية تتفشى فور سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية التي اعتمدت في أول أمرها على العناصر الفارسية ثم ظهرت إلى جانبها وحلت محلها العناصر التركية والجركسية والكردية ، واستطاع بعضها الاستقلال فعلاً

بمصر وبغيرها من الأقاليم العربية ثم تدهور الأمر إلى حكم المماليك ذوي الأصول غير العربية وغير الإسلامية معاً ما داموا قد نشئوا كمسلمين ، وأخيراً خضعت مصر والمنطقة العربية كلها فيما عدا المغرب الأقصى للحكم العثماني التركي المباشر. وصارت تحكم كأقاليم تابعة إلى الاستانة ولم يؤثر ذلك مطلقاً في مشاعر الولاء الإسلامي التي يكنها سكان المنطقة وخاصة في مصر للخلافة العثمانية باعتبارها حامية الإسلام .

وكان من نتيجة انتفاء الروح القومية لدى الشعوب العربية عدم ظهور حركات احتجاج قوية في وجه هؤلاء الحكام الأجانب وحتى انتفاضات الشعب المصري على الولاة العثمانيين في القرن الثامن عشر والتي وصلت احداها إلى حد ارغام أحد الولاة على الالتزام بحجة تشبه اعلان حقوق الإنسان في الغرب لم يكن ذلك نتيجة روح قومية خالصة وإنما نتيجة روح إسلامية أساساً لأن الإسلام لا يقر الظلم ولا يسمح للوالي بالحكم المطلق المستبد .

وقد شهدت المنطقة العربية ثورات إسلامية إصلاحية بحتة كثورة عبيد القاهرة عام ١٢٦٠ م بقيادة الزاهد الشيعي الكوراني ، والثورة المهدية في عهد السلطان قلاوون ، وثورة ابن الفلاح التي بدأت في وادي التيم بسوريا . كما شهدت ثورات أخرى ذات طابع اقتصادي وطبقي سواء كانت ثورات بدوية تتمثل في قيام البدو الاعراب بقطع الطرق على الحكام المماليك وسلب تجارتهم وثرواتهم ، أو ثورات زراعية تتمثل في استيلاء الفلاحين على المحاصيل أو حرقها لحرمان الحكام منها ، أو ثورات مدنية يقوم بها فقراء المدن أو من يسمون بالحرافيش ، وهذا النوع من الثورات بالذات كان خالياً من الايديولوجية الدينية بل موجهاً ضد رجعية رجال الدين وتحالفهم مع الحكام المستغلين ومع ذلك فإن الطابع القومي الوطني ظل منتفياً منها ، ولم يظهر هذا الطابع في غموض واستحياء إلا في الثورة الكبيرة التي قامت في صعيد مصر بين عرب الهوارة

والفلاحين المصريين ، وانتهت باستقلال الصعيد من المنيا إلى الشلال بزعامة شيخ العرب همام أمير قبيلة الهوارة ، ولكن هـذه التجربة ذات الأهداف الوطنية والاجتماعية لم تتح لها فرصة الاثمـار إذ سرعان ما أخمدها علي بك الكبير عام ١٧٦٦ م [١] .

ولما دخلت مصر مع الحملة الفرنسية عصرها الحديث لم تكن فيها سوى هذه هـذه المشاعر الإسلامية وهي التي جرحت في الصميم بمرأى الجنود الفرنسيين النصارى يطأون أرضاً إسلامية رغم تودد نابليون الواضح للمصريين وحرصه على عدم المساس بمشاعرهم ، وهكذا كانت ثورة القـاهرة الأولى ضد الاحتلال الفرنسي تحركها مشاعر إسلامية في المحل الأول وتبناها الأزهر ورجاله ولكن ظهر فيها في نفس الوقت ولأول مرة العـامل الوطني تحت لواء العامل الديني ، أو بمعنى آخر كان الدين هو وسيلة ظهور الوطنية في ذلك الحين .

وكان الدافع الأساسي لجهود محمد علي وحروبه التوسعية مصالحه الخاصة وطموحه الشخصي ، ولكنه سربل هذا الدافع بالنزعة الإسلامية والتظـاهر بالرغبة في تخليص الأمة الإسلامية من العثمانيين لأنهم خرجوا على الدين والشريعة. يقول عنه شفيق غربال « ان محمـد علي بدأ وعاش وانتهى عثمانياً مسلماً وأن مهمته كما حددهـا من أول الأمر إلى آخره كانت احيـاء القوة العثمانية في ثوب جديد » ، وكذلك كانت النزعة الإسلامية هي الغالبة لدى ابنه ابراهيم رغم محاولته اضفاء ثوب عربي مصري على نفسه .

وظلت النزعة الإسلامية واضحة حتى في الثورة العرابية نفسها وهي ثورة وطنية مصرية صميمة ، فكان عرابي يتهم الخديو بانه يطعن الإسلام في ظهره ، وكان ينادي باعتبار الخديو منحرفاً عن الشرع لأنه خالف قول الآية الكريمـة

---

(١) د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث جـ ١ كتاب الملال – الفصل الأول .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ، ومن يولهم منكم فانه منهم » وكانت صيحة الاستنفار للجهاد بين الشعب المصري اثناء الثورة العرابية « جاي يا مسلمين جاي » وكان الكثيرون من دعاة الثورة وخطبائها وعلى رأسهم عبدالله النديم ينطلقون من منطلق إسلامي ، وكان الثوار العرابيون يسمون بالهلالية باعتبارهم يقومون بالجهاد ضد حملة الصليب ، وكان عرابي مع اعتزازه الكبير بمصريته وأصله الفلاحي متأثراً بفكرة الجامعة الإسلامية ومقراً بحق السلطان العثماني في مصر .

وكانت فكرة الجامعة الإسلامية بارزة في التفكير المصري من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين نتيجة لمدرسة الأفغاني وتلامذته الذين جددوا الفكر الديني وأبرزوا طابعه التقدمي . وقد أسس الشيخان الافغاني ومحمد عبده جمعية العروة الوثقى للسعي لتوحيد الشرق الإسلامي وتأسيس حكومة إسلامية قوية على قاعدة الخلافة الرشيدة . وبذلك تلقت الفكرة الإسلامية دفعة قوية على يد الأفغاني الذي أخرج منها نسخة تقدمية تستطيع أن تساير العصر بدلاً من النسخة الرجعية السائدة التي تخلفت عن عصور التأخر والجهل والتي قننت الاضطهاد العثماني .

وعلى هذا الخط الإسلامي التقدمي الذي أرساه الافغاني ومحمد عبده انطلق مفكرو وكتاب النزعة الإسلامية الجدد أمثال ابراهيم المويلحي وابنه محمد وولي الدين يكن ومصطفى لطفي المنفلوطي وعبد العزيز جاويش وعلي الغاياتي وأحمد شوقي وكثير من السوريين المتمصرين أمثال أحمد فارس الشدياق والكواكبي ورشيد رضا وغيرهم .

والواقع ان قسماً كبيراً من رجال الفكر والأدب والسياسة في مطلع القرن العشرين بمصر كانوا ينطلقون من هذا الاتجاه الإسلامي ويطالبون باقامة اتحاد سياسي يضم جميع الشعوب الإسلامية ويقوم مقام الوحدة القومية ، وعندما

خلق الاستعمار « مشكلة طائفية » بين مسلمي مصر وأقباطها في أوائل القرن تدعم الاتجـــاه الإسلامي لدى بعض المصريين وحاولوا صبغ القومية المصرية بصبغة شرقية إسلامية في مقابل الصبغة الفرعونية التي تمسك بها الاقباط .

ولكن فكرة الجامعة الإسلامية تلقت ضربة قاصمة عندما تنكر رجـال جمعية الاتحاد والترقي في تركيا للأماني القومية للشعوب العربيــة ثم بسقوط الخلافة العثمانية نفسها في الحرب العالمية الاولى وتخلي تركيا الكمالية نهائياً عــن فكرة الجـامعة الإسلامية ، غير أن دعاة الاتجاه الإسلامي في مصر حاولوا الاستعاضة عن الخلافة العثمانية بالبحث عن وحدة المشرق الإسلامي كله وحاولوا بتوجيه من الملك فؤاد ثم ابنه فاروق من بعده الترويج لفكرة احياء الخلافـة الإسلامية ونقل مقرها إلى مصر ولكن هذه الفكرة قوومت بشدة من دعـاة القومية المصرية العلمانيين ، وكانت اشارة البدء في المعركة بين الاتجاهين كتاب الشيخ علي عبد الرزاق « الإسلام وأصول الحكم » .

ولعبت جمعية الشبان المسلمين التي أسست عام ١٩٢٧ دوراً بارزاً في تأكيد التيار الإسلامي ولاقت اقبـالاً شديداً لدى الشباب المصري المسلم وانتشرت فروعها في البلاد العربية الاخرى ولم يكن للجمعية هدف سياسي وإنما كانت تدافع عن القضايا العربية السياسية من زاوية انهــا قضايا إسلامية بحتة ، ثم ظهرت دعوة الاخوان المسلمين سافرة في اتجـاهها الإسلامي السياسي ولكنها انتهت إلى الارهاب السافر وكان فشل هذه الحركة إيذاناً بفشل الدعوة السياسية الإسلامية في مصر ولا سيا وقد خاض الشعب المصري في نفس الوقت معركته التاريخية ضد حلف بغداد الذي ضم ثلاثاً من الدول الإسلامية غير العربية التي كانت تقف في ذلك الحين مواقف معادية للقضايا العربية وهي إيران وباكستان وتركيا ، وكانت العراق وهي الدولة العربيــة الوحيدة المنضمة للحلف تحت النفوذ الاستعماري المبـاشر ، ثم لم يلبث أن ظهر النفوذ البريطاني سافراً خلف

الدعوة للوحدة الإسلامية بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ فقد تبنت بريطانيا هذه الدعوة لاستقطاب القوى الرجعية في العـــالم العربي والإسلامي .

أمام هذه الطريق المسدودة التي منيت بهـا الفكرة الإسلامية السياسية في مصر تحركت ثورة ٢٣ يوليـــو لوضع الدين في نطاقه الصحيح ، فركزت على المفهوم الحضاري التقدمي للإسلام وعملت على تعميقه في مصر ونشره في البلاد الآسيوية الإسلامية بواسطـــة المؤتمر الإسلامي والبعوث المختلفة . وهكذا تم تصحيح مسار الاتجاه الاسلامي ووضعـه في موضعه الصحيح كرابطة إنسانية ومعنوية عامة وليس كبديل للرابطة القومية السياسية .

* * *

التيـار الثـاني الذي فرض وجوده بقوة على الواقع المصري الحديث هو تيار القومية المصرية وكان انعكاساً لإحساس المصريين بذاتهم وبالبعد التاريخي لبلادهم، وهو تيار علماني سلك في مجراه المسلمون والاقباط جميعـــاً وتبدو فيه بوضوح مؤثرات الحضارة الغربية الحديثـة ، فهو وليد الاحتكاك المبـاشر للمصريين بالحضارة الغربية منذ أوائـــل القرن التاسع عشر حين انفتحوا لأول مرة على مصادر أخرى للمعرفة والتنوير غير المصدر الديني الإسلامي الذي ساد طيلة القرون السـابقة .

لقد سمع المصريون لأول مرة نغمة لم يألفوها من قبـــل حين وجه اليهم بونابرت أول منشور مطبوع بالعربية في بداية حملته على مصر خاطبهم فيه كأمة قائمة بذاتها ومتميزة عن حكامها الأجـانب الذين ينعمون دونهم بخيرات بلادهم الجميلة . واهتم فريق العلماء الفطاحل الذين صحبوا الحملة الفرنسية بالتنقيب في

كافة شئون مصر الطبيعية والاجتماعية والتاريخيـــة وسجلوا خلاصة أبحاثهم في السفر الجليـــل المتعدد الأجزاء « وصف مصر » الذي كان بمثابة اكتشاف لمصر في العصر الحديث .

ولذلك لم يكن محض صدفة ان يشعر المصريون باحساس الوطنية المصرية في زمن الحملة الفرنسية ، وقد تجلى هذا الاحساس ممتزجاً بالمشاعر الإسلامية القوية في ثورة القاهرة الأولى ، كما تجلى خالصاً في مساعي الجنرال يعقوب حنا الذي طالب باستقـــلال مصر ، وتكوين جيش مصري ، والأخـذ بأسبـاب الحضارة الغربية .

وفي تقرير الفـارس لاسكارس الايطالي الأصل الذي رافق الجنرال يعقوب في رحلته إلى أوربا للدعوة لاستقلال مصر نقرأ لأول مرة اشادة بالدور الحضاري التليد لمصر لا باعتبارها جزءاً من الشرق الإسلامي المتأخر وانما باعتبارها منبع المدنية الذي يدين له الغرب المتمدين ، يقول التقرير :

« ان الدول لن تعمل أبداً عملاً أمجد وأنبل من أن تبـــدد بقرار سياسي واحد ظلمات الجهل والوحشية التي تكاثفت على هذه البلاد الذائعة الصيت ، تلك البلاد التي كانت مهد استنارتنا وعلومنا وفنوننـــا ، تلك البلاد التي يمكن القول عنها إجمالاً انها كانت موضع قيام الحضارة التي نقلهـا اليونان عنها ومن اليونان وصلت الينا ، وإذا عجزت مصر بعد زوال عزها وازدهارها عن أن تثير شعوراً بعرفان صنيعها ومـا قدمته من خير فلتثر على الأقل عطف الدول الأوربية عليها .. الخ [1] » .

وفي عهد محمد علي ساهم عاملان هامـــان في خلق الفكرة القومية لدى

---

(١) د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث – جـ ١ .

المصريين وهما استخدام المصريين في الجيش وايفاد البعثات الدراسية لأوربا .

فقد أثبت المصريون كفاءتهم في الجيش رغم انهم كانوا لا يتجاوزون الرتب الصغيرة ، أو كما يقـــول كلوت بك « كان الاتراك (يقصد العاملين في الجيش المصري) لما يشعرون به من غلوهم وكبريائهم يحتقرون المصريين ولا يكترثون بهم ويعتقدون بهم العجز عن مجاراتهم ، ولكن حرب مورة أثبتت لهم بالبرهان القاطع أن ذلك الشعب الخجول الذي أذله الضغط القديم أهل لمنازعتهم فحاز النجاح والفوز في القتال » [١] ، وفي بوتقة الجيش أحس الفلاحون المصريون بوطنيتهم واضطهاد العناصر التركية لهم ، وكان هذا الشعور من أكبر دوافـع الثورة العرابية فيما بعد .

أما الشبان المصريون الذين ذهبوا لطلب العلم في أوربا فقد وقفوا على طرف من الفكر الأوربي الحديث في السياسة والاجتماع والتاريخ والعـلوم التطبيقية وعادوا إلى بلادهم ليبعثوا النهضة الفكرية ويبشروا بالفكرة القومية ، ولأول مرة مثلا نلمس الاحساس بأمجاد التاريخ المصري القديم في قول رفاعة رافـع الطهطاوي في « مناهج الألباب » :

« فقد اجمع المؤرخون على أن مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عليا في الفنون والمنافع العمومية فكيف لا وان آثار التمدن واماراته وعلاماته مكثت بمصر نحو ثلاثة وأربعين قرناً يشاهدها الوارد والمترددويعجب من حسنها الوافد والمتفرج مع تنوعها كل التنوع ، فجميـع المباني التي تدل على عظم ملوكهـا وسلاطينها هي من أقوى دلائل العظمة وبراهينهـا ، فانظر إلى آثار منف وأبنيتها وعجائبها وأصنامها ودفائنها مما يحكيه المؤرخون عنها وانها

---

(١) المرجع السابق : ص ٩٢ .

كانت ثلاثين ميلا بيوتاً متصلة ومنها بيت فرعون وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الأخضر وكان لها سبعون بابا ، وكانت منزل البيوت من القبط الأولى والعماليق ومسكن الفراعنة ، وما زال الملك بهـا الى أن ملك الروم اليونان ديار مصر فانتقل كرسي المملكة منهـا الى الاسكندرية ومع ذلك لم تزل عامرة الى ان جاء الاسلام ثم خربت ، وفيها كانت الأنهـار تجري من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار »[1].

ولدى الطهطاوي نلمس واحدة في أولى المحاولات للفصل بين الوطنية المصرية وفكرة الجامعة الاسلامية واعلاء شأن الوطن الذي ينتمي الى تربته وأديمـه ، فيقول في تعريف الوطن وبث الدعوة إلى حبه « الوطن هو عش الانسان الذي فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ، ومقطع سرته ، وهو البلد الذي نشأته تربته ، وغذاه هواؤه ، ورباه نسيمه وحلت عنه التمائم فيه ... ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف ان لم نقل إنها أشرف الامكنة فهي أرض الشرف والمجد في القديم والحديث وكم ورد في فضلها من آيات بينات وآثار وحديث فما كأنها إلا صورة الخلد منقوشة في عرض الأرض بيد الحكمة الالهية التي جمعت محاسن الدنيا فيها ».

هذا الاتجاه الذي بدا بوضوح لدى الطهطاوي ، وأيضاً لدى نظيره وغريمه علي باشا مبارك تردد قبل ذلك في الخطاب الذي القاه سعيد باشا في مأدبة بقصر النيل وأشار اليه أحمـد عرابي كأول حجر في أساس نظام مصر للمصريين ، وقال فيه :

« اني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ فوجدتـه مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة

(١) د . لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث جـ ٢ ص ١٥٠ - وكتاب الهلال .

كالعرب الرعاة (الهكسوس) والاشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب ومن الترك والاكراد والشركس ، وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن بونابرت ، وحيث اني اعتبر نفسي مصرياً فوجب علي أن أربي أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغني بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسي على ابراز هذا الرأي من الفكر الى العمل » .

هذه النغمة الجديدة التي طرقت حياة المصريين كانت بمثابة عودة الروح الى هذه الأمة ، كانت احساساً بالذات لم يسبق له مثيل في تاريخ المصريين منذ نهاية العصور الفرعونية لقد أحس المصريون فجأة بعد اكثر من ألفي عام من المشاعر العالمية — التي تعلي شأن العقيدة لا الوطن — ببعدهم التاريخي الذاتي ، ولم تعد عقيدتهم الدينية ولغتهم العربية تحجبان عن عيونهم هذه الحقيقة ، انهم يعتزون بالحضارة العربية الاسلامية التي تفاعلوا في أجوائها ثلاثة عشر قرناً ولكنهم يشعرون الآن ان هذه الحضارة على عظمتها وسموها وحيويتها ليست كل شيء في تاريخ مصر بل هناك في خلفية الحقيقة المصرية تنبسط أبعاد تاريخية أخرى لمصر وحضارتها ، هناك نبتت جذور هذا الشعب الذي ترك بصماته واضحة على الحضارة الانسانية قبل أن يسقط تحت حوافر الخيل ، ومعاول الهدم، ولكنه لم يسقط ثمة ليموت ويمحي كما حدث لشعوب أخرى كثيرة ، بل لاذ بخاصيته الفريدة التي مكنته من الحياة ودلت في نفس الوقت على مدى أصالته وقدرته على الصمود ، تلك الخاصية هي ما يصفه المؤرخون بالمقاومة السلبية ، والحقيقة أنها سلبية فقط من حيث الأسلوب أو « التكتيك » ولكنها ايجابية تماماً من حيث الهدف أو « الاستراتيجية » ، ففي الوقت الذي كانت فيه جحافل الغزاة على اختلاف أصولهم ومللهم وأمزجتهم يسيطرون على الوادي العتيد ويتحكمون

في مصير ابنائه كان الفلاح المصري البسيط قابعاً خلف محراثـــه أو مكباً على أدواته يصنع الحضارة بدون انقطاع، لقد ضاع منه كل ما يملك ولكنه لم يفرط في نفسه مرة واحدة ، ولم يسمح لأية قوة بأن تنانزعه من جذوره ، كل ما فعله خلال فترة قهره الطويل انه انتهز تلك الفرصة التاريخية الفريدة التي أتاحها له الفتح العربي ليكتسب حضارة جديدة بدلاً من تلك التي ماتت ، وليجدد دماءه التي كادت تجف في عروقه حتى يستطيع مواصلة الحياة ومغالبة الزمن كخلية اجتماعية حية متفاعلة في الكيان الانساني العالمي بدلاً من ان يذوي كلية أو يبقى كخلية بشرية متحجرة .

والآن ها هي الصحوة تدب في أوصال العملاق الغافي ، ها هم المصريون يفتحون عيونهم على حضـارة الغرب المتألقة ويعرفون الكثير عـن الحركات القومية والوطنية المتأججة في اوربا، ويقرأون صفحات ماضيهم العظيم، فيتحرك في صدورهم الحنين الوطني ، ويتحول الحنين الى لهب مقـدس ، ويصهر اللهب الشوائب التي علقت بهم في رحلة الزمن المضنية ، ليجلو جوهرهم ، ويصقـل معدنهم النقي .

ولقد ساهمت عدة عوامل هامة في دعم اتجاه القومية المصرية ذات البعـد التاريخي لدى المصريين خـــلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ..

العامل الاكبر هو اختلاف نوعية الاحتلال الذي تعرض له المشرق العربي ، فقد استهدفت مصر لأطماع الدول الغربية الأوروبية ثم خضعت للاحتـــلال البريطاني في الوقت الذي كانت فيه تبعيتها للدولة العثمانية شكلية بل كان الوطنيون المصريون يحاولون الحصول على مؤازرة الدولة العثمانية في كفاحهم ضد الاستعمار الغربي ، أما أقطار المشرق العربي فلم تعرف سوى الحكم العثماني المظلم البغيض يخمد أنفاسها ويسحق زهرة أبنائها وكانت تستعين عليهم باعداء مصر التقليديين

أي فرنسا وانجلترا، ومن هنا كانت مشاعر المصريين اسلامية ووطنية ولم يضمروا كراهية عميقة للاتراك بخلاف اشقائهم العرب في الأقطار العربية الأخرى الذين أيقظت معاملة الاتراك السيئة لهم مشاعرهم العربية في وقت مبكر .

وكانت حجة الاستعمار الكبرى لتبرير بقائه في مصر الزعم بأن مصر متأخرة وانها درجت في الذل منذ الأزل وليست أهلاً للاستقلال ولذلك عمد المصريون لدحض هذه الحجة بابراز عراقة الحضارة الفرعونية بدلاً من احياء التراث العربي، وساعد على ذلك ان الحضارة المصرية القديمة بدأت في ذلك الحين تكشف عن روائع مكنوناتها بفضل تقدم علم الآثار وتوالي المؤلفات الغربية القيمة في التاريخ المصري القديم ونشاط حركة الترجمة الى اللغة العربية كل ذلك فتح أعين المصريين على تاريخهم القديم وظهرت بينهم دعوة قوية إلى دراسة هذا التاريخ واستلهامه.

وظلت هذه الدعوة تشغل بال المفكرين المصريين الى وقت متأخر يعود إلى ثلاثينات هذا القرن ، فنجد الدكتور هيكل يطالب في مقدمة كتابه « تراجم مصرية وغربية » بدراسة تاريخ مصر كتاريخ مستقل لأمة مستقلة دراسة علمية شاملة ، ونجد مريت بطرس غالي في « سياسة الغد » يطالب بدراسة موحدة للتاريخ المصري من أوله الى آخره والكف عن درسه حسب عصوره المنفصلة وإيجاد الصلة بين العصور التي تكون كتلة واحدة لأمة واحدة .

وتدعم الطابع القومي المصري لدى معظم أو تقريباً كل دعاة النهضة المصرية الحديثة من زعماء سياسيين ومفكرين وكتاب وصحفيين وفنانين ، وأصبح تيار القومية المصرية ذات البعد الفرعوني يواكب نهضة مصر الحديثة في كل الميادين سواء في مجال الكفاح السياسي أو البناء الاقتصادي أو في الثقافة والفن والتعليم، ولذلك اصطبغت كل الحياة السياسية والفكرية والوطنية بهذه الصبغة المصرية الخالصة ابتداء من الثورات الى برامج الأحزاب الى ثمار قرائح المفكرين .

ولم يكن يعيب هذا الاتجاه إلا شيء واحد ذلك هو الافراط في النزعة الأقليمية على نحو حجب معه قسمة أخرى أصيلة من وجه مصر ألا وهي عروبة مصر والمصريين فلم تفطن النهضة المصرية الى حقيقة انتماء مصر العربي إلا متأخراً جداً وعلى استحياء شديد .

* * *

غير أن هذا النقص بدأ يعالج في مرحلة ما بين الحربين العالميتين حين أخذت مصر تتلمس طريقها الى العالم العربي وتشعر بانتمائها اليه .

فقد أدت الحرب العالمية الأولى الى تغيرات كبرى في العالم العربي ، انهارت الامبراطورية العثمانية وظهرت كيانات سياسية عربية متعددة في الحجاز واليمن والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين والاردن ، ولكن هذه الكيانات لم تحصل على استقلال حقيقي بل ولدت تحت راية الاحتلال الغربي الذي اتخذ لنفسه اسم الانتداب وبدأت في المشرق العربي مرحلة جديدة من النضال الوطني والقومي ضد النفوذ الغربي هذه المرة وضد الخطر الصهيوني الذي زرعه الغرب في أرض فلسطين .

وبالنسبة لمصر خضعت رسمياً للحماية البريطانية التي أخذت شكلاً يكاد يكون معترفاً به من المجتمع الدولي وانتهت تماماً أوهام فكرة الجامعة الاسلامية بسقوط الخلافة العثمانية كما انتهت من قبل أوهام الاستعانة بالدول الغربية الاخرى كفرنسا والولايات المتحدة ضد بريطانيا وذلك بعد توقيع الاتفاق الودي بين فرنسا والولايات المتحدة عام ١٩٠٤ وبعد زيارة الرئيس الامريكي تيودور روزفلت لمصر في مطلع القرن واشادته علناً بالاحتلال البريطاني ، وكان على مصر أن تخوض نضالها الوطني المرير معتمدة على نفسها أساساً ، وعلى أي تأييد خارجي يتاح لها على الصعيد العربي والعالمي .

ولقيت مصر أبلغ التأييد من العرب حكومات وشعوباً رغم الحواجز التي أقامها الاستعمار في المنطقة ، واعترف العرب بزعامة مصر سياسياً وفكرياً ، وردت مصر الجميل بأن أيدت القضايا العربية بقدر مـا تتحمل وتستطيع ، وأصبحت أكثر من أي وقت مضى ملجأ لاحرار العرب المكافحين من أجل حرية بلادهم وقامت بين مصر والبلاد العربية علاقات دبلوماسية وروابط وثيقة توجت بانشاء جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥ التي ساهمت رغم قصورها في تحقيق المزيد من التقـارب العربي . وفي نفس الوقت ربطت سبل المواصلات الحديثة مصر بالعالم العربي من أقصى المشرق الى أقصى المغرب كما أدت ثورة وسائل الاعلام من إذاعة وطباعة وصحافة إلى نقل الانباء والافكار بين اجزاء العالم العربي وشهدت المنطقة طوفاناً من المؤتمرات والزيارات والرحلات ومختلف ألوان التبادل الفني والثقافي والرياضي الخ .

وأدت هذه العوامل جميعاً الى انفتاح لم يسبق له مثيل بين مصر والعالم العربي ، وبدأ شعراء مصر وكتابها وصحفيوها يطرقون الفكرة العربية ، وكان مـن الطبيعي أن يتفاعل الشعب المصري مع الفكرة العربية أكثر من تفاعل الحكومات والأحزاب ، فالدولة كانت خاضعة للسيطرة الاستعمارية والأحزاب مشغولة بقضية الجلاء والمناورات الداخلية ، أما الضمير الشعبي فكان يقظاً وحساساً بما فيه الكفاية بحيث كان سباقاً إلى احتضان الفكرة العربية وهضمها ، وتأسست في مصر عدة أحزاب ونواد وجمعيات اهتمت بمناصرة القضايا العربية والدعوة الى ابراز عروبة مصر ، ومنها جمعية الشبان المسلمين ، والرابطة الشرقيـة ، وجمعية الاتحاد العربي ، والنادي الشرقي ، وجمعية الوحدة العربية ، وجمعيات أخرى كثيرة لمناصرة قضية فلسطين وغيرها من القضايا العربية .

ولكن فكرة الوحدة العربية ظلت بعيدة عن اذهان القوميين المصريين ، بل ان مجرد وحدة النضال العربي كانت مرفوضة لدى البعض ، ويعبر عن هذا الموقف الدكتور هيكل إذ يقول في مذكراته تبريراً لرفضه الانضمام إلى الرابطة

الشرقية .. « فكر جماعة (من المصريين) في أن يصلوا حركة مصر القومية بحركة جاراتها العربية وبحركة البلاد الشرقية التي تخضع من سلطان أجنبي لما تخضع له مصر.. وقد اعتذرت عندئذ (عن عدم الانضمام للرابطة) بأنني أرى من التفاوت بين مصر وبين هذه البلاد الشرقية في ثقافتها وفي لغاتها وفي مقوماتها القومية ما قد يصرفنا نحن المصريين عن تركيز جهودنا في قضية وطننا ومـا يدعونا لحمل عبء لا طاقة لنا به ، وبذلك يضيع جهد ما أحوج مصر اليه » .

وقد شهدت هذه الفترة مساجلات عنيفة بين أنصار الوطنية المصرية ودعاة القومية العربية ..

كتب صلاح ذهني معبراً عن الفريق الأول يقول .. « لم تثر مصر لحادث دنشواي لأنها لم تكن بعد قد فهمت الاهرام واحست الصلة بينها وبين ابنائها ، وانما ثارت عندما ظهرت الروح المصرية التي تفهم الأهرام وأدركت مجد بناتها وافتخرت بأن تنتسب اليهم .. عندما ثارت مصر كانت الأغاني تتحدث عـن أولاد الفراعنة ومصر أم الاهرامات ، وكان النداء - نداء سعد — للمصريين انهم « أنبل الوارثين لأقدم مدينـة » ، ظهر رمسيس وأحمس على الألسنة . لو قال المصريون إذ ذاك انهم ابناء العرب، لو استبدلوا برمسيس وأحمس خالد بن الوليد وعمر بن العاص ، لو غنى المصريون بكل مـا تحوي جزيرة العرب من آثار واطلال ، إذن لما قامت ثورة استقلال ، لأن الثورة الاستقلالية هي دفاع عن الأرض .. الوطن المحدود بماضيه وآثاره وأهله .. إنمـا كان المصريون في ثورتهم يستمدون شعورهم بعاطفة الاستقلال من مصر المستقلة، استنجدوا بالفراعنة لأن عاطفة الاستقلال لا تربطهم إلا بهـؤلاء ، أما العاطفة التي تربطهم بالعرب فهي عاطفة أخرى، العاطفة الدينية والعقيدة وعاطفة الجوار والمصلحة المشتركة والتضامن ضد ما يمس التراث المشترك . حين يكون الأمر ديناً انمـا نستنجد ببلاد العرب ، وحين يكون الأمر خوفاً من غزو أوربا للشرق اقتصاديـاً أو

ثقافياً غزواً ضاراً إنما نستنجد بالرابطة الشرقية العربية ، أما والأمر أمر العزة القومية والاستقلال فلا شيء غـــير مصر المستقلة القديمة هي التي تلهمنا الروح وتنجدنا بالذكريات العذبة المضيئة التي تبعث في النفس روح الحماس ..»

والمثال المضاد يقدمه أحمد حسن الزيات الذي كتب مدافعاً عن عروبـــة مصر رافضاً ماضيها الفرعوني كأوهام لا يجوز التمسك بها فقال « هــذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلثاً من التاريخ العربي نسخت مــا قبلها كما تنسخ الشمس الصاحية سوابغ الظلال .. وذلـــك هو ماضي مصر الحي الذي يصبح في الدم ، ويثور في الأعصاب ، ويدفع بالحاضر إلى مستقبل ثابت الاسس، شامخ الذرى ،عزيز الدعائم .. ازهقوا ان استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ثم انظروا ماذا يبقى في يد الزمان من مصر ، هــل يبقى غير اشلاء من بقــايا السوط ، وانضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفــة ترتل « كتاب الأموات » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور ، وتعنــو للعجاوات . وقبور ذهبية الاحشاء ابتلعت الدور حتى زخمت بانقاضها الأرض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ انشروا مــا ضمنت القبور من رفــاة الفراعين ، واستقطروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يديه من اكفان الماضي الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار ، وعظمة النيل ، وجمال الوادي ، وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح عمرو ، وان اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هــو لسان مضر ، وان القيثار الذي الذي توقعون عليه الحان النيل هو قيثار امرىء القيس ، وان آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذي العالم هي ادعى الى الفخر وأبقى على الدهر وأجدى على الناس من صفائح الذهب وجنادل الحجارة ، انما تتفاضل الأمم بما قدمت للخليقة من خير وتتفاوت الأعمال بما أخذت على الانسان من نفع ، أليس الخزان خــيراً من الكرنك ، والأزهر أفضل من الاهرام ، ودار الكتب أنفع من دار الآثار ؟» .

وما يمكن أن يقـــال الآن تعليقاً على هذين النمطين من التفكير أن الاول أغفل الواقع الحي ، والثاني أغفل الروح الكامنة في أعماق مصر ، فكلاهما لا يعبر إلا عن زاوية واحدة من الحقيقة ..

ولم تلبث أن برزت قضية فلسطين كدفعة كبيرة للفكرة العربية في مصر ، فقد بدأت هذه القضية منذ أواخر الثلاثينات تستحوذ على اهتمام المصريين رغم ان الخطر الصهيوني المباشر على مصر لم يكن قد ظهر بعد . فلم تكن هناك قضية كفلسطين يمكن ان تهز العواطف المصرية من الاعماق .. ان محاولة تجري في وضح نهار القرن العشرين تحت سمع العالم وبصره لتجريد شعب عربي من وطنه وزرع أشتات من البشر محله بدعوى انهم يهود وأن أجدادهم كانوا يسكنون هذه المنطقة منـــذ آلاف السنين ، وفي كل يوم كان ينكشف الجديد من أبعـــاد المؤامرة، والمجاهدون الفلسطينيون يسقطون غدراً برصاص العصابات الصهيونية وطوفان الهجرة اليهودية غير المشروعة لا ينقطع على فلسطين من شتى أنحاء العالم وكأنها أرض مباح لا مالك لها ، لقد هزت المأساة ضمير المصريين ، وايقظت مشاعرهم العربية ، فالتفوا حول القضية الفلسطينية يؤيدونها سياسياً ، ويدعمونها مالياً ، ويهضمونهـــا فكرياً ، وعقدت عشرات المؤتمرات والندوات في مصر تأييـداً لفلسطين وملأت اخبارها أعمدة الصحف وتوالت الاكتتابات لصالـــح الفلسطينيين ، وتحركت الحكومات المصرية وراء الشعب معلنة مؤازرتهـــا للقضية وتضامنها مع الدول العربية الاخرى لانقاذ فلسطين من براثن الصهيونية. وكان أمراً طبيعياً أن تتوج هذه الحماسة باشتراك مصر في حرب ١٩٤٨ رغـــم عدم استعدادها الكافي للقتال ، ورغم خيانة الملك وعدم كفاءة القادة ، ولكن المصريين أبلوا مع ذلك أعظم البلاء وارتوت أرض فلسطين بدمائهم جنـــوداً ومتطوعين وسجلوا على تلـك الارض العربيـــة أعظم البطولات والتضحيات ، ولكن الشجاعة وحدها لا تكفي ، فلم تلبث أن تضافرت الرجعية الداخلية مع خيانة بعض العناصر العربية على اهدار كل هذه التضحيات النبيلة ، وخرجت

مصر مدحورة من حرب فلسطين ، لم تطعن في صدرها بقدر مـــا طعنت في ظهرها .

وكان لمأساة الهزيمة وقع اليم لدى المصريين .. لم تألمهم الهزيمة بقدر ما آلمتهم الخيانة ، وبدا للوهلة الاولى ان الفكرة العربية قد فشلت في أول امتحان تتعرض له ، وأخـــذ المصريون يراجعون حسابهم وبدأت مشاعر العزلة تتصاعد مرة أخرى مع نكسة القضية العربية وانحسار مدها الثوري ، ولكن فجأة وفي قلب هذه البلبلة قامت ثورة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ .

* * *

بدأت ثورة يوليو كثورة مصرية بحتة أشعلتها جماعة من الضباط المصريين الشبان الذين اشتركوا في حرب فلسطين تحدوهم كابناء وطنهم جميعاً أنبل المشاعر وأعرض الآمال ، ولكنهم لم يلبثوا قبل غيرهم واكثر من غيرهم أن لمسوا مدى الخيانة والفساد والانحلال الذي يتردى فيه الوطن ، وحدقوا بعيونهم في الهوة الرهيبة المحفورة تحت قدميه ، ولذلك كانوا كما قال قائد ثورة يوليو جمـال عبد الناصر يحلمون ويفكرون في مصر وهم طريحو الخنادق وسط المعمعة .

لقد آمنوا بأن الاصلاح بمعناه الثوري وآفاقه البعيدة يجب أن يبـــدأ من الداخل ، في مصر ، وآمنوا أيضاً بأن الاحزاب القائمة — وقد لمسوا نشاطهـا عن كثب — أعجز من أن تتخطى الهوة القائمة وأن الوطن في حاجة إلى ثورة شاملة تقتلع الفساد من جذوره ، ولذلك قامت الثورة تحدوها الرغبة الجامحة في اجتثاث الفساد الداخلي وتحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي ، ولكن الثورة لم تلبث أن واجهت ضرورة تحديد هويتها ومسارها ، وكان عليها بصفة أساسية أن تحدد المفهوم القومي لمصر هل تواصل الاتجاه الوطني الاقليمي ، أم تتعلق بالاتجاه الاسلامي العام ، أم تنفتح على الاتجاه القومي العربي ؟.

كانت هذه المسألة من أولى المسائل التي شغلت فكر عبد الناصر ، فكتب في « فلسفة الثورة » يفاضل بين أهمية الاتجاهات الثلاثة في معرض الحديث عن الدوائر الاسلامية والافريقية والعربية التي ينبغي أن تعمل مصر في نطاقها ، ومع عدم التقليل من أهمية الدائرتين الاوليتين خرج عبد الناصر بنتيجة محددة عبر عنها بقوله « ما من شك ان الدائرة العربية هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا، فلقد امتزجت معنا بالتاريخ،وعانينا معها نفس المحن وعشنا نفس الازمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك « ويضيف » لقد بدأت .. أؤمن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسي : ما دامت المنطقة واحدة، وأحوالها واحدة، ومشاكلها واحدة، ومستقبلها واحداً، والعدو واحداً مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ، فلماذا تشتتت جهودنا ؟».

وليس هناك كالممارسة العمليــة شيء يمكن أن يؤدي الى اختبار الافكار وبلورتها ، وقد أتاحت أحداث وتطورات الخمسينات فرصة عمليــة للمصريين لممارسة الفكرة العربية والتمرس بالسياسة العربية وربط كفاحهم بالكفاح العربي، وخلال هذه الفترة سقطت الحواجز الاستعمارية بين الشعوب العربية المتطلعة إلى الحرية والوحدة والتقدم الاجتماعي وبدا واضحاً أنها تتعرض لعدو واحد وخطر واحد يتمثل في الاستعمار الجديد وقاعدته اسرائيل ، وبنفس الوضوح بدا أن المستقبل واحد وان هناك ارتباطاً عضوياً لا ينفصم في المصير العربي العام .

وكانت المعركة ضد الاحلاف الغربية من أولى المعارك التي خاضتها ثورة يوليو على الصعيد العربي العام ، لم يعد المصريون يرفضون هذه الاحلاف بالنسبة لمصرهم فقط كما كانوا يفعلون في أواخر الاربعينات واوائـــل الخمسينات حين رفضوا معاهدة صدقي – بيفن والحلف الرباعي . بل أصبحوا يرفضونها بالنسبة للمشرق العربي كله ، ويرون في حلف بغداد والمشروعات الاستعمارية المماثلة سجناً كبيراً وتهديداً مباشراً لمصر وشقيقاتها العربيات، وقدمت فكرة القومية العربية السند

القوي المباشر لنضال مصر ضد الاحلاف الغربية في المنطقة العربية كلها ، ولم يستطع أحد من غلاة الرجعيين أو الاستعماريين أن يطعن كفاح مصر لتحرير المنطقة العربية من خطر الأحلاف بدعوى ان هذه الاحلاف لا تربط مصر نفسها.

وخلال هذه الفترة برز الخطر الاسرائيلي كخطر مباشر على مصر ، وقامت القوات الاسرائيلية في عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ بسلسلة من الاعتداءات في غزة وخان يونس والعوجة والصبحة والكونتيلة ورفح ، وأثبتت اسرائيل بالدليل العملي نواياها العدوانية التوسعية في العالم العربي تحقيقاً لحلم الصهيونية المنقوش شعارا للكنيست بجعل حدود إسرائيل تمتد من الفرات الى النيل وأيقن المصريون ان الخطر الاسرائيلي أكبر من أن يواجه بسياسة إنعزالية اقليمية بل تتحتم مواجهته بعمل جماعي عربي وحدوي يرد على هذا الخطر المشترك .

ثم تعرضت مصر للعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ وهب العرب جميعاً على اختلاف حكوماتهم واحزابهم وتنظيماتهم واتجاهاتهم يؤيدون مصر ويضعون أنفسهم على الخط الأول في المعركة وكان درس العدوان مناسبة عملية أظهرت قوة التضامن العربي وأثبتت للمصريين انهم لا يقفون وحدهم وان ظهرهم محمي بالأخوة العربية ، وأن الضربات التي يتعرضون لها يمكن أن تفقد قوتها في العمق الاستراتيجي العربى ، وهكذا لم تخرج مصر وحدها ظافرة من العدوان الثلاثي ، وانما خرجت القومية العربية أيضاً ظافرة رافعة أعلامها.

واستمر المد العربي الثوري بقيادة مصر يطهر الارض العربية من الخليج إلى المحيط فقامت ثورة العراق وسقط حلف بغداد وفشل التدخل الامريكي في لبنان وسقط مشروع ايزنهاور لملء الفراغ وأحبطت المؤامرات الاستعمارية ضد سوريا وتلقى الكفاح العربي في المغرب والجنوب دفعة هائلة أدت فيما بعد إلى انتصار ثورة الجزائر واستقلال الجنوب العربي .

وأدى تيار القومية العربية الظافر المكتسح إلى التعجل في محاولة تحقيق الوحدة العربية الشاملة فقامت الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ وأعلنت الجمهورية العربية المتحدة التي أريد بها أن تكون نواة لدولة العرب الكبرى في المستقبل. وليس هنا مجال الحكم على تجربة الوحدة المصرية السورية ولكن يمكن القول بانها لم تفشل لأنها تعارض أماني المصريين أو السوريين ، ولم تفشل لانها لم تتسع لتحقيق مصالح الشعبين ، وانما فشلت نتيجة لعدم الاعداد الكافي ولوجود أخطاء كبيرة في التطبيق والتنسيق ولعدم التحرز من الرجعية الداخلية والمناورات والمطامع الشخصية وغير ذلك من الأسباب التي مهما قيل عن خطورتها وجسامتها فانها لا تمس الجوهر ذاته .

وبعد فشل الوحدة المصرية السورية كان يخشى أن تدخل حركة القومية العربية مرحلة من الجذر والانحسار ، ولكن مصر كانت قد أدركت بما فيه الكفاية ان انتماءها العربي ليس مجرد سياسة أو اسلوب نضال دائرة نشاط وانما هو حقيقة وجود ، لقد ادركت ببساطة انها عربية وعليها ان تكون كذلك في السراء والضراء ، ولذلك واصلت مصر حمل اسم الجمهورية العربية المتحدة ورسالتها ، وواصلت سياستها التحريرية التقدمية في المنطقة رغم ان الرياح لم تكن مواتية بل كانت في أغلب الأحيان معاكسة .

وإذا كان فشل تجربة الوحدة اختباراً قاسياً لعروبة مصر خرجت منه بنجاح ، فان اختباراً آخر أشد قسوة كان لا يزال يخبئه لها القدر ، فعندما حدثت الهزيمة العسكرية المريرة في تاريخ العرب والمصريين في يونيو ١٩٦٧ ظن الكثيرون في المنطقة وخارجها ان هذه هي نهاية دعوى القومية العربية بالنسبة للعرب عموماً وللمصريين خاصة ، وان كل دولة عربية ولا سيما مصر سوف تلزم حدودها الاقليمية وتعكف على شئونها الخاصة ايثاراً للسلامة في

منطقة تعلو فيها قبضة الصهيونية العاتية وتسيطر على أجوائها أسلحة الامبريالية الأمريكية .

ولكن أوهام أعداء العرب سرعان ما انهارت على صخرة المقاومة المصرية — العربية ، وكان تمسك مصر بعروبتها أول شوط أتاح للمنطقة العربية الصمود في وجه تحد لم يسبق له مثيل منــذ أيام الصليبيين والتتار ، ولم يكن تمسك مصر بعروبتها وبقيادة الكفاح العربي من أجل النصر من قبيل التفضل أو المجاملة بل كان اقراراً لحقيقة بسيطة واضحة تعي واقع مصر العربي وارتبــاطها العضوي بالمصير العربي العــــام ولذلك التزمت مصر بالسعي لتحرير كل الأراضي العربية المحتلة ولم تسع لتحرير سيناء وحدها .. أعلن هذا الهدف قادة مصر عندمــا أكدوا انه لن يكون هناك حل مصري لأزمة الشرق الأوسط تماماً كما أنه لن يكون هناك حل سوري أو أردني بل هناك حل واحد لا بديل عنه هو الحل العربي للمشكلة سواء بالسلام المشرف أو القتال حتى النصر .

* * *

ثمة خطأ واحد شاب مرحلة اعــلان عروبة مصر ذلك هو تصور البعض وجود تعارض بين المصرية والعروبة ، وان اعلاء شأن العروبة يقتضي التغاضي عن السمات المصرية الخاصة ، وان الاعتزاز بالمصرية ينطوي على مساس بعروبة مصر والتقليل منها ..

لقد تصور البعض أن عروبة مصر تعني عدم وحدة تاريخها ، وان القول بوحدة التاريخ المصري يعني التنكر للقومية العربية ، وأصبح تاريخ مصر الخاص شيئاً شبه محرم أما الاشارة لماضيها الفرعوني فهي الكفر بعينه !

وما أسرع ما كانوا يشهرون الاتهام بالاقليمية في وجه كل من يتحدث عن

التاريخ المصري القديم أو يزعم وجود سمات مصرية خاصة بل وصل الأمر بالبعض إلى حد المطالبة بعدم استخدام اسم مصر اطلاقاً وتحريم الأغاني التي تتغنى بهـــذا الاسم بدعوى أن ذلك يقوي الاتجاهات الاقليمية الانعزالية لدى المصريين !

ولكنها الحساسية المفرطة ازاء شبهة التناقض بين القومية والتـــاريخ هي ما كانت تملي مثل هذا التفكير ، وكأن محاولة طمس تاريخ مصر واسمهـــا وقسماتها الخاصة هو ما يجعلها عربية !

وقد وصل الأمر إلى حد أن كثيراً من الكتاب والمفكرين الممتازين كانوا يتورعون – وكأنهم أمام « تابو » أو ارهاب فكري – عن الاشادة بالحضارة الفرعونية ، ويمكن أن نضرب هنا مثلاً تلك الفقرة الاعتذارية التي وردت في كتاب الدكتور جمال حمدان القيم « شخصية مصر » وتقول « اليوم لم تعد مصر الفرعونية إلا مكـدسة في المتاحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين ، أما في الوادي فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر ، ولهذا ننتهي إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت في مجموعهـــا دون أن ينفي ذلك الاستمرارية المحورية في حضارتنا المادية »[1] .

ويبدو هذا الحكم غريباً في خاتمة كتاب جاد ممتاز كرس لجـــلاء شخصية مصر الجغرافية التاريخية النفسية وأوضح بما فيه الكفاية ان الشخصية المصرية في صورتها الحالية انمـا ساهمت في صياغتها إلى حد كبير المرحلة الفرعونيـة ، ولكن تأتي هذه الفقرة لتوحي بأن هذه المرحلة يمكن بترها ببساطة كحفرية غير حية تماماً كحضارة الانـكا في أمريكا الجنوبيـــة فهي ليست أكثر من آثار

---

(١) شخصية مصر ص ٤٨١ .

مكدسة في المتاحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين . غير أننا نقول – وكذلك يقول منطق كتاب جمال حمدان نفسه – ان مرحلة الحضارة الفرعونية ليست حفرية ميتة في تاريخ مصر إلا بالقدر الذي يمكن أن تعتبر فيه الطفولة والشباب مرحلة ميتة في عمر الرجل الناضج ، حقاً ان الرجل لا يمكن أن يرتد إلى الطفولة او الشباب ، ولكنه لا يستطيع أن يهرب من تأثيرهما في حياته، ولا يستطيع أن يزعم أنه قفز إلى الحياة بصورته هذه ، بل نقول ان المرحلة الفرعونية بالرغم من موت مظاهرها قد لعبت دوراً هاماً في صياغة الشخصية المصرية ، ولا يمكن بترها كحضارة سومر وبابل بالنسبة للعراقيين المحدثين، فالعراقيون العرب المحدثون كانوا بمثابة فرشة جنسية جديدة على أرض تلك الحضارات القديمة فهم منبتو الصلة عضوياً بها وليسوا كذلك المصريون المحدثون الذين هم امتداد طبيعي للشعب الذي صنع الحضارة الفرعونية دون أن يعني ذلك أي جمود أو ارتداد للماضي .

مرة أخرى انها الحساسية المفرطة إزاء شبهة التعارض بين التاريخ والقومية . . وهي ظاهرة تعتبر رد فعل مباشر لمرحلة تجاهل عروبة مصر ولمعارك المراهقة الفكرية بين دعاة القومية المصرية ودعاة الفكرة العربية في مرحلة ما بين الحربين .

ولا شك في أن الذين يحاولون التشكيك في عروبة مصر لعزلها عن العالم العربي منطلقين من تغليب الاقليمية على القومية والفرعونية على العروبة إنما يصدرون عن ضيق أفق وربما عن خبث سياسي مقصود ، فإن مصر هي قلب العالم العربي وحجر الأساس فيه ، ومصيرها مرتبط بمصير الأمة العربية ارتباطاً عضوياً ، وهي من الناحية العددية ثلث العالم العربي ، ومن الناحية الثقافية قائدة الفكر العربي ، ومن الناحية الاستراتيجية قلعة الدفاع والهجوم للعرب جميعاً .

ولكن ذلك لا يعني فصم تاريخ مصر أو الغاء سماتها الخاصة، وحسن إدراك

المصريين لعروبتهم لا يستدعي أن يتجاهلوا تاريخهم وأن يغفـــلوا عن فهم وإدراك مراحله المختلفة القديمة والمتوسطة والحديثة لأن هذا التاريخ نفسه هو الذي صاغ شخصية مصر العربية المعاصرة، وهو الذي تمت في أحشائه تلك العملية العميقة المعقدة التي أسفرت عن تعريب مصر، وتصديها لحمـــل لواء العروبة فكراً وعملا .

ويعجبني في هذا المقام قول أنيس صايغ وهو الحريص على الدفاع عن القومية العربية واعلاء شأنها .. « ان القول بابعاد معينة لتاريخ مصر وحضارتها ليس خطأ بحد ذاته، انما الخطأ في انكار الأساس العربي لهذا التاريخ وتلك الحضارة من أجل تمتين أحـــد تلك الأبعاد، والقول بالحقيقة العربية لا يعني اذابة مصر ومحو إسمها وتاريخها وحضارتها بقدر ماهو توطيد للعلاقات المصرية العربية»[1].

ويعجبني كذلك دفاع الدكتور حسين فوزي عما يسمى بالمدرسة الفرعونية التي نشأت عقب ثورة ١٩١٩ في عشرينات هذا القرن إذ يقول « ولم تكن تلك المدرسة لتتنكر للعروبة، فما عرفنا من أقطابها إلا كتاباً في صدارة كتـــاب العربيـــة، ومفكرين من أعرف الناس بتاريخهم الإسلامي، انما كانت حركة تحاول أن تمحو عن المصريين سبة وعاراً، سبة جهلهم بتاريخهم، وعار ازدرائهم بأمجد حقبة من أحقاب هذا التاريخ »[2] .

* * *

والوحدة العربية لا يمكن أن تعني اغفـال الخصائص الاقليمية للشعوب، وهي ليست عصا سحرية تزيل بلمسة واحدة كل الفروق والاختلافات والسمات

---

(١) الفكرة العربية في مصر : ص ٣٢٨ .

(٢) سندباد مصري : ص ١١٦ .

النفسية والتاريخية والثقافية بين أفراد الأمة العربية .. بين السوري والمصري والمغربي والسوداني واليمني ، وهي ليست خاتماً يدمغهم بطابع واحد ، ولا مصفاة لا تسمح بنفاذ سوى الاحجام المتماثلة ، وهي ليست ضريبة لا يمكن تأديتها إلا بالتخلي عن الطابع المحلي ، وإنما المحظور الوحيد أن يكون التمسك بهذه الخصائص الإقليمية وسيلة لضرب الوحدة العربية أو الحيلولة دون قيامها .

والهدف من الوحدة – بل ومعناها بالتحديد – ليس خلق شعب جديد متماثل في كل شيء ، وانما اقامة كيان وحدوي للشعوب العربية ينسق جهودها السياسية والاقتصادية والدفاعية والثقافية ويكتل قواها بما يعود عليها بالنفع المشترك ويدرأ عنها الخطر المشترك .

والشكل السياسي للوحدة ينبغي أن يكون مريحاً وطبيعياً بمعنى أن لا ينطوي على تجاهل الحقائق المحلية وطمس السمات الذاتية للشعوب المشتركة فيها ، فلا يلغي الجزء من أجل الكل ، ولا يحارب حنين المواطن لأرضه التي تمتد فيها جذوره بدعوى محاربة الاقليمية ، فإن أخطر ما يهدد الوحدة العربية اقتلاع المواطنين رأسياً لنثرهم أفقياً .

الوحدة العربية يجب أن تكون صيغة دقيقة للتوفيق بين الجزء والكل ، ومراعاة التنوع في اطار التجمع ، وبغير ذلك يظل خطر الانتكاس قائماً ، وتظهر الفرصة لضرب القومية نفسها لحساب الاقليمية ، أو تحدث الصورة العكسية فينشأ حكم حديدي بدعوى حماية الوحدة من خطر الانتكاس وبذلك تكون وحدة غير ديموقراطية ، وغير تقدمية ، وبالتالي لا يتسع لها المستقبل .

ولا يمكن أن تتحقق الوحدة العربية الشاملة بقرار سياسي فوري ، وفشل تجربة الوحدة السورية المصرية أبلغ تحذير من هذا الأسلوب ، فالوحدة الحقيقية

ليست بمجرد خروج إرادي من باب يخفي وراءه الإقليمية والدخول في باب تنبسط أمامه القومية .. هكذا ببساطة شديدة وبتعسف كبير . وانما هي ثمرة طبيعية ومحتومة للنضال الشاق الطويل الذي تخوضه شعوب الأمة العربية جمعاء رغم أي اختلافات فيما بينها .

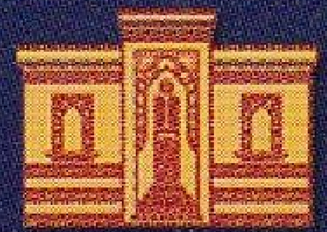
وإلى أن تتحقق هذه الوحدة الشاملة وحتى بعد أن تتحقق ستظل المشاعر الوطنية قائمة إلى جانب المشاعر القومية ، فلا تعارض البتة بين الوطنية والقومية .. بين الجزء والكل .. بين مصر والعروبة .

المحتويات

هذه السلسلة

تعد الثورة المصرية التى تفجرت فى ٢٥ يناير ٢٠١١ موجة جديدة ورائعة من موجات ثوراتنا الوطنية من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الإجتماعية، ولما كان تاريخنا الوطنى الحديث والمعاصر قد مر بثورات وطنية ضد النفوذ الأجنبى والاستعمار والاستغلال والاستبداد، فقد أرادت دار الكتب والوثائق القومية أن تقدم هذه الإصدارات - غير الدورية - التى تعالج قضايا النهضة والثورة والحرية والعدالة، سواء عن مصر أو غيرها من تجارب الأمم الأخرى، خاصة ونحن على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخنا الوطنى، لتخاطب بها عقول الشباب وعامة المثقفين. ولتصلهم بتراث الفكر المصرى الحديث والمعاصر، والتراث العالمى على حد سواء.

ودار الكتب إذ تحيى ثورة الشباب فإ
تقدم بهذه الإصدارات - بسعر رمزى -
ومعرفيًا يذكى معارك النهضة والتحرر بك
لنبنى معًا مصر جديدة وطنًا للحرية والعد
كما كانت عبر تاريخها المجيد



دار الكتب والوثائق القومية

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة